

أكتوبر 2018

427

مون تايجر

رواية

تأليف: بينيلوبي لايفلي
ترجمة: د. إيناس التركي
مراجعة: عبدالله الزعبي



مون تايغر

رواية

مكتبة | 375

تــألـيـف: بينيلوبي لايفلي

تــرجـمـة: د. إيناس التركي

مــراجـعـة: عبدالله الزعبي

Moon Tiger
by
Penelope Lively

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2018م

إبداعات عالمية - العدد 427

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1923 - 1990)

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-609-6

اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور
والفسحة والسرور
اللهم اقبلها في عبادك الصالحين
واجعلها من ورثة جنة النعيم
ذكرى لـ نورسين

الفهرس

المقدمة

صدرت رواية «مون تايجر» Moon Tiger في العام 1987، بقلم الروائية البريطانية بينيلوبي لايفلي (1933 Penelope Lively)، ونالت لايفلي عن الرواية أهم الجوائز الأدبية المخصصة للأعمال الروائية الإنجليزية، ألا وهي جائزة مان بوكر. يمتد زمن الرواية في وقت ما قبل وأثناء وبعد الحرب العالمية الثانية؛ تقدم الرواية التاريخ، لا من منظور خطِّي تقليدي وتسلسل زمني طبيعي، ولكن من خلال ما تطلق عليه كلوديا «منظور المشكال»، وهو أنبوب به مرايا وخرز وقصاصات ملوَّنة تشكِّل نقوشاً وزخارف مختلفة كلما هزَّها المرء. فنجد الأحداث التاريخية وأحداث حياة البطلة نفسها وقد تداخلت معاً، مع نقلات زمنية مفاجئة بين الماضي والحاضر. فبطلة الرواية هي كلوديا هامبتون المؤرِّخة، مثل لايفلي نفسها التي حصلت على ليسانس التاريخ الحديث من جامعة أوكسفورد. وتفتتح الرواية برغبة البطلة في كتابة تاريخ العالَم بينما هي طريحة الفراش في مستشفى تقضي أيامها الأخيرة مريضة بالسرطان. وأثناء كتابتها ذلك التاريخ توثق أحداث حياتها الخاصة أيضاً؛ فمن خلال البطلة، تعرض لايفلي العلاقة المعقدة بين العام والخاص، والماضي والحاضر، واستعادة الماضي من خلال الذاكرة الجمعية والشخصية. تقول كلوديا، بطلة رواية مون تايجر: «لو لم أكُن جزءاً من الكل، فأنا لا شيء». ومن خلال هذه المقولة المفتاحية يمكن للقارئ أن يستشفّ فلسفة الرواية بأكملها في الربط بين العام والخاص حيث تقضي كلوديا لحظاتها الأخيرة وهي تفكر في كتابة تاريخ العالم على التوازي مع تاريخ حياتها الخاصة.

وكانت لايفلي نفسها التي وُلدت في القاهرة في عام 1933 لأبوين بريطانيَّين، وعاشت في مصر حتى بلغت الثانية عشرة من عمرها، قبل إرسالها لتكمل دراستها في مدرسة داخلية في بريطانيا، قد كتبت مذكِّراتها عن طفولتها في مصر في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، بعنوان «أشجار الدفلى والجاكاراندا: رصد لذكريات الطفولة» (Oleander, Jacaranda; A Childhood Perceived)، وقد استوحت العنوان من تلك العادة التي كانت تمارسها وهي تراقب الطريق من نافذة السيارة وتعدُّ الأشجار المتراصة على جانب الطريق بالتبادل: دفلى جاكاراندا، دفلى جاكاراندا... وفي طريق العودة كانت تعيد الكَرَّة بأسلوب عكسي: جاكاراندا دفلى، جاكارندا دفلى... فتعيد ترتيب منظورها تبعاً للواقع الجديد الذي تمر به.

ولا يمكن فصل نظرية كلوديا الخاصة بالتاريخ عن رأي لايفلي نفسها الذي عبَّرت عنه في مذكِّراتها تلك، حيث قالت إن إحدى المشكلات المتعلقة بترتيب المشاهد والذكريات في العقل هي أنها لا يمكن تصنيفها تبعاً لتسلسل زمني محدَّد، فكل عادات المرء تميل ناحية التسلسل والترتيب، لكن الذاكرة ترفض الخضوع لذلك النظام، فدُونَ أي دليل ملموس يحفظه العقل، لا توجد طريقة نتذكر بها ماذا حدث في أي وقت وأي حدث سبق غيره. ومن خلال هذه النظرة المعقدة تكتب كلوديا تاريخ العالم. وتُظهِر الرواية اهتماماً ملموساً بالزمن بصفة عامة، وبالزمن الذاتي غير الموضوعي بصفة خاصة؛ إذ «يمكن لساعة أن تبدو كيوم، ويمكن ليوم أن يبدو كساعة»، تبعاً لحالة المرء النفسية والمزاجية، تماماً كما تتباين مواقف الناس من الشخصية التاريخية نفسها والحدث التاريخي نفسه، ويتباين منظورهم تبعاً لعوامل مختلفة، وعلى نحو يؤكد العلاقة بين العام

والخاص، والعلاقة بين التاريخ الجمعي والتاريخ الشخصي.

تستخدم لايفلي في روايتها أسلوباً سردياً معقداً بعض الشيء؛ إذ يعكس بناء الرواية النظرية لبطلتها المؤرخة أن للتاريخ أصواتاً عديدة، ويجب سماع كل الأصوات، لكن يبقى للمؤرخ حقُّ سماع صوته هو في النهاية فوق الجميع. لذا تحوي الرواية أصواتاً عدة، ويُروَى المشهد أكثر من مرة، كل مرة من خلال عينَي شخصية مختلفة من شخصيات الرواية، وبلغة وأسلوب يعكسان وجهة نظر هذه الشخصية وسماتها، فتارة تكون اللغة رصينة ناضجة، وتارة أخرى تصير طفولية، بينما تتحول في بعض المشاهد الأخرى لتصبح لغة متكسرة لتعكس ضَعْف اللغة الإنجليزية للشخصية التي تتحدث بها.

ومن فراش مرضها وتدفق روايتها لـ «تاريخ العالم» نرى من خلال تيار وعي كلوديا علاقتها المعقدة بشقيقها جوردون، وبأمّها، وكذلك ابنتها ليسا، ووالد ابنتها جاسبر. لكن يبقى مركز التاريخ بالنسبة إليها ومركز حياتها وقلب الحدث في الرواية هو علاقتها بتوم سوذرن، قائد فرقة دبابات في الجيش الإنجليزي بمصر أثناء عملها مراسلةً حربيةً هناك، حيث تنشأ بينهما علاقة. كان اهتمام كلوديا منصبّاً على كتابة تاريخ العالم مرتبطاً بتاريخها الشخصي، فتكتسب الأشياء أهميتها ومعناها بقدر ما تمس حياة كلوديا الشخصية؛ وتقع نواة حياة كلوديا ونقطة المركز لتاريخها الشخصي، أي علاقتها مع توم سوذرن، في لحظة مفصلية من تاريخ العالم خلال الحرب العالمية الثانية، فيتصادم العام مع الخاص. ويقع هذا الصدام في حيِّز مكاني محدَّد هو مصر، التي تُعَدُّ رمزاً للجمع بين الزمنين الماضي والحاضر، بل تصير في رواية لايفلي رمزاً للزمن ذاته، بوصفها مكاناً مثاليّاً لرواية تختص بالتاريخ والزمن.

ويجدر بالذكر أن الرواية تستمد عنوانها - مون تايجر - من

الاسم التجاري للفائف طارد الناموس الذي كان يشتعل مثل البخور بجوار الفراش في الليالي التي قضتها كلوديا مع توم في مصر، غير مخلفٍ شيئاً سوى الرماد. تمثل هذه اللفافة المشتعلة كناية عن عين مضيئة في الظلام، تضيء لحظة السعادة المطلقة في حياة كلوديا، وهي أيضا نواة تلك الحياة التي تشرح كلوديا الطبقات المختلفة المكونة لها أثناء سردها لتاريخ العالم. كما يرمز الاحتراق التدريجي لتلك اللفافة ورمادها المتساقط إلى الطبيعة الفانية لكل اللحظات العامة والشخصية، تماماً مثل كلوديا ذاتها التي تنطفئ تدريجيّاً على فراش الموت، وتجترّ الذكريات أثناء ذلك.

حقّقت لايفلي نجاحاتها الأدبية الأولى في مجال أدب الأطفال، وفاز بعض أعمالها بالجوائز، كما كتبت بضع روايات للكبار، ووصلت روايتها «الطريق إلى ليتشفيلد» (The Road to Lichfield) إلى القائمة القصيرة لجائزة مان بوكر العالمية عام 1977، ثم وصلت روايتها «تبعاً لمارك» (According to Mark) إلى القائمة القصيرة للبوكر مرة أخرى عام 1984، قبل أن تفوز روايتها «مون تايجر» (Moon Tiger) بالجائزة نفسها عن عام 1987. وكانت «مون تايجر» قد رُشّحت عام 2018 للقائمة القصيرة لجائزة البوكر الذهبية؛ أي جائزة أفضل رواية فائزة بجائزة مان بوكر على مدار خمسة عقود، وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاماً على إطلاق الجائزة. وقد سبق وتُرجمت «مون تايجر» إلى لغات عديدة مثل الإيطالية واليونانية والسلوفاكية والتركية والإسبانية والفنلندية والملايو والروسية والبرتغالية والبلغارية والألمانية، ولكنها لم تترجم إلى العربية من قبل.

وفضلاً عن أهمية الرواية - التي يعكسها فوزها بجوائز عالمية وانتشارها بلغات كثيرة - فإن ترجمتها إلى العربية، تكتسب أهمية

خاصة بفضل علاقة لايفلي الوثيقة بثقافة وتاريخ قطر عربي كبير في فترة تاريخية شديدة الأهمية، ألا وهي مصر إبان الحرب العالمية الثانية؛ حيث تصور مون تايجر عبثية هذه الحرب العالمية، عبر إبراز المسكوت عنه عادة في الروايات التاريخية التي يكتبها المنتصر بعد انتهاء المعارك والشروع في تسويات ما بعد الحرب.

كُتِبت الرواية بلغة سعت لتحاشي تثبيت السياسات على حساب الأفراد ضحايا هذه السياسات، معيدة الاعتبار للإنسان المحذوف، وشؤونه المسكوت عنها، والتي يجب أن يعاد لها الاعتبار، حيث يُصغي المتلقي للأصوات الإنسانية، التي تُضيء المعاني المريرة للحرب، وتجعل منها أكثر من مجرد مفهوم سياسي، مبينة ملامح ما يسمى النصر في ضوء تكلفته الإنسانية الباهظة.

لقد أعادت مون تايجر للفرد أهميته؛ ورفضت اختزال الفرد في المجموع، وأبرزت حقه في إضفاء معنى عام بطريقته، ووفق ما يخصه، مع العلم بأن هذا الفرد الذي يبدو الأشد اختلافاً مع العام، هو في حقيقة الأمر من يصنع العام. إن هذه الأصوات المحجوبة التي تحدث هذا الانقلاب، لا يمكن أن نجدها في أي كتاب تاريخ تقليدي / مؤسسي/ علمي قائم على حذف الشخصي في مواجهة الحرب، ولهذا نشاهد - لربما - الروائية بينيلوبي لايفلي تعكس من خلال نصها السردي، وسائل تحدي المؤسسات المهيمنة عبر الخروج على كل الأعراف والتقاليد الاجتماعية السائدة.

وقد يلحظ القارئ أن طبيعة العلاقة بين الأوروبيين والمصريين في الرواية هي علاقة تحكمها ثنائية المتن والهامش، فعلى الرغم من إيمان كلوديا بأن التاريخ مؤلَّف من أصوات عدة وأنه يجب سماعها جميعاً، فإن «مَزِيَّة المؤرخ» التي تحتفظ بها لنفسها تجعل الصوت

الأعلى والأكثر وضوحاً للذات الأوروبية، أما الآخر المحتل فلا يكاد يبين. وهكذا إذن، فإنه لا تكاد تظهر في الرواية أية شخصيات عربية مصرية، إلا في حدود الصورة الكوليونالية النمطية التقليدية التي يرسمها المستعمر للآخر المُحتل؛ فيُرسَمون كأشباح في الخلفية يؤدُّون أدوار المسحوقين من السُّفرَجِيَّة، وصغار الباعة، والجائلين في السوق، وغيرهم من طبقات ما تحت البروليتاريا **Lumpenproletariat**. ويُصور النص الشخصيات النمطية المسحوقة بطريقة سلبية: يسرقون ويغشُّون ويؤمنون بالخرافات، ولا تتوافر لديهم أدنى درجات الرفق بالحيوان التي يَعُدُّها توم مقياساً للحكم على تقدم الشعوب، فتنحصر العلاقات وحدود التعامل بين الطرفين في لغة اختُزلت إلى الحدِّ الأدنى من كلمات الأوامر والسباب التي لم يتعلم الأوروبيون غيرها باللغة العربية، وكما تسرد كلوديا، فإنه «لم تكن في العالم الذي كنت أتحرك فيه علاقات اجتماعية بين الإنجليز والمصريين».

وعلى الرغم من إيمان كلوديا بأن الأعراق جمعاء، تجمعها روابط التاريخ، وأنها جزء من الكل، وبرغم إيمانها الذي لا يتزعزع بنظرية أصل الأنواع لداروين، فإن إيمانها هذا، لا يمتدُّ - على ما يبدو - من المتن إلى الهامش، ويظل تاريخ الذات، في رؤيتها، منفصلاً عن تاريخ الآخر. ولما كان ذلك، فإن تَصوُّر كلوديا عن التاريخ - حينما تستعيد ذكرياتها في مصر إبان الحرب العالمية الثانية - يبدو وكأنه يتكون من أكثر من حيِّز زمني تُوجَد جميعاً في الحيِّز المكاني ذاته، خصوصاً حينما قالت عقب زيارتها اللاحقة لمصر بعد الحرب بسنوات: أدركت جيداً أنه «حينما يتحدث المصريون عن الحرب فإنهم يعنون الحرب ضد إسرائيل، لا حربنا نحن التي لم تكُن تخصهم بأية حال».

وإذا تأملنا الصورة الكولونيالية التي تصوّر بها الكاتبة الآخر

الشرقي، فإن تلك الصورة السلبية ذاتها قد تشكِّل سلاحاً ذا حدَّين، فالمستعمر الأوروبي يعرف ذاته من خلال تعريفه للآخر، فالآخَر يجسِّد كل الصفات السلبية التي تكون الذات المُستعمرة على النقيض منها، وتفصل هذه الصفات السلبية -من دون مواربة- بين الاثنين لتعزيز قيمة الذات وتأكيد تفوُّقها؛ أو لنقل بأنه من دُون وجود الآخر، فإنه لا يمكن للذات أن تكون موجودة، ومن دُون وجود الهامش، فلا يمكن تحديد المتن أو المركز.

وبالإضافة إلى شخوص الرواية، فإن المكان ذاته يلعب دوراً مهمّاً، ويمكن اعتباره بطلاً أساسيّاً من أبطال الرواية. تكتسب مصر بصفتها حيِّزاً مكانيّاً تدور فيه الأحداث، معانيَ رمزية عِدَّة وتلعب أدواراً مختلفة، فنجد أن أهمية المكان ومعناه ونظرة الأبطال إليه تختلف حسب علاقتهم به تبعاً للتوقيت والأحداث، سواء أكانت خاصة على المستوى الشخصي أم كانت عامة على مستوى تاريخي أكبر. كانت مصر بالنسبة إلى البريطانيين الذين كانوا منشغلين بحرب تخصُّهم وحدهم، «مجرَّد خلفية للأحداث... كان الجيش البريطاني يفرض وجوده على الطبيعة وعلى المجتمع؛ كانت شاحناته تسد الطرقات، ومستودعاته تغطي الدلتا من القاهرة إلى الإسكندرية، وملأ العاملون به شوارع القاهرة ومقاهيها بالأصوات الناطقة بالإنجليزية. لهجات لانكشر، ودورسيت، والطرف الشرقي من لندن، وإيتون وونشستر، ترددت حول المساجد والبازارات، والأهرام والقلعة». وكانت الحرب «سلسلة من حركات التقدم والتراجع، يقيم الطرفان المشاركان فيها علاقة معاً فقط، وبالكاد مع الطبيعة التي يتحركان عبرها».

وليس هناك ما يدلل على صحة الصورة البارزة التي تتخذها رغبة الذات الملحة في السيطرة على الحيِّز المكاني، ما يفوق النظر

إلى المكان ومراقبته من أعلى، من نقطة مرتفعة توفِّر نظرة شاملة. ومن ذلك تكرار تيمة تَسلُّق الأهرام، وعلى الرغم من أن كلوديا وتوم لا يفعلان ذلك، فإنهما عوضاً عنه ينظران إلى القاهرة من أعلى القلعة مرة، ومن أعلى مئذنة مسجد ابن طولون مرة أخرى. ولا تكتفي كلوديا بذلك، بل تتساءل عن طبيعة المشهد من خلال أعين الحدأة التي تحلِّق عالياً في سماء القاهرة. فالارتفاع والمشاهدة من عَل يوفِّران للرائي قوة وسيطرة من نوع خاص؛ حيث يصير الرائي هو الفاعل المسيطر، والمرئي مجرَّد خاضع مفعول به، ويعزِّزان الانفصال والمسافة بين الذات والآخَر.

كانت كلوديا في بادئ الأمر، مثل غيرها من البريطانيين الموجودين في مصر، تَعُدُّ المكان مجرَّد خلفية للأحداث وتزعجها حرارة الجو، والحشرات والأمراض، بالإضافة إلى التراب والضجيج. فكانت النظرة السلبية إلى الحيِّز المكاني امتداداً للنظرة التي ترى بها الذاتُ الأوروبية الآخَرَ من سُكَّان ذلك المكان. ولم تتغير نظرة كلوديا إلى المكان وعلاقتها به إلا بعد أن بات مرتبطاً لديها بمشاعر شخصية خاصَّة عقب أن التقت بتوم سوذرن، ولاحظت جمال المكان لأول مرة. «قلت: من الأشياء التي لا يفعلها المرء أبداً أن يلحظ هذا المكان، ويراه على ما هو عليه. بالنسبة إلينا، لم يكن سوى خلفية للأحداث. إنه بلد جميل. ونحن لا نراه». والآن، صار سوذرن وذلك المكان واحداً، التحما في عقل كلوديا في كيان واحد صوتاً، وملمساً، ورائحة، فأصبح المكان العام وتاريخه الذي تستدعيه في ذاكرتها وتدونه مقترناً بتجاربها الشخصية.

ولا يبالغ المرء إذا أكد أن الحيِّز المكاني لم يبق في مون تايجر مجرَّد كيان سلبي ساكن يستقبل ما تُسقِطه عليه الذات الأوروبية

من صور وأفكار، ولكنه قاوم بصور مختلفة، عبر قسوة الطبيعة وما تراه الذات الأوروبية من عوامل سلبية، وتتجلى هذه المقاومة على وجه الخصوص في الصحراء التي تتجاهل وجود الغزاة، وتسخر منهم، فنرى «هذه المساحة الخالية الممتدة لألف ميل مربع قام من أجلها صراع لمدة خمسة أيام بلياليها؛ وتكلفت حياة بضع مئات من الرجال. وبقيت لم يمسها شيء... لقد بدأت الرمال بالفعل في امتصاص بقايا المركبات المحطمة، وصفائح البنزين، ولفائف الأسلاك المتشابكة؛ بعد بضع عواصف أخرى سيغوص كل ذلك أسفل الرمال. بعد بضع سنوات سيختفي تماماً».

لقد ظهرت الصحراء بصورة محايدة «تمضي في شؤونها من حرارة وبرودة، وشمس ورياح، دورة الأيام والشهور والسنين إلى أبد الدهر». ويذكر توم كيف رأى هو والسائق المرافق له في الصحراء سراباً تنعكس فيه حياة قرية بأكملها، وكيف أنه يؤمن بأنه ما زال هناك في مكان ما عالَم منعكس مثل المرايا يتوارى مستمراً في شؤونه دونما اكتراث، وذلك على النقيض من المحتل العابر الذي هو إلى زوال.

تصف كلوديا القاهرة بأنها «متعددة اللغات والأجناس، استوعبتْ ما يدور وتجاهلتْه في الوقت ذاته. فمن جهة، كان المكان يستغل الوضع ويتلاعب به، ومن جهة أخرى، استمر ببساطة في فعل ما كان يفعله دوماً من قبل».

إن الحديث عن رواية مون تايجر، يحتاج إلى وقفات أطول، حتى نوفيها حقها ونعمق ما تمسه من قضايا وشؤون اجتماعية وثقافية بريطانية وعالمية، وقفات أطول، لأن هذه الرواية الإنجليزية، تعتبر ظاهرة، بعد ما مثّلته من مرحلة أزمة، وتحولات اجتماعية وسياسية وإنسانية بالغة.

شكر المؤلفة

أدين بالشكر لتيم تندال وأندرو ويلسون لقيامهما بتصحيح أخطائي فيما يتعلق بالأمور العسكرية.

وفيما يتعلق بالمعلومات الخاصة بحرب الصحراء، أدين بالشكر للمؤلفين التالية أسماؤهم وأعمالهم: آلان مورهيد وكتابه «ثلاثية أفريقيا»، باري بيت وكتابه «بوتقة الحرب»، كوريلي بارنيت وكتابه «جنرالات الصحراء»، كيث دوجلاس وكتابه «من العلمين إلى زمزم»، سيريل جولي وكتابه «خذ هؤلاء الرجال»، بالإضافة إلى أرشيف الصور الفوتوغرافية والأفلام والأعمال الفنية الخاص بمتحف الحرب الإمبراطوري.

لقد ولدتُ في القاهرة، وقضيت طفولتي هناك إبّان الحرب.. لذا فأنا مدينة بالشكر أيضا لما ساهمت به شخصيتي البديلة تلك، حيث كنتُ أفهم القليل لكنّني رأيت الكثير.

الفصل الأول

«أنا أكتب تاريخ العالم». تقولها، فتتجمّد يدا الممرضة لوهلة. وتنظر إلى هذه العجوز المريضة. «حسنا، ربّاه! هذا جدير بالاهتمام حقّا، أليس كذلك؟» تقولها الممرضة ثم تنشغل مرة أخرى، تسحب الأغطية، وتدسّها، وتسوّيها. «ارفعي نفسك قليلا يا عزيزتي، تماما هكذا، ثم سنأتي لك بفنجان شاي».

أكتب تاريخ العالم، لأنهي كل شيء بوضوح. ربما يجدر بي فعل ذلك. لا مزيد من تصيُّد الأخطاء في تفاصيل حول نابليون وتيتو ومعركة إيدج هيل وإرناندو كورتيز. هذه المرة ستكون التجربة كاملة؛ شلال هادر قاتل يستحيل إيقافه، من الثرى إلى الثريّا، العام والخاص، حكايتك وحكايتي. أعتقد أنني مؤهلة لذلك. لطالما كانت الانتقائية هي ما يميِّزني. هذا ما قالوه عني، ولو أن بعضهم أطلق عليها تسميات أخرى. فقد قال خصومي إن نطاق عمل كلوديا هامبتون طموح، وقد يقول بعضهم إنه متهوِّر. أما أصدقائي فأطلقوا على الأمر التوسُّع المفاهيمي الجريء للآنسة هامبتون.

تاريخ العالم، نعم. وخلال ذلك، تاريخي أنا أيضا. حياة كلوديا هـ وعصرها، الجزء الخاص من القرن العشرين الذي قُيِّدتُ به طوعا أو كرها، شئت أم أبيت. فلأتأمّل نفسي في سياقي: كل شيء، ولا شيء. تاريخ العالم كما انتقته كلوديا: حقائق وخيال، أساطير وأدلة، صور ووثائق.

«هل كانت شخصا مهمّا؟» تستفسر الممرضة، وحذاؤها يصدر صريرا على سطح الأرضية اللامع، بينما حذاء الطبيب يصدر صوت طقطقة، وتستدرك: «أعني، الأشياء التي تتفوّه بها». ينظر الطبيب إلى ملحوظاته

المدوَّنة، ويردّ بالإيجاب: «يبدو بالفعل أنها كانت شخصية مهمة. واضح أنها كتبتْ كتبا، ومقالات للصحف، و.. مممم.. كانت في الشرق الأوسط في فترة ما.. تيفوئيد، ملاريا.. غير متزوجة (إجهاض واحد، يرى أن لديها ابنة واحدة، لكنه لا يعلن ذلك).. نعم، السجلات توضِّح أنها كانت على الأرجح شخصية لها أهميتها».

هناك كثيرون ممن قد يعتبرون أن وضع حياتي الخاصة بمحاذاة تاريخ العالم غرور نمطي مني. فلْيعتبروه كذلك، فلطالما كان لي أتباعي أيضا. قرائي يعرفون الحكاية، بالطبع. يعرفون اتجاهي العام، ويعرفون كيف يسير الأمر. سوف أحذف الحكاية التاريخية. ما سأفعله هو أنني سأضيف إليها بعض التفاصيل: سأعطيها حياة ولونا، سأضيف الصراخ والبلاغة. لن أضنَّ بشيء على قرائي. السؤال هو: هل أجعله تاريخا خَطِّيًا، أم لا؟ لطالما اعتقدت أن منظور المشكال قد يكون بدعة مثيرة للاهتمام. رُجَّ أنبوب المشكال، وانظر ما سيحدث. أما التسلسل الزمني فيزعجني. لا يوجد تسلسل زمني في رأسي. أنا مكوَّنة من شخصيات كلوديا كثيرات للغاية، يلتففن، ويختلطن، وينفصلن كبريق أشعة الشمس على سطح الماء. مجموعة بطاقات اللعب التي أحملها تُخلط ويعاد خلطها دوما؛ ليس هناك ترتيب، وكل شيء يحدث في الحال. تعمل آلات التكنولوجيا الحديثة - حسب ما فهمت - بالطريقة نفسها: جميع المعلومات مخزنة، ويمكن استدعاؤها بضغطة زر. يبدو أنها أكفأ مني نظريًا؛ فبعض أزراري لم يعد يعمل، والبعض الآخر يتطلَّب كلمات سر، وشيفرات، وتسلسلات عشوائية ليفتح. غريب أن الماضي الجمعي يوفر كل هذا؛ فهو مُلْكية عامة، لكنه خاص للغاية أيضا؛ فكل منا ينظر إليه بطريقة مختلفة. الأشخاص الذين عاشوا في العصر الفيكتوري في نظري ليسوا هم الفيكتوريين في نظركم. والقرن السابع عشر الذي أراه ليس كالذي ترونه. صوت جون أوبري،

أو داروين، أو أيٍّ ممن شئتم، يحدثني بلهجة، ويحدثكم بلهجة أخرى. إشارات ماضيّ تأتي من الماضي المُدْرَك، وتتراكب حيوات الآخرين مع حياتي: أنا، كلوديا هـ مكتبة

هل هذه أنانية؟ ربما. ألسنا أنانيين جميعا؟ لماذا تُعَدُّ هذه لفظة اتهام؟ هكذا كانت حينما كنت طفلة. كانوا يَعُدّونني صعبة المراس. كان التعبير المستخدَم أحيانا هو «لا تُحتمَل». لم أصدق قط أنني لا أُحتمَل. أمي والمربية هما اللتان كانتا لا تُحتمَلان، بكل أوامرهما وتحذيراتهما، وهوسهما بمهلبية الحليب وبالشعر المجعّد، ورعبهما من كل ما هو جذّاب في عالم الطبيعة؛ الأشجار الباسقة، والمياه العميقة، وملمس العشب الندي للأقدام الحافية، وإغراء الطين والجليد والنار. كنت أتوق - بل أتحرَّق - دوما لأن أكون شخصية مهمة على نحو أسرع وبصورة مغايرة. كانوا يحذِّرون، وكنت أعصي.

وغوردون كذلك.. أخي غوردون، كنا على الشاكلة نفسها.

بداياتي، وبدايات العالم. من الثرى إلى الثريا، كما قلت. هكذا.. بدايات الخليقة. والآن؛ حيث إنني لم أكن أبدا عالمة تاريخ تقليدية، ولم أكن أبدا مؤرخة نمطية كما هو متوقّع، ولم أشبه في شيء تلك المرأة التي تشبه الهيكل العظمي التي درَّست لي تاريخ البباوية في أوكسفورد منذ زمن تاه عنه العقل؛ حيث عُرِف عني نهجي المتمرد، وحيث إنني أغضبت من الزملاء أكثر مما تناولتَه من عَشاءات ساخنة، لذا فسوف نسعى لإثارة الصدمة. تُرى، هل نروي التاريخ من وجهة نظر البدايات؟ أم نَدَع إحدى تلك القشريات الريشية الطافية المنجرفة تروي؟ أم صَدَفة متحجرة؟ أجل، صَدَفة متحجرة، على ما أعتقد. صَدَفة متحجرة لديها إحساس بالقدَر. متحدثة باسم البحار الجوراسية المتدفقة، تحكي كيف كان الأمر.

لكن، هنا يهتز المشكال. العصر الحجري القديم، كما أراه، تفصل

تصميمه في المشكال هزة واحدة عن تصميم القرن التاسع عشر، الذي لاحظ فيه العلماء لأول مرة العصر الحجري القديم بفاعلية، ولاحظوا ما تحت أقدامهم من حفريات. من ذا الذي لا ينجذب لتلك الهيئات المهيبة وهي تذرع الشواطئ ومنحدرات التلال، وهم يرتدون ملابس رسمية، ولهم لحى، ويتفكّرون في عظائم الأمور. فيليب جوس[1]، المسكين المضلل وهيو ميلر[2]، ولايل[3] وداروين[4] نفسه. يبدو أن هناك تآلفا طبيعيًا بين المعاطف الطويلة واللحى ورنين الصخور؛ العصر الوسيط والترياسي، والصخور الكلسية والجيرية، والحجر الرملي.

لكن غوردون وأنا، في عمر الحادية عشرة والعاشرة، لم نكن سمعنا بداروين من قبل، وكان مفهوم الزمن عندنا شخصيًا ولغويًا (وقت الشاي، وقت العشاء، آخر مرة، تضييع الوقت..). وكان اهتمامنا بالأصداف المتحجرة بأنواعها لغرض الحيازة والتنافس. كنت على استعداد لأن أحطم مئة وخمسين مليون عام شظايا بمطرقتي الجديدة اللامعة في سبيل أن أسبق غوردون إلى منطقة مختارة من الطين الجوراسي، حتى لو اضطررت لكسر ذراعي أو ساقي بالسقوط من أعلى مسطح رأسي من الحجر الجيري الأزرق على شاطئ تشارموث في عام 1920.

تصعد لأعلى قليلا، إلى رفٍّ منزلق آخر من الجرف الصخري، وتجلس القرفصاء وهي منهمكة بالبحث بين شظايا الصخور ذات اللون الأزرق الرمادي التي تحيط بها، تتصيّد تلك الأشكال الملفوفة المغرية والحلزونية

---

(1) فيليب جوس (1810 – 1888): عالم طبيعة إنجليزي ومبتكر دراسة علم الأحياء البحرية.

(2) هيو ميلر (1802 – 1856): جيولوجي وكاتب اسكوتلندي.

(3) تشارلز لايل (1797 – 1875)، جيولوجي أسكتلندي اشتهر بكتاب «مبادئ الجيولوجيا»، الذي قدم فيه مذهب انتظام الطبيعة للجمهور، والذي يشير إلى الثبات في المبادئ التي يقوم عليها العلم، مثل ثبات السببية، أو السببية عبر الزمن، وفكرة أن الأرض قد تشكلت بنفس العمليات العلمية التي لا تزال قائمة اليوم.

(4) تشارلز داروين (1809 – 1972): عالم طبيعة وأحياء إنجليزي اشتهر بنظرية التطور وكتابه المثير للجدل أصل الأنواع.

المضلعة. تقفز مرة بصيحة انتصار وقد عثرت على صَدَفة متحجرة كاملة تقريبا. يبدو الشاطئ الآن أسفل منا، وبعيدا إلى حدٍّ كبير، حيث الصيحات الحادة، والأصوات المرتفعة، والنداءات واضحة وعالية، لكنها من عالم آخر، لا أهمية له.

وطوال الوقت، تراقب من طرف عينها غوردون الذي كان في مكان مرتفع أكثر يطرق على بروز صخري آخر. يتوقف عن الطَّرْق، وتستطيع رؤيته وهو يتفحَّص شيئا ما. تُرى، ماذا لديه؟ تصطلي بالشك والتنافس. تندفع وسط نباتات كثيفة صغيرة، وتسحب نفسها أعلى الحافة.

يصيح غوردون: «هذه منطقتي أنا. لا يمكنك القدوم هنا. لقد حجزتُها».

وتصرخ كلوديا: «لا يهمني ذلك. على أي حال، سأصعد لأعلى. الأعلى أفضل بكثير». وتدفع بنفسها للأعلى فوق نباتات ضامرة وتربة صخرية جافة تتساقط تحت قدميها، نحو رقعة رمادية فسيحة رأتها مغرية وواعدة، حيث كانت متأكدة من أن مئات الأصداف المتحجرة تختبئ هناك.

في الأسفل، على الشاطئ، كان الناس يهرولون جيئة وذهابا دون أن تعيرهم انتباها، وأصوات خافتة كصيحات إنذار الطيور تتصاعد لأعلى.

يجب عليها أن تتجاوز غوردون حتى تصل إلى ذلك الرفِّ الصخري المغري بالأعلى. تقول له: «احترس.. أبعد ساقك».

ويرد بتذمر: «لا تدفعيني. لا يمكنك المجيء إلى هنا. قلت لك إن هذه منطقتي أنا. فلتجدي لنفسك منطقة أخرى».

«لا تدفع أنت. لا أريد منطقتك الغبية».

كانت ساقه تعترض طريقها، وكان يضربها بها. دفعته هي، فتحرَّك تحت يدها المتشبثة جزء من الجرف الصخري، جزء من العالم الصلب الذي اتضح أنه لم يكن صلبا بما يكفي.. يتفتت، وتسقط للخلف على كتفيها، على رأسها، وعلى ذراعها الممتدة للخارج. تنزلق، تتدحرج، ترتطم بالأسفل،

وتتوقف لاهثة وسط شجيرة شوكية والألم يطرق جسدها، وهي تشعر بالإهانة إلى حدٍّ يمنعها حتى من الصراخ.

يشعر بها تقترب، تتعدى حدودها. إنها آتية هنا نحو منطقته، وسوف تأخذ أفضل الحفريات. يحتجُّ ويمدّ قدمه لتعترض سبيلها. تتشابك أطرافها الحارة المثيرة للغيظ مع أطرافه.

تصرخ: «أنت تدفعني».

يزمجر: «أنا لا أدفعك، بل أنت التي تدفعين. وعلى أي حال هذه منطقتي، فلتذهبي إلى مكان آخر».

تقول: «هذه ليست منطقتك الغبية. إنها منطقة مَشاع. وعلى أي حال، أنا لا».

وفجأة ترتفع أصوات تفتُّتٍ وارتطام مفزعة، وتختفي وهي تنزلق وتندفع لأسفل، بينما هو يحملق في رعب ورضى.

«لقد دفعَني».

«لم أفعل. صدقا يا أمي، لم أفعل. لقد انزلقَتْ».

«هو دفعَني».

حتى وسط كل الاضطراب، وأصوات الأمهات والمربيات التي تشبه قرق الدجاج، وحمالة الكتف المرتجلة، والنشادر التي قُدِّمت لهما، كانت إيديث هامبتون تتعجب من عناد طفليها الغاضب.

«كُفَّا عن الشجار. توقفي عن الحركة يا كلوديا».

«هذه الأصداف المتحجرة لي أنا. لا تدعيه يأخذها يا أمي».

«لا أريد أصدافك المتحجرة».

«غوردون، اصمت!».

رأسها تؤلمها. تحاول أن تهدّئ الأطفال، وأن تستجيب للنصائح والتعاطف. تلوم العالم الخطير الذي لا يعوَّل عليه، المليء بالأذى، إضافة

لعناد ولديها اللذين تبدو مشاعرهما أكثر الأصوات صخبا على الشاطئ.

صوت التاريخ، بالطبع، مركّب من أصوات عديدة: كل الأصوات التي استطاعت أن تجعل نفسها مسموعة. بعضها أعلى من البعض الآخر، بالطبع. تتشابك حكايتي مع حكايات الآخرين: أمي، وغوردون، وجاسبر، وليسا، وصوت إنسان آخر فوق الجميع. يجب أن تُسمَع أصواتهم أيضا، لذا سوف ألتزم بأعراف التاريخ. سوف أحترم قانون الأدلة. سوف أحترم قانون الحقيقة، مهما تكن النتيجة. لكن الحقيقة مرتبطة بالكلمات، وبالطباعة، وبشهادة الصفحات. اللحظات تنهمر، وأيام حياتنا تختفي تماما: لا قيمة لها، وكأنها لم تكن سوى وهم. يمكن للخيال أن يبدو أكثر ثباتا من الواقع. بيير في ساحة المعركة، الأخوات بينيت وهنَّ يمارسن الحياكة، تيس على آلة درس الحنطة، كل هذه اللحظات ثُبِّتت إلى الأبد على الصفحات، وفي عقول الملايين. أما ما حدث لي على شاطئ تشارموث عام 1920 فهو كالزغب المتطاير من نبات شوك الجمل. حينما نتحدث، أنا وأنت، عن التاريخ، فنحن لا نعني ما حدث حقّا، أليس كذلك؟ الفوضى الكونية في كل مكان، طوال الوقت؟ نحن نعني ترتيب هذا كله في الكتب، تركيز عين التاريخ الحميدة على السنوات والأماكن والأشخاص. التاريخ يحل الخيوط؛ أما الظروف، فتفضل، تبعا لميلها الطبيعي، أنْ تظل متشابكة. لذا، وحيث إن حكايتي هي أيضا حكايتهم، فيجب أن يتحدثوا هم أيضا، أمي، وغوردون، وجاسبر. إلا أن الكلمة الأخيرة لي بالطبع. المزية التي يتمتع بها المؤرخ.

أمي.. دعونا نأخذ، للحظة، أمي مثالا. لقد تقاعدت أمي من التاريخ، انسحبت بكل بساطة، اختارت عالما من اختراعها، لا يوجد فيه سوى ورود الفلوريبندا[5]، والمعلَّقات الجدارية النسجية ذات الرسوم الكنسية، وشيء من الطقس المتقلب. كانت لا تقرأ سوى مجلة «ويست دورسيت»

(5) الفلوريبندا: نوع من الشجيرات التي تحمل ورودا على شكل عناقيد.

ومجلة «كانتري لايف» وبعض دوريات الجمعية الزراعية المَلَكية. كان أكبر مخاوفها ينصبُّ على تقلبات الطقس. كان يمكن لصقيع غير متوقع أن يسبب لها شيئا من رعب بسيط. وكان الصيف الحار مسوِّغا لشكوى معتدلة. أمي المحظوظة.. أمي العاقلة، العملية. على منضدة زينتها كانت تضع صورة لأبي، أنيقا ببزته الرسمية، دائم الشباب، بشعر مقصوص حديثا وشارب ظلَّ منتظما على شفته العليا. كانت أمي تلمِّع الصورة كل صباح؛ لم أعرف أبدا ما الذي كانت تفكر فيه وهي تفعل ذلك.

قتل التاريخ أبي. وأنا أموت بسرطان في الأمعاء، على نحو خاص نسبيّا. مات أبي في معركة السوم[6]، حيث التقطه التاريخ. رقد ممددا في الطين، كما علمتُ، طوال الليل، وهو يصرخ. وحينما أتوا لإخلائه أخيرا، مات على النقالة بين الحفرة التي كانت فراشه الأخير ومركز التضميد، وهو يفكر، على ما أعتقد، في أي شيء عدا التاريخ.

لذا فهو غريب في نظري، مجرد شخصية تاريخية. باستثناء مشهد ضبابي واحد، ينحني فيه ما يشبه رجلا غير محدد الملامح ليرفعني عاليا بإثارة ويضعني فوق كتفه، حيث أشعر بالسيادة على العالم، حتى غوردون بقي في الأسفل ولم يحظَ بالمزية نفسها. لعلك تلحظ أنه حتى في تلك اللحظات كانت الغلبة لمشاعري تجاه غوردون. لكنني لا أستطيع التأكد مما إذا كانت تلك الهيئة الذكورية غير المحددة لأبي أم لغيره؛ قد يكون عمّا أو جارا. لم يتشابك طريقي مع طريق أبي كثيرا.

لذا سوف أبدأ من الصخور، فذلك ملائم للغاية. الصخور التي نثب منها، والتي نحن جميعا مقيدون إليها بسلاسل. مثل ذلك البائس المجهول، الذي لا أعرفه، وهو على صخرته.

(6) معركة السوم: أكبر معركة في الحرب العالمية الأولى بين الجيشين البريطاني والفرنسي من جهة والجيش الألماني من جهة أخرى على الجبهة الغربية، وقعت على ضفاف نهر السوم في فرنسا وشارك فيها حوالي 3 ملايين جندي وقتل وجرح فيها حوالي مليون جندي.

تقول: «مقيد بسلاسل إلى صخرة.. ما اسمه؟».

يتوقف الطبيب، ووجهه على مسافة قدم من وجهها، هو يحمل كشافه الفضي الصغير ويستعد للكشف عليها، واسمه المكتوب بأحرف ذهبية مثبّت على معطفه الأبيض: «عفوا، ماذا قلت يا آنسة هامبتون؟».

تقول: «هناك نسر، ينخر كبده، هذا حال الإنسانية، ألا ترى؟».

يبتسم الطبيب بتسامح، ويقول: «آه!» وهو يفتح جفنيها بحرص ويمعن النظر، ربما في أعماق روحها.

بروميثيوس[7]، بالطبع. الميثولوجيا مادة خام أفضل كثيرا من التاريخ. لها شكل، ومنطق، ورسالة. اعتقدتُ ذات مرة أنني أسطورة. استُدعيت إلى غرفة الاستقبال حينما كنت في السادسة من العمر أو نحو ذلك، لألتقي بقريبة كانت أكثر ثراء وأكثر خبرة بشؤون الحياة والناس من أمي، وكانت أمي ترهبها. وجدتُني أُرفَع وأُحمَل على بعد ذراع من امرأة متعطرة رائعة الجمال وهي تقول: «وها هي! الأسطورة الصغيرة! أسطورة حقيقية، صغيرة، لذيذة، حمراء الشعر، خضراء العينين!».

ولما صعدتُ للأعلى تفحصتُ شعري وعينيَّ في مرآة غرفة الأطفال. أنا أسطورة. أنا لذيذة. تقول المربية: «يكفي هذا، يا كلوديا». «الجمال هو جمال الأفعال». لكنني أسطورة؛ أتأمل نفسي في المرآة بعين الرضى.

كلوديا. نزوة غير معهودة من جانب أمي؛ كان اسمي مميزا للغاية وسط الأسماء الشائعة مثل فيوليت ومود ونورا وبياتريس. لكنني كنت مميزة على أي حال بسبب شعري وتمرد أفكاري. كانت مربيات الأسر الأخرى على الشاطئ في تشارموث يرتجفن حينما نظهر، ويجمعن الأطفال حولهن. كنا طفلين مزعجَيْن عنيفَيْن، أنا وغوردون. أمر مؤسف حقًا، خصوصا أن السيدة هامبتون لطيفة للغاية، وفوق ذلك أرملة..

(7) بروميثيوس: أحد الجبابرة في الميثولوجيا الإغريقية.

كانوا يستهجنون ويراقبوننا باستياء ونحن نلعب بصخب وعنف زائدين، طفلان غير مهذبين وصعبَا المراس.

زمن طويل مضى، والأمس. ما زالت لديَّ كتلة من الحجر الجيري الأزرق من شاطئ تشارموث، معلَّقة بها حفريتان ملتفَّتان رماديتان؛ أستخدمها مثقلة للأوراق على مكتبي. صَدفتان متحجرتان، منجرفتان في بحر سرمدي.

ربما لن أكتب شهادتي عن العصر الحجري القديم على الإطلاق، لكنني سأصنع فيلما عنه. فيلما صامتا. سأريك فيه أولا صخور العصر الكمبري العملاقة الناعسة، وأنتقل منها إلى جبال ويلز، وأراضي لونج ميند البور ومستنقعاتها، وتلال ريكين، من العصر الأردوفيشي إلى العصر الديفوني، إلى الأحجار الرملية الحمراء وحصى أحجار الرحى، ومنها إلى تلال كوتسوولدز الخصبة المتوهجة، إلى جروف دوفر الصخرية البيضاء.. فيلما انطباعيّا حالما، تنهض فيه الصخور المطوية، وتزهر، وتنمو لتصير كاتدرائية سالزبوري، وكنيسة يورك، ومساكن رويال كريسنت، وسجونا ومدارس وبيوتا ومحطات قطارات. نعم، هذا الفيلم يزهر أمام عيني، بلا كلمات، وبصورة محددة، يقترب باتجاه جرف في كورنوال، وستونهنج، وكنيسة بورفورد، وجبال البنين.

سأستخدم أصواتا متعددة في هذا التاريخ. لا تناسبني أنا تلك النبرة السردية الباردة والمعتدلة والهادئة. ربما يجدر بي أن أكتب مثل ناسخي الوثائق الأنجلوساكسونية، أحكي في نَفَس واحد أن رئيس الأساقفة تُوُفِّي، وعُقِد مجلس كنسي، وشوهدت تنانين مشتعلة تطير في السماء. لم لا، على أي حال؟ فالمعتقدات نسبية. علاقتنا بالواقع دوما غير ثابتة. لا أعرف بأي طريقة سحرية تظهر الصورة على شاشة تلفازي، أو كيف أن شريحة كريستالية تملك قدرات غير متناهية. أنا فقط أتقبل الأمر، ببساطة. ومع ذلك فأنا بطبعي أميل لطرح الأسئلة، أتساءل كثيرا، وأرتاب، ودهريّة بصورة غريزية. في الصخور الجامدة لكاتدرائيات أوروبا، يوجد إلى جنب الرسل،

والمسيح ومريم، الحِمْلان والأسماك، والعنقاء والتنانين، وثعابين البحر، ورجال لهم شعر من أوراق الأشجار. أؤيد ذلك التحرر الفكري.

الأطفال سذَّج بلا حدود. كانت ابنتي ليسا طفلة بليدة، لكنها كانت أحيانا تفكر في أشياء تسرُّني وتثير دهشتي. سألَتْ ذات مرة: «هل هناك تنانين؟» أخبرتها أنها لا توجد. «ألم تكن هناك أبدا؟» قلتُ إن كل الأدلة تشير إلى عكس ذلك. قالت: «لكن إذا كانت هناك كلمة تدل على التنين، لذا فإنه حتما كانت هناك تنانين يوما ما».

بالضبط. هنا تكمن قوة اللغة، في الحفاظ على ما هو عابر سريع الزوال، وإعطاء الأحلام شكلا محددا وإعطاء الاستمرارية لبريق ضوء الشمس.

هناك تنين على طبق صيني بالمتحف الأشمولي في أوكسفورد، وقفتُ أمامه أنا وجاسبر ذات مرة، قبل ولادة ليسا بثمانية أشهر تقريبا. كيف يمكنني أن أصف جاسبر؟ بطرق متعددة، وكل طريقة منها تظل قاصرة: فيما يتعلق بحياتي أنا، كان حبيبي، ووالد ابنتي الوحيدة؛ فيما يتعلق بحياته هو، كان رجل أعمال ذكيا وناجحا؛ فيما يتعلق بالناحية الثقافية، كان نتيجة تزاوج بين الأرستقراطية الروسية وطبقة النبلاء الإنجليز. كان أيضا وسيما، له قدرة على الإقناع، قويّا، نشيطا، وأنانيّا. أنا مدينة لتيتو بالشكر على معرفتي بجاسبر؛ قابلته عام 1946 حينما كنت أعمل على الكتاب الحزبي، وكنت بحاجة إلى الحديث مع أي شخص كانت له علاقة بالشأن اليوغوسلافي. تناولت العشاء معه يوم ثلاثاء، وكان لنا لقاء عاطفي يوم السبت التالي. خلال السنوات العشر التالية، أقمنا معا في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى لم نفعل، تشاجرنا، وتصالحنا، افترقنا واجتمعنا ثانية. ليسا، مسكينتي ليسا، الطفلة الصغيرة الصامتة الشاحبة، كانت الدليل الملموس على علاقتنا المضطربة وغير المقنعة: لم تشبه أيّا منا أو تتصرف كأيٍّ منا أبدا.

كانت على خلاف أبيها، الذي كان برهانا جيدا على سلالته. ورث

ملامحه الوسيمة ونهجه المتعجرف إزاء الحياة من والده الروسي؛ وثقته الاجتماعية التي لا تتزعزع، وإحساسه بالتفوق من والدته. إيزابيل، التي كانت وريثة لجزء من ديفون، ولقرون من الثراء الهادئ والتقدم الذاتي، سبق أن عانت من نوبة مفاجئة من اللا عقلانية في باريس وهي بعمر التاسعة عشرة. تحدَّت والديها، وتزوَّجت ساشا الذي لا يقاوَم. وُلِد جاسبر وهي في الحادية والعشرين. وحينما بلغَتِ الثانية والعشرين، كان ساشا قد سئم حياته إقطاعيًا في ديفون، وكانت إيزابيل قد عادت إلى رشدها وأدركت خطأها الفادح، فاتفقا على الطلاق في هدوء. ساشا، الذي تقاضى مبلغا من والد إيزابيل ليخرج من المشهد وليتنازل عن معظم حقوقه، باستثناء بعض الحقوق المتعلقة بجاسبر، عاش منعزلا بلا تذمر في فيلا في كاب فيرات. وإيزابيل تزوجت، بعد فترة ملائمة، من أحد أصدقاء الطفولة، وصارت الليدي برانسكوم في قصر سوتليه. أمضى جاسبر فترة صباه في إيتون، وفي ديفون، مع زيارات عابرة لكاب فيرات. وعندما أتم السادسة عشرة، صارت تلك الزيارات أكثر تكرارا. وجد نمط حياة والده منعِشا ويخفف بلطف من وطأة حفلات الرقص التي ينظمها المشاركون في رحلات الصيد وحفلات الرماية. تعلَّم كيف يتحدث الفرنسية والروسية، وكيف يحب النساء، وكيف يستغل معظم المواقف لصالحه. في ديفونشير، تنهّدت أمه بحسرة، ولامت نفسها؛ حاول زوجها الذي كان متسامحا وصبورا، وقُدِّر له أن يموت على شواطئ نورماندي، أن يجعل الصبي يهتم بإدارة الأملاك، والحراجة الزراعية، وتربية الماشية، وباءت محاولاته جميعا بالفشل. كان جاسبر، إضافة لكونه نصف روسي، شخصا ذكيًا. قدَّمت أمه المزيد من الاعتذارات. درس جاسبر في جامعة كامبريدج؛ وكان مولعا بكل شيء عدا الرياضة، وحصل على مرتبة الشرف بتخصُّصين رئيسين في وقت واحد، وكوَّن كثيرا من الصداقات المفيدة. بعد ذلك، جرّب العمل بالسياسة والصحافة.

وكانت فترة الحرب رائعة بالنسبة له؛ إذ كان أصغر العاملين مع تشرشل سنّا، وخرج من هذه الفترة طموحا، ذا علاقات جيدة، وانتهازيّا.

هذا هو جاسبر عموما. في مخيلتي، يبقى جاسبر متشظيا: هناك أكثر من جاسبر، جميعهم مختلطون بلا تسلسل زمني، كما أن هناك أكثر من غوردون، وأكثر من كلوديا.

يقف كل من كلوديا وجاسبر أمام التنين المرسوم على الطبق الصيني في المتحف الأشمولي. ينظر جاسبر إلى كلوديا، وتنظر كلوديا إلى التنين، تحفظ تفاصيله من غير قصد إلى الأبد. في الواقع، كان هناك تنينان، مرقّطان بالأزرق، يواجه أحدهما الآخر، وقد كشفا عن أنيابهما، وتوزَّع جسداهما الأفعوانيان وأطرافهما بطريقة رائعة حول الطبق. كان لكل منهما ما بدا وكأنها قرون، وعُرْفٌ أزرق بديع، وخصلات من الشعر عند المرفقين، وعُرفاهما ممتدان من الرأس حتى الذيل. وصفٌ مفصَّل للغاية. تحملق كلوديا في الصندوق الزجاجي، فترى وجهها ووجه جاسبر وقد تراكبا فوق الأطباق؛ وجوه أشباح.

يقول جاسبر: «حسنا؟».

«حسنا، ماذا؟».

»«هل ستأتين معي إلى باريس أم لا؟».

يرتدي جاسبر معطفا واقيا من المطر بني اللون، ووشاحا من الحرير بدلا من ربطة العنق. تبدو الحقيبة التي يحملها متنافرة.

تقول كلوديا: «ربما. سوف أرى».

يقول جاسبر: «هذا لن يجدي».

تتأمل كلوديا التنانين، وتفكر في شيء مختلف تماما. التنانين مجرد خلفية، لكنها سوف تدوم.

يقول جاسبر ثانية: «حسنا. أتمنى أن تفعلي. سأهاتفك من لندن غدا».

يلقي نظرة خاطفة على ساعته، ويردف: «يجب أن أرحل».

تقول كلوديا: «هناك شيء واحد».

«أجل؟».

«أنا حامل».

يسود الصمت. يضع جاسبر يده على ذراعها، ثم يبعدها. ويقول أخيرا: «آه!» ثم يسأل: «ما الذي.. تودين فعله؟».

تقول كلوديا: «سأحتفظ به».

«بالطبع. إذا كان هذا هو ما تريدينه. هذا، على ما أعتقد، هو ما أفضِّله». ثم يبتسم ابتسامة فاتنة جذابة للغاية. ويقول: «حسنا.. يجب أن أعترف يا عزيزتي، إن الشيء الوحيد الذي لا أراك تصلحين له هو الأمومة. لكنني أحسب أنك ستُظهرين قدرتك المعهودة على التأقلم».

تنظر إليه لأول مرة، إلى ابتسامته. وتقول: «سأحتفظ به. السبب في ذلك من جانب، هو عدم قدرتي على التخلص منه، ومن جانب آخر، أنني أريده. وهناك احتمال أن يكون السببان متصلين. وهذا، بكل تأكيد، لا يعني أنني أقترح أن نتزوج».

يقول جاسبر: «كلا. لا أتخيل أنك تفعلين ذلك. لكنني بالطبع ما زلت أريد أن أقوم بدوري».

تقول كلوديا: «أوه! نعم. سوف تقف بجانبي. سوف تكون الشهم المثالي. هل الأطفال مكلِفون للغاية؟».

يراقب جاسبر كلوديا التي كانت فظّة طوال فترة ما بعد الظهيرة، لأن كلوديا وحدها من يمكنها أن تكون كذلك. تقف عند صندوق عرض زجاجي، مستغرقة في تأمل الخزْف الصيني. تبدو جميلة وهي ترتدي ملابس من قماش التويد الأخضر الزمردي. نقطة غائرة زرقاء اللون في الإصبع الثاني ليدها اليمنى توحي لجاسبر أنها قضت صباح ذلك اليوم وهي تكتب.

«هل تحبِّين أن تأتي معي إلى باريس نهاية الأسبوع المقبل؟».

تجيب كلوديا: «ربما».

يشعر برغبة في هزها بعنف أو ضربها. لكنه لو فعل فمن المرجح أن ترد الضربة له، وهذا مكان عام وكلاهما وجهان معروفان. بدلا من ذلك، يضع يده على ذراعها مسترضيا إياها، ويخبرها أن عليه أن يلحق بالقطار.

تقول كلوديا وهي ما تزال تحدِّق في صندوق العرض الزجاجي: «بالمناسبة، أنا حامل».

ينتابه فجأة شعور غامر بالمتعة. لم يعد يشعر بالرغبة في ضربها. هو يعتقد أن بالإمكان الوثوق بأن كلوديا تأتي دوما بكل ما هو جديد.

قضت ليسا معظم سنوات طفولتها مع إحدى جدَّتَيْها أو الأخرى، حيث إن شقة في لندن ليست بالمكان المناسب لطفلة، وكنت أسافر باستمرار. كانت هناك أشياء كثيرة مشتركة بين الليدي برانسكوم وأمي، ليس أقلَّها متاعب تربية أبناء يصعب عليهما فهمهم. واجهتا بشجاعة كون المولودة غير شرعية، وتبادلتا الشكوى عبر الهاتف، وحاولتا القيام بكل ما بوسعهما من أجل ليسا، فاتفقتا على استئجار جليسات أطفال إسكندنافيات لها وتسجيلها في المدارس الداخلية.

لم يسيطر جاسبر أبدا على حياتي. كان مهمّا، لكن هذا أمر آخر. كان محوريًا في أساس علاقتنا، لكن هذا كل ما في الأمر. معظم الحيوات لها جوهرها، ونواتها، ومركزها الحيوي. سوف نأتي لمركز حياتي في الوقت المناسب، حينما أكون مستعدة لذلك. أما الآن فأنا منشغلة بالطبقات الاجتماعية.

إحدى شخصياتي المفضلة من العصر الفيكتوري هي شخصية ويليام سميث، المهندس المدني الذي مكَّنه عمله في مجال شق القنوات من فحص الصخور المقطوعة وما تحويه من الحفريات، والتوصل إلى نتائج بالغة

الأهمية ومؤثرة. سوف يحظى ويليام سميث بالتكريم في تاريخ العالم الذي أكتبه. وجون أوبري كذلك. لا يعرف الكثيرون أن أوبري، النمام الأشهر الذي ثرثر عن هوبز وميلتون وشكسبير، كان أيضا أول عالم آثار ميداني مؤهل. وإضافة إلى ذلك، فإن ملحوظته الذكية البسيطة فيما يتعلق بنوافذ الكنائس من حيث أسبقية كل طراز على الآخر، مما يمكننا من تشكيل ترتيب زمني للمباني، تجعله ويليام سميث القرن السابع عشر. الطرازان القوطيان المتعامد والمزخرف هما الأصداف المتحجرة للهندسة المعمارية. أستطيع أن أرى أوبري وحشائش ساحة كنيسة في دورسيت تصدر حفيفا من حوله، وملحوظاته المكتوبة في يده، رائدا يسبق شليمان، وغوردون تشايلد، واختبارات درجة الشرف لجامعة كامبريدج، بالعين ذاتها التي أرى بها ويليام سميث معتمرا قبعة عالية، يجلس القرفصاء وهو مستغرق في تفحص حطام جزء من وركشير.

لديَّ صورة مطبوعة، تستطيع أن تشتري مثلها في متحف فيكتوريا وألبرت، لشارع في قرية ثيتفورد، التُقِطت عام 1868، ولا يوجد فيها ويليام سميث. الشارع خالٍ. يوجد محل بقالة، وحدَّاد، وعربة ثابتة، وشجرة ضخمة متشعبة الأغصان، لكن لا وجود لهيئة بشرية. الواقع أن ويليام سميث، أو شخصا ما، أو أشخاصا عدة، وكلابا أيضا، وإوزّا، ورجلا يمتطي حصانا.. مرّوا أسفل الشجرة، ودخلوا محل البقال، وتلكؤوا لحظات وهم يحادثون صديقا بينما كانت الصورة تُلتَقط، لكنه لا يظهر، وجميعهم لا يظهرون. كانت فترة تعرّض الصورة للضوء، البالغة ستين دقيقة، طويلة لدرجة أن ويليام سميث وكل الآخرين مرّوا خلالها وابتعدوا من غير أن يتركوا أثرا. ولا حتى أثرا بسيطا مثل تلك الديدان البدائية التي مرت خلال الطين الكمبري في شمال إسكتلندا، وخلّف مرورها نفقا مجوفا في الصخر.

أحب ذلك. أحب ذلك كثيرا. صورة أنيقة لعلاقة الإنسان بالعالم المادي:

ذهب، مرّ في طريقه، ثم ابتعد. لكن لنفترض، جدلا، أن ويليام سميث - أو أي شخص مر في هذا الطريق ذلك الصباح - كان خلال مروره قد حرك العربة من النقطة أ إلى النقطة ب.. ما الذي كنا سنراه حينها؟ لطخة؟ عربتين؟ أو لنفترض أنه كان قد قطع الشجرة. العبث في شؤون العالم المادي هو ما نفعله بكفاءة بالغة، وربما نحقق ذلك أخيرا بصور نهائية. النهاية. سوف يصل التاريخ حقًا إلى نهايته.

كان ويليام سميث يستمد الإلهام من التقسيم إلى طبقات. طبقاتي أنا لا يمكن ملاحظتها بالسهولة التي تلاحَظ بها طبقات صخور وركشير، وهي ليست حتى مرتبة في رأسي بتسلسل، لكنها دوامة من الكلمات والصور: التنانين، ولفائف مون تايجر الطاردة للناموس، والصليبيين، والأحبة.

ما زال طبق التنين الصيني في المتحف الأشمولي. لقد رأيته الشهر الماضي.

كنت في الثامنة والثلاثين حينما ولدت ليسا، وكانت أحوالي على ما يرام. كان لدي كتابان منشوران باسمي، وبعض الأعمال الصحافية المثيرة للجدل، وسمعة بكوني صاحبة كتابات جدلية استفزازية مثيرة للانتباه. كان لي اسم معروف بعض الشيء. لو كانت النسوية موجودة آنذاك لاعتنقتها، على ما أعتقد. فقد كان من شأنها أن تحتاج إليَّ. لكن، كما كان الأمر، لم أشعر أبدا بأنني افتقدت وجودها. بدا لي أن كوني امرأة يمثل ميزة إضافية قيمة. لم يكن جنسي يشكل لي عائقا أبدا. ويجب عليَّ أن أفكر الآن، أنه ربما أنقذ حياتي. لو كنت رجلا لربما كنت متُّ في الحرب.

أعرف جيدا لماذا صرت مؤرِّخة. شبه مؤرخة، كما قال أحد خصومي، وهو أستاذ جامعي بلا روح، ويخشى الحياة لدرجة تمنعه من أن يخطو خارج كليته في أوكسفورد. كان هذا لأن المعارضة كانت أمرا مرفوضا وأنا طفلة: «لا تجادلي يا كلوديا». «كلوديا، يجب ألا تردّي بفظاظة هكذا». الجدال، بالطبع، هو بيت القصيد من وراء التاريخ. الاختلاف في الرأي؛

كلمتي مخالفة لكلماتكم؛ هذا الدليل مخالف لذاك. لو كان هناك شيء يسمًّى الحقيقة المطلقة لفقد الجدال بريقه. أنا، مثلا، لن أهتم بعد الآن. أتذكر جيدا اللحظة التي اكتشفتُ فيها أن التاريخ ليس مجرد الرأي السائد والمستقر.

كنت في الثالثة عشرة. في أكاديمية الآنسة لافينهام للبنات. في الصف الرابع ب. كنا ندرس ملوك أسرة تيودور[8] مع الآنسة لافينهام نفسها. كتبت الآنسة لافينهام الأسماء والتواريخ على السبورة، ودوَّنَّاها. كما كتبنا، تبعا لما أملته علينا، الخصائص الرئيسة لكل عهد. تعرض هنري الثامن للّوم والانتقاد لكونه مزواجا، لكنه كان أيضا ملكا سيئا. كانت الملكة إليزابيث ناجحة؛ صدَّت الإسبان وحكمت بحزم. كما قطعت رأس ماري، ملكة اسكتلندا، التي كانت كاثوليكية. كانت أقلامنا تُصدر أصوات خربشة خلال فترة ما بعد الظهيرة الطويلة في ذلك الصيف. رفعت يدي: «من فضلك يا آنسة لافينهام، هل كان الكاثوليك يعتقدون أنها على حق حينما قطعت رأس ماري؟». «لا يا كلوديا، لا أظن أنهم اعتقدوا ذلك». «من فضلك، هل يعتقد الكاثوليك ذلك الآن؟». أخذت الآنسة لافينهام نفسا عميقا: «حسنا، كلوديا». قالت بلطف: «أظن أن بعضهم قد لا يعتقدون ذلك. الناس يختلفون أحيانا. لكن لا داعي لأن تقلقي بهذا الشأن. فقط اكتبي ما هو مدون على السبورة. اجعلي العناوين واضحة جيدا بالحبر الأحمر».

وفجأة، تصدَّعت في نظري بحيرة التاريخ الرمادية المتشابهة؛ تشظَّت إلى ألف موجة متصارعة؛ أسمع ثرثرة الأصوات المختلفة. أنحِّي قلمي جانبا وأتأمل؛ عناويني ليست واضحة جيدا بالحبر الأحمر؛ أحصل على 38 في المئة (رسوب) في امتحان نهاية الفصل الدراسي.

(8) سلالة ملكية حكمت إنجلترا وإيرلندا في الفترة 1603 - 1845 وتضم هنري السابع وهنري الثامن وإدوارد السادس وليدي جين غراي وماري الأولى وإليزابيث الأولى.

الفصل الثاني

«ومن عدوان الفايكنج[9]، يا رب، نجنا». ألا يجعلك هذا تشعر بوخزة عابرة، وأنت تقرأ هناك على أريكتك، والنور مضاء، والباب مغلق، والقرن العشرون يحيطك بكل دفء وراحة؟ وبالطبع لم ينجِّهم الرب، أو ليس في جميع الأحوال. إنه لا يفعل أبدا، لكنهم لم يكونوا ليعلموا ذلك. لقد نجّى كلماتهم فقط. أما الراهب المسكين الذي كتب الكلمات فاخترقت حلقَه كتلةٌ من حديد الفايكنج على أغلب الظن، أو احترق هو وكنيسته.

حينما كنت أناهز التاسعة من عمري، سألت الله أن يقضي على أخي غوردون دون ألم، لكن دون رجعة. كان هذا في ليندسفارن، حيث اصطُحِبنا، لا لكي نتفكَّر في غزوات الفايكنج - التي لم تسمع بها أمي من قبل غالبا - بل لكي نمشي عبر الجسر حتى الجزيرة، ونتنزَّه هناك. تسابقتُ أنا وغوردون عبر ذلك الشاطئ، ولأن غوردون كان يكبرني بعام وكان أسرع مني كثيرا، فقد كان مهيئا للفوز، بالطبع. نطقتُ بهذا الدعاء وأنا ألهث، بغضب وعاطفة متّقدة، وكنت أعنيه بالفعل. قلت: «لن أطلب منك أي شيء آخر أبدا. لا شيء على الإطلاق. فقط حقِّق لي هذا. الآن. فورا». يدهشني أن كان عليَّ أن أطلب القضاء على غوردون، لا أن أصير أنا عدّاءة أسرع منه. وبالطبع، لم يحقق الرب أي شيء من هذا، وظللت عابسة طوال فترة ما بعد الظهيرة الرائعة التي كانت مفعمة برائحة البحر، وتعصف بها الرياح، وأصبحتُ دهرية.

(9) تسمية تطلق على شعوب جرمانية شمالية في الأغلب على تجار ومحاربي المناطق الإسكندنافية الذين هاجموا السواحل البريطانية والفرنسية وبعض أجزاء من أوروبا بين أواخر القرن الثامن والقرن الحادي عشر.

بعدها بسنوات، ذهبنا، غوردون وأنا إلى المكان نفسه مرة أخرى، لم نتسابق هذه المرة. كنا نمشي باتزان، ونتناقش، على ما أذكر، حول الرايخ الثالث[10] والحرب القادمة. وتذكرتُ ذلك الدعاء الرهباني، وقلت إن الأمر يبدو وكأن الفايكنج قد عادوا مرة أخرى، أشرعة السفن الحمراء بلون الدم في الأفق، ووقع خطوات الرجال المدججين بالأسلحة. وكانت الطيور البحرية تنادي، وملمس الأعشاب على الجروف الصخرية تحت أقدامنا إسفنجيّ ناعم مليء بالزهور البرية، كما كان بالتأكيد في القرن التاسع. أكلنا شطائر، وشربنا جعة الزنجبيل وسط الأطلال، وبعد ذلك تمددنا في حفرة تحت الشمس. لم يكن جاسبر معروفا بعدُ لنا، ولا ليسا، ولا سيلفيا، ولا سلو. ومصر والهند كانت تلك طبقات لم تتشكّل بعد.

تحدثنا عما نريد أن نفعله، أثناء الحرب وبعدها، لو كان هناك عُمْر بعدها. كان غوردون يحاول أن يحتال حتى ينال لنفسه مكانا في الاستخبارات (كان الجميع يحتالون في تلك الأيام، يحتالون ويلجؤون للواسطة). وكنت أعرف ما أنوي فعله. سأصبح مراسلة حربية. ضحك غوردون. قال إنه لا يؤمن بأن لديَّ فرصة كبيرة. وأضاف: «فلتحاولي. حظّا موفقا، لكن بصراحة..». سبقته بخطوات، وقلت: «سوف ترى. سوف ترى». كان عليه أن يلحق بي ويسترضيني. كنا متنافسَيْن كدأبنا حينئذ. ضمن أشياء أخرى. إلى جانب أشياء أخرى. آنذاك، ولاحقا.

يتوقف الطبيب، وينظر عبر الفتحة الزجاجية المستديرة في الباب. «إلى من تتحدث؟ هل لديها زائر؟». تهز الممرضة رأسها؛ ويراقبان قليلا المريضة التي تتحرك شفتاها بينما قسمات وجهها يعلوها التصميم.

(10) هو الاسم الذي أطلقته الدعاية النازية على ألمانيا في الحقبة النازية (1933 - 1945) بقيادة هتلر حتى سقوط ألمانيا على يد الحلفاء في الحرب العالمية الثانية.

لا يبدو أن هناك أي شيء غير طبيعي من الناحية السريرية. يبتعدان عبر الممر وخطواتهما تُصدر أصوات طقطقة وصرير.

تواجه كلوديا، غوردون، ليس على شاطئ ليندسفارن الذي تعصف به الرياح، لكن في جو يفوح منه عبق الشراب في حانة جارجويل ذات اللون الوردي عام 1946. تشعر بالتوهُّج، وتشتعل بالانتصارات الشخصية.

يعبس غوردون. يقول: «إنه بغيض».

«اخرس».

«لا يمكنه أن يسمعنا. إنه مشغول بتعزيز مستقبله المهني».

يقف جاسبر على بعد حوالي ياردتين، بجوار مائدة أخرى، يحادث الجالسين هناك. وجهه الذي اكتسب اللون الأسمر تضيئه شمعة من أسفل: كان بليغا وحسن التعبير ووسيما. يشير بيديه، يلقي نكتة، فتتعالى الضحكات.

يتابع غوردون: «لطالما كان ذوقكِ في الرجال محل شك».

ترد كلوديا: «حقًا؟ هذا تعليق مثير للاهتمام».

يحدِّق كل منهما في الآخر.

تقول سيلفيا: «أوه! توقفا أنتما الاثنان. يفترَض أن يكون هذا احتفالا».

يقول غوردون: «إنه كذلك بالفعل. إنه كذلك بالفعل. هيا يا كلوديا، فلتحتفلي». ويسكب الزجاجة في كأسها.

تقول سيلفيا: «أمر رائع حقًا! زمالة في جامعة أوكسفورد! ما زلت لا أصدق بعض الشيء». لا ترفع عينيها أبدا عن غوردون الذي لا ينظر إليها. تجذب خيطا من كم جاكيته، تلمس يده، تُخرج علبة سجائر، تسقطها، ثم تستعيدها من الأرض.

تستمر كلوديا في مراقبة غوردون. ومن جانب عينها، من وقت إلى آخر، تقيِّم جاسبر. الآخرون أيضا يرقبون جاسبر؛ فهو شخص جذاب.

ترفع كأسها: «مبروك، مرة ثانية. ذكِّرني حتى أحضر لتناول الغداء على مائدتك في أوكسفورد».

يقول غوردون: «لا يمكنكِ ذلك. ممنوع حضور النساء».

ترد كلوديا: «أوه! خسارة!».

«أين وجدتِه؟».

«وجدتُ من؟».

«تعرفين جيدا من أقصد».

«أوه! جاسبر. مممم، حسنا.. أين كان ذلك؟ ذهبتُ لأجري معه مقابلة بخصوص كتاب».

تقول سيلفيا بنبرة مبتهجة: «آه! كيف يسير حال الكتاب؟».

يتجاهلانها. يعود جاسبر إلى المائدة. يجلس، ويضع يده على يد كلوديا. «طلبتُ منهم إحضار زجاجة من النبيذ الأبيض، فلتشربوا».

تحاول سيلفيا أن تُخرج سيجارة، فتسقط منها العلبة، وتنبطح أرضا بحثا عنها، وتشعر بأن تسريحتها التي كلَّفتها الكثير تفسد. وفستانها كذلك غير ملائم، فهو وردي غامق، ومناسب لفتاة صغيرة. ترتدي كلوديا فستانا أسود، له فتحة صدر منخفضة للغاية، مع حزام بلون الفيروز.

تسأل: «كيف يسير حال الكتاب؟» ولا تجيب كلوديا. لذا، يجب على سيلفيا أن تكسر الصمت بأن تشعل سيجارتها، وتنفث الدخان، وتجول ببصرها في أنحاء الصالة، كأنها لم تكن تتوقع إجابة على أي حال.

كان الأمر يسير على هذا المنوال طوال المساء، كما هو الحال دوما في وجود كلوديا. هذا الإحساس المشحون بالمشاعر، سواء أكانا يتشاجران أم لا (والله وحده يعلم أنها لم تكن تتشاجر مع شقيقها على هذا النحو)، وكأنه لا وجود هناك لأحد سواهما. يجعلانك تشعر كما لو كنت دخيلا، كما لو أن عليك أن تغادر الصالة. ولم يلمسها غوردون ولو مرة واحدة.

يعود جاسبر، فتهتف بارتياح: «من أين حصلت على هذه السمرة الرائعة لبشرتك؟».

يسأل غوردون: «أكنت تتجول في جنوب فرنسا؟»، ويضيف: «كنت أعتقد أنكم منشغلون على الدوام». يفكر: «أعرف صنفك جيدا، صنف متأنق، وعينه دوما على الفرص لاغتنامها».

تصل زجاجة النبيذ الأبيض. تصدر فرقعة، ويصبونها. يرفع جاسبر كأسه: «في صحتك، غوردون! ذهبتُ إلى جنوب فرنسا بضعة أيام لزيارة والدي».

تقول سيلفيا: «أعتقد أنهم سيوظفونك في مكان مبهر قريبا؟».

يفرد جاسبر كفيه ويتجهم: «يا فتاتي العزيزة، ربما تلقي بي وزارة الخارجية في أديس أبابا، من يعلم؟».

يشرب غوردون النبيذ الأبيض على جرعتين: «مؤكد أن الدبلوماسي المحترف عليه أن يتوقع بعض المصاعب بجانب الأمور اليسيرة. أم أنك لا ترى نفسك كذلك؟ وبالمناسبة، كيف دخلت مجال العمل في وزارة الخارجية في سنك هذه؟». ينظر إلى يد جاسبر التي تقبع فوق يد كلوديا.

تهمهم سيلفيا: «غوردون.. يبدو هذا فظًا للغاية».

يقول جاسبر وهو يبتسم: «ليس فظًا على الإطلاق. بل هو فطن. يمكنك أن تسأل. يُسمُّون الأمر دخولا متأخِّرا. ساعدتني توصية أو اثنتان من الأشخاص المناسبين».

يقول غوردون: «بلا شك». اليدان، الآن، متشابكتان بخفة: «وهل ستحتفظ بهذا العمل؟ حسب ما فهمت، كانت لك بضع مهن متنوعة حتى الآن».

يهز جاسبر كتفيه: «أنا أؤمن بالمرونة، ألا تؤمن أنت بذلك؟ العالم مكان مثير للاهتمام لدرجة أكبر من أن يجعل المرء نفسه يعلق بجانب واحد فقط من جوانبه».

لا يستطيع غوردون - في تلك اللحظة - أن يفكر في شيء يقوله يكون لاذعا بالدرجة الكافية؛ بدأ النبيذ يؤثر فيه. تستكين سيلفيا بركبتها على ركبته. لا يستطيع أن يحدد بالضبط سبب شدة كراهيته لهذا الرجل؛ جلبت كلوديا رجالا من قبل بما فيه الكفاية. واستاء منهم جميعا بطبيعة الحال. لكن جاسبر، لسبب ما، كان من نوع مختلف. يصب لنفسه المزيد من النبيذ الأبيض، يشرب، ويحملق في جاسبر بسخط: «إنها لمهارة منك، أن يكون لك أب يعيش في جنوب فرنسا».

تضحك كلوديا. تقول: «أنت ثمل، غوردون».

طبقات الوجوه؛ وجهي الآن أشبه بكاريكاتير مروِّع لما كان عليه من قبل. أستطيع أن أرى فقط خط الفك السفلي الصارم، وتَيْنِك العينين الجميلتين، وأثرا من البشرة الشاحبة الناعمة التي كانت تتباين تباينا جميلا مع شعري. لكنه كله مجعَّد ومتهدِّل وبه ثنايا، مثل ثوب ثمين أفسده الغسيل. غارت العينان في محجريهما حتى كادتا تختفيان، الجلد به خطوط كشبكة العنكبوت، تتدلى من الفك أكياس جلدية كتلك التي للزواحف، والشعر صار خفيفا لدرجة أن فروة الرأس الوردية تلتمع من خلاله.

كان وجه غوردون يعكس وجهي دوما بطريقة غريبة. لم نكن نُعَدُّ متشابهين، لكنني كنت أستطيع أن أرى نفسي فيه، وأراه فيَّ أنا. نظرة عين، حركة فم، ظلٌّ ما. الجينات تعلن عن نفسها. إنه إحساس غريب. أشعر به أحيانا مع ليسا، التي لا تشبهني على الإطلاق هي الأخرى (بل لا تشبه حتى والدها. ربما تكون المسكينة قد أبدلتها الجنِّيّات عقب ولادتها؛ فلديها بالفعل الشحوب التقليدي للأطفال الذين تبدلهم الجنّيات، إضافة لضآلة الجسد). لكنني أنظر إليها، ولوهلة أرى وجهي منعكسا. كان شعر غوردون كثيفا وأشقر، ليس أحمر اللون، وكانت عيناه رماديتين، ليستا

خضراوين. وفي سن الثامنة عشرة، بلغ طوله ستة أقدام، وكان يتمتع بتلك الهيئة النحيفة العفوية الضامرة لأولئك الذين يشقون طريقهم في الحياة بخفة. كان غوردون فتى ذهبيًا، يربح الجوائز ويعقد الصداقات.

إنهما صنوان وسيمان. هكذا كان الناس يقولون لأمي التي كانت تهمهم محتجَّة: لا يليق أن تعجب بأولادك. وعلى أي حال، كانت لدى أمي تحفُّظات.

حينما كنا نحن الاثنان في الجامعة، كانت أمي قد قطعت شوطا في تقاعدها من التاريخ. كانت قد لفَّت جنوب دورسيت حول نفسها مثل الشال، وحجبت العديد من جوانب عصرنا بقدر ما استطاعت. كانت الحرب مزعجة بطبعها. لكنها كانت تتطلب الصبر والجلَد، وكان هذا أكثر ما تتقنه أمي. لم تكن تمانع في البقاء من دون كيروسين، وإسدال الستائر التي تحجب الضوء للحماية من غارات الطيران الألماني، والاستحمام بقليل من الماء الساخن. كان رحيل الطهاة والبستانيين محتملا أيضا. ما تراجعت عنه هو أي عمق في المشاعر، وبالتالي أي التزام يزيد على حضور بسيط في الكنيسة، واهتمام بالورد. لم تكن لها آراء، ولم تكن تحب أحدا. كانت فقط تميل لبعض الأشخاص، ومنهم، على ما أعتقد، غوردون وأنا. اشترت كلب صيد اسكتلنديًا، كان مدربا على أن ينقلب على ظهره إذا أمره أحد: «مت من أجل وطنك!» على ما يبدو، لم تجد أمي ذلك مثيرا للقلق.

يزدحم التاريخ بالطبع بأشخاص مثل أمي، لا يشاركون فيه. أولئك الذين على الخطوط الأمامية هم الاستثناء؛ أولئك الذين يجدون أنفسهم في ذلك الوضع، شاؤوا أم أبوا، وأولئك الذين يسعون للمشاركة. كنت أنا وغوردون من الذين على الخطوط الأمامية، كلٌّ بطريقته المختلفة. وجاسبر أيضا على نحو واضح. لو كان الأمر لسيلفيا لاختارت أن تمتنع عن المشاركة، ولقد فعلت هذا إلى حدٍّ ما، لولا أنها تزوجت غوردون، ولذا كان

يسحبها، من وقت إلى آخر، إلى الخطوط الأمامية. إلى أمريكا، التي كان يمكن أن تظل، بكل رضى، لا تعلم عنها شيئا.

جاءت سيلفيا لزيارتي الأسبوع الماضي، أو بالأمس. تظاهرتُ بأنني لست واعية.

تقول الممرضة: «يا للخسارة! أخشى أن اليوم هو أحد أيامها التي لا تكون فيها على ما يرام. لا يمكنك أن تعرفي أبدا، معها.. ». تنحني فوق الفراش: «ها هي زوجة شقيقك، عزيزتي. ألن ترحبي بها؟ استيقظي، عزيزتي». تهز رأسها بأسف: «حسنا، لم لا تجلسين معها بعض الوقت على أي حال يا سيدة هامبتون. سوف تقدّر لك ذلك، أنا متأكدة. سأحضر لك فنجانا من الشاي».

تجلس سيلفيا بحذر شديد. تراقب السرير المرتفع بكل أجهزته من رافعات وأسلاك وخراطيم، والجسد العالق فوقه، العينين المغلقتين، والوجه النحيف ذا الأنف الشبيه بالمنقار. تتذكر تلك الهيئات المنحوتة على شواهد القبور الحجرية في الكنائس الريفية. توجد زهور في مزهرية بجوار الفراش، وأخرى على حافة النافذة. تنهض سيلفيا بصعوبة بعض الشيء (الكرسي منخفض، وهي ممتلئة بدرجة أكبر مما تودّ، للأسف)، وتعبر الغرفة لتختلس نظرة إلى البطاقة المجاورة للزهور. تلقي نظرة متوترة خلف كتفها؛ «كلوديا؟ إنها أنا - سيلفيا». لكن الجسد الممدد على الفراش بقي ساكنا. تشم سيلفيا الزهور، وتلتقط البطاقة. «أطيب الأمنيات من..». لا تتمكن من قراءة الخط الذي كتب على عجل فترتدي نظارتها الطبية. تصدر ارتعاشة من جهة الفراش. تُسقِط سيلفيا البطاقة، وتهرول نحو كرسيها. ما زالت عينا كلوديا مغمضتين، لكن يصدر صوت واضح بدرجة لا يمكن أن تخطئها، لإخراج هواء. يحمر وجه سيلفيا، وتتشاغل بحقيبة يدها، تبحث عن مشط، عن منديل.

«من فضلك، آنسة لافينهام..». هكذا قلتُ، حين كنت في الرابعة عشرة، وكلي دهاء وبراءة، سائلة: «لماذا هو أمر جيد أن نتعلم التاريخ؟».. وصلنا الآن إلى ثورة الهند[11]، وإلى حادثة الثقب الأسود في كالكتا[12]، وكنا نشعر بالفزع بدرجة تليق بالأمر. الآنسة لافينهام، كما أعلم جيدا، لا ترحب بأي أسئلة، إلا لو كانت تتعلق بتاريخ ما، أو بكيفية كتابة أحد الأسماء. وهذا السؤال - كما أخمن وإن كنت لا أعلم لماذا تحديدا - يكاد يصل حدّ الهرطقة. تتوقف الآنسة لافينهام برهة، وتنظر إليّ بامتعاض. لكنها، وبصورة مثيرة للدهشة، تُظهر قدرة على التعامل مع الموقف، وترد: «لأنك، بهذه الطريقة، تستطيعين أن تفهمي كيف أصبحت إنجلترا أمة عظيمة». أحسنتِ، آنسة لافينهام. أنا متأكدة أنك لم تسمعي من قبل عن تفسير حزب ويج[13] للتاريخ، ولم تكوني لتعرفي ما الذي يعنيه ذلك، لكن الطبع يغلب التطبع في نهاية المطاف.

كان جميع المعلمين يكرهونني. كتب أحدهم في تقريري المدرسي: «أخشى أن ذكاء كلوديا قد يصبح حجر عثرة ما لم تتعلم كيف تتحكم في حماسها وتوجه مواهبها للطريق الصحيح». الذكاء بالطبع، دوما ما يكون نقيصة. يجب أن ترتجف قلوب الأهل عند أول بادرة له. انتابني شعور بالغ بالارتياح عندما لاحظت أن ليسا متوسطة الذكاء. كانت حياتها أكثر راحة. لم يتمتع والدها ولا أنا بحياة مريحة، لكن سواء أكنا نرغب في أن تكون حياتنا مختلفة أم لم نكن، فذلك أمر آخر.

كانت حياة غوردون أيضا غير مريحة بين الفينة والأخرى. لكن الواقع أن حياة سيلفيا كانت كذلك أيضا، لذا، يبدو أن هذا ينقض نظريتي عن الذكاء

(11) الثورة الهندية جرت وقائعها في العام 1857 ضد حكم شركة الهند الشرقية التي كانت تحكم البلاد باسم التاج البريطاني بين مايو من ذلك العام ويوليو من العام 1859.

(12) مسرح حادثة جرت في يونيو 1756 في كالكوتا حيث تم سجن عدد من الأوروبيين وتوفي الكثيرون منهم ممن كان يدافع عن المدينة بعد أن استولى عليها حاكم البنغال سراج الدولة، واستسلام الحامية.

(13) فصيل سياسي تحول إلى حزب في بريطانيا وكان معارضا شرسا للملكية المطلقة ولحزب المحافظين ومدافعا عن الملكية الدستورية. تسلم السلطة في العام 1715 واستمر فيها بلا منازع حتى العام 1760.

والسعادة. سيلفيا غبية للغاية.

قابلها غوردون بعد الحرب. كانت شقيقة أحدهم (بالطبع كما هي الآن زوجة أحدهم). التقاها في حفل راقص، ووجدها جميلة (كانت كذلك بالفعل). غازلها، واصطحبها معه للبيت، وبدأ يطارحها الغرام، وفي الوقت المناسب أعلن خطبتهما.

قلت: «لماذا؟».

هز كتفيه: «لم لا؟».

«لماذا هذه تحديدا؟».

قال: «أحبها».

ضحكت.

لم تُثِر مشكلات كثيرة. كرّست نفسها للأولاد وللبيت. قالت عنها أمي بعد ثالث لقاء لهما إنها فتاة لطيفة، من الطراز القديم، حيث رأت بوضوح ما وراء المظهر السطحي للأظفار المصبوغة باللون الوردي، وتنانير «الموضة الجديدة» الدوارة، وسحابة عطر «ميتسوكو». كان هناك حفل زفاف لائق، أحبّته أمي، فيه زهور الزنبق ووصيفات صغيرات للعروس، وسرادق على العشب أمام منزل أهل سيلفيا في فارنام. رفضتُ أن أكون وصيفة الشرف، وثمل غوردون إلى حدٍّ ما في حفل الاستقبال. قضيا شهر العسل في إسبانيا، واستقرت سيلفيا لتحيا، كما اعتقدت، في سعادة أبدية في شمال أوكسفورد.

كان المؤسف، برأيها، هو أن تخصص غوردون الأكاديمي كان متعلقا بالخطوط الأمامية، من منظور التاريخ. علماء الاقتصاد يشتغلون في قلب الأحداث. لو كانت سيلفيا مع عالِم كلاسيكيات، يبحث في اليونان أو روما، لكانت أفضل حالا. غوردون لا يهتم فقط بالحاضر واللحظة الراهنة، لكن أيضا بالمستقبل، وهذا ما تهتم به الحكومات أيضا. فهم بحاجة

إلى أشخاص مثل غوردون يكونون طوع أمرهم في أي لحظة، لتأكيد أسوأ مخاوفهم، أو لتعزيز ثقتهم. بدأ غوردون يغادر شمال أوكسفورد لفترات أخذت تطول وتطول؛ «أُعِير» لدول أفريقية ناشئة، ولنيوزيلاندا، ولواشنطن. لم تعد سيلفيا تقول كم هو مثير أن يكون غوردون مطلوبا لهذا الحد، وبدأت تتساءل عن تأثير الانتقال بصورة متكررة إلى مدارس مختلفة على الأطفال. حاولت البقاء في شمال أوكسفورد، حيث ساورها القلق حيال ما يمكن أن يفوتها، أو حيال ما يفعله غوردون. بدأت تأكل بشراهة، وازداد وزنها. حاولت التظاهر بالسعادة، وكان هذا هو أفضل ما يمكنها فعله، وكان تصرفا أكثر حكمة مما كنت أتوقعه منها.

أفترض أنني لم أكن الوحيدة التي كانت ترى زواجهما مثيرا للاستغراب. هناك غوردون، الذي تحوَّل من فتى ذهبي إلى رجل ناجح، فطن، له احترامه، ووسيم أيضا. كانت النساء تقع في غرامه من سنغافورة حتى ستانفورد. وهناك سيلفيا، التي تحوَّل جمالها البناتي إلى سِمنة ونضج يفتقر لأي سمات مميزة، وكان حديثها يدور حول الطقس والأسعار وتعليم الأولاد. راقبتُ الآخرين وهم يراقبون سيلفيا تتْبع غوردون مثل زورق صغير مكتنز يسحبه يخت، وراقبت المضيفات وهن يُجلِسنها في مكان آمن عند طرف المائدة، ورأيت الملل في أعين أصدقاء غوردون الناجحين. لكن ربما أكون أنا الوحيدة التي تعلم أن غوردون لديه كسل عميق متأصل. فهو يعمل حقًا. يمكنه أن يعمل بشدة حتى يمرض، حينما يكون الأمر متعلقا بالفكر. لكن كسله أعمق من هذا، فهو كسل روحي، وسيلفيا هي تجسيد هذا الكسل. يحتاج غوردون إلى سيلفيا كما يحتاج بعض الناس إلى قضاء ساعة أو ساعتين كل يوم وهم يحدقون ببساطة من النافذة، أو وهم يضيعون وقتهم سدى. طاقة غوردون الفكرية هائلة، لكن طاقته العاطفية في الحضيض. هؤلاء السيدات اللاتي يتميزن بحدة

الذكاء، واللاتي كان يشاهَد بصحبتهن من وقت لآخر، لم يكنَّ يصلحن أبدا لأن يكنَّ مستدامات. كانت سيلفيا دوما في أمان، ربما بصورة أكبر مما كانت تعرف.

قديما، حينما كنا في الثالثة عشرة والرابعة عشرة من العمر ونتنافس في كل شيء، تنافسنا على اهتمام شابّ تعاقدتْ معه أمي ذات صيف للعمل معلما خصوصيًا. كان يفترض أن يدرِّس غوردون اللغتين اليونانية واللاتينية. كان طالبا جامعيًا، في التاسعة عشرة أو العشرين على ما أعتقد، شابًا أسمر قصيرا وبدينا اسمه مالكولم، تحولت بشرته للون القهوة البنية الغنية خلال ذلك الصيف الطويل والبطيء في دورسيت. في البداية استأْنا من وجوده، ومن ضياع أيامنا المليئة بالكسل. كنا نُسحَب متجهِّمَي الوجه إلى غرفة الدرس؛ وخارج الدرس تجاهلناه. ثم حدث شيء مثير للاهتمام. دخلتُ الغرفة ذات يوم حينما كان غوردون وحده مع مالكولم، يشرح شعر فيرجيل[14]، ولاحظت شيئين: أن غوردون كان يستمتع بما يفعله، وأنه كان هناك تقارب بينهما. كان مالكولم يريح يده على كتف غوردون بينما كان ينحني ليلقي نظرة على دفتر التمارين. نظرت ليده؛ يد نحيلة سمراء، ثم نظرت إلى وجه مالكولم بحاجبيه السميكين الداكنين، وبعينيه البنيتين المنكبَّتين على غوردون وعلى ما يقوله. امتلأت بالغيرة المشتعلة؛ أردت تلك اليد على كتفي أنا؛ رغبت في ذلك الشاب الناضج، وفي تلك النظرة التي بدت فجأة جذابة للغاية، مركزة عليَّ أنا.

ذهبت لأجد أمي، بين ورودها، وأعلنتُ أنني أرغب في تعلم اللغة اللاتينية. يمكنك القول، على ما أعتقد، إن السهولة التي اجتزت بها امتحانات القبول بالجامعة بعد ذلك بسنوات، كانت تعود لبدايات شعوري بالرغبة. طوال ما تبقى من ذلك الصيف، عملت بجد في دراسة كتاب كينيدي التمهيدي

(14) شاعر روماني (70 - 19 قبل الميلاد) من أشهر أعماله الإنيادة.

في اللغة اللاتينية. انتقلت من القواعد الأولية إلى أساليب الشرط والجمل الشرطية، ومنها إلى قيصر وبلاد الغال[15]. لم يكن هناك شيء يمكنه أن يوقفني. اتكأت على فخذ مالكولم القوي الدافئ وكتاب القواعد في يدي، أطلب الشرح؛ تركت ذراعي تحتكُّ بذراعه بينما كان يصحح التمارين التي حللتها. تزينت وتصنعت وخطبت ودّه. غوردون، مدفوعا برغبة محمومة، انتهى سريعا من الإنياذة[16]، وشرع في دراسة الإلياذة[17]. دفع بعضنا بعضا لبذل مزيد من الجهد. أما مالكولم المسكين، الذي اعتقد أنه سيقضي صيفا سهلا يكسب فيه بعض المال، فوجد نفسه وقد التهمته هواجس المراهقة التي لا ترحم. كنت مدفوعة برغباتي الوليدة، وبرغبتي في التفوق على غوردون. وكان غوردون مدفوعا برغبته في التنافس معي وبالغضب من رؤية اهتمام مالكولم به يتشتت ويخف. كان مرجّحا أن مالكولم، الذي كان فتى لطيفا تقليديًا من خريجي المدارس الحكومية، كان يحمل نصيبه من الميول المختلفة. في الغالب، كانت لديه رغبات تقليدية لطيفة تجاه غوردون. حتى أخذت أضع يدي عليه؛ أداعبه بطريقة لعب طفولية، وأنظر إليه بإغراء. أصبته بالحيرة والاضطراب. بنهاية ذلك الصيف، كان الشاب المسكين قد صار مشتتا مثلنا تماما.

لم تتأثر أمي بشيء، واشتركت في فئتين من فئات الزهور في المسابقة الصيفية للجمعية الزراعية الملكية في الجنوب الغربي، وفازت بجائزة.

لم أكن أعلم، بالطبع، في سن الثالثة عشرة، كيف هي علاقة الرجل بالمرأة. وكانت أمي المسكينة تؤجل اليوم المحتوم الذي تشرح لي فيه المسألة. كل

---

(15) اسم كان يطلق قديما على منطقة في غرب أوروبا وتضم اليوم فرنسا ولوكسمبورغ وبلجيكا ومعظم سويسرا وشمال إيطاليا وأجزاء من هولندا وألمانيا على الضفاف الغربية لنهر الراين.

(16) الإنياذة: ملحمة شعرية كتبها الشاعر فيرجيل في القرن الأول قبل الميلاد (29 - 19ق.م) باللغة اللاتينية. وهي تصف الحياة الأسطورية لأينياس الطروادي والذي سافر غربا إلى أراضي إيطاليا وأصبح أبا لكل الرومان.

(17) الإلياذة: ملحمة شعرية للشاعر الإغريقي هوميروس تحكي قصة حرب طروادة. وطروادة هذه هي التي أبحر إليها أخيل من بلاد الإغريق لينتقم من باريس الذي أغوى هيلين زوجة إسبارطة وهرب معها إلى طروادة التي حاصرها الإغريق.

ما كنت أعلمه هو أن هناك شيئا ما سرِّيا للغاية يحدث، وإلا فلم يكن الغموض ليكتنف الأمر بهذا الشكل. كانت لديَّ شكوكي الخاصة أيضا، فلم تكن دراستي لجسد غوردون هباء عبر السنوات، كلما سنحت لي الفرصة. ولقد ضاعف من فضولي تلك المشاعر التي أثارها فيَّ جسد مالكولم المقتول، بلونه الذهبي، وشذاه الرجولي.

انتهى الصيف، ورحل مالكولم. عدت للآنسة لافينهام، وعاد غوردون إلى وينشيستر، حيث فاتح أستاذه أمي بلطف وهو يهمهم بشيء حول كونه يتيم الأب، ثم استضافه في مكتبه ذات مساء ليتحدث معه.

طوال الأسبوع الأول من إجازة الكريسماس، كان سعيدا بتفوقه. وفي النهاية، كما كان يعرف طوال الوقت أنه سيفعل، لم يستطع أن يقاوم ويمنع نفسه من إظهار بهجته، وخرجت الكلمات منه، في لحظة كان ضجره منها قد بلغ قمته وهي تتبجَّح بطريقة لا تحتمل.

يقول: «على أي حال، أنا أعرف الطريقة التي يُصنَع بها الأطفال».

تقول كلوديا: «وأنا أيضا». لكن كانت هناك لحظة متناهية القصر من التردد الفاضح.

«أراهن أنك لا تعرفين».

«أراهن أنني أعرف».

«كيف، إذا؟».

تقول كلوديا: «لن أخبرك».

«لأنك لا تعرفين».

تتردد، وقد وقعت في الشرَك. يراقبها. أي طريق ستختاره؟ تهز كتفيها، أخيرا، بطريقة عفوية للغاية، وتقول ما لديها بكل جرأة.

ينهار غوردون من الضحك. يتدحرج على الأريكة وهو يعوي من الضحك.

تقف فوقه وقد اكتسب وجهها اللون الأحمر القاني، لا بسبب الإحراج، ولكن بسبب الحزن والغضب: «إنه يفعل! أعلم أنه يفعل!».

يتوقف غوردون عن الضحك. يعتدل جالسا. «لا تكوني غبية بهذا الشكل. أنت لا تعرفين أي شيء». ويوجه بإصبعه طعنة لساقي كلوديا، دافعا ثوبها بشكل كاشف. تتسع عيناها في دهشة.. في غضب.. يحملق كل منهما في الآخر. في مكان ما بالأسفل، بعيدا عن النظر، في عالمها الخاص، يمكنهما سماع الصوت الهادئ لماكينة خياطة والدتهما.

تقول: «لن أخبرك».

«لأنك لا تعرفين».

يمكنها أن تضربه بكل سرور، وهو يجلس مسترخيا على الأريكة، يشعر بالرضى عن نفسه. وعلى أي حال فهي تعرف بالفعل؛ أو تعتقد أنها تعرف تقريبا. تقول بتحدٍّ: «أنا أعرف بالفعل».

يلقي بنفسه وهو يضحك، لا يستطيع أن يتفوه بكلمة. ثم يميل للأمام. يقول: «كنت أعرف أنك لا تعرفين، اسمعي..». ويطعن فستانها بإصبعه، بصورة كاشفة.

ويتبخر غضبها بطريقة غريبة، يحجبه شعور آخر، بنفس القوة، يثير حيرتها. هناك شيء غامض حاضر بينهما، شيء لا تستطيع أن تحدده أو تطلق عليه اسما. تحدق بتعجب في أخيها الذي يرتدي ملابس من قماش الفلانيل الرمادي.

الفصل الثالث

يتجمع طاقم الممثلين، وتتعقَّد الحبكة. أمي، غوردون، سيلفيا، جاسبر، ليسا. سوف تنسحب أمي بعد قليل، تعتزل بأناقة وبأدنى قدر من الضجيج عقب إصابتها بمرض في عام 1962. هناك آخرون، لم يُسَمَّوا بعد، سوف يجيئون ويذهبون. البعض حاضر أكثر من البعض الآخر، وهناك واحد فوق الجميع. في الحياة كما في التاريخ، تنتظرنا المفاجآت، تكشِّر عن ابتسامتها عند كل ناصية. فقط مع إدراكنا المتأخر للأمور، نصير أذكياء فيما يتعلق بالأسباب والنتائج.

في اللحظة الراهنة ما زلنا مهتمين بالبناء، بتجهيزات المسرح. لطالما كنت أهتم بالبدايات. جميعنا نمعن النظر في طفولتنا، ونقوم بالمهمة الممتعة المتمثلة في توزيع اللوم. أنا مدمنة للحظات الوصول، للحظات البدايات البريئة التي يتسارع منها التاريخ. أحب أن أتأمل سكانها الغافلين، وهم منشغلون بالأمور الواقعية من جوع وعطش وأمواج، والحفاظ على السفينة في الطريق الصحيح، والنزاعات، والأقدام المبللة، وعقولهم منشغلة بأي شيء عدا القدر. تلك الهيئات الغريبة على نسيج بايو المطرز[18]، التي هي أبعد ما تكون عن الغرابة في سياقها الصحيح، رجال خشنون أقوياء مَهَرة يصارعون الحبال والأشرعة والخيول الهائجة وصياح الرؤساء الشرسين. قيصر، يتأمل ساحل ساسكس. ماركو بولو، فاسكو دي جاما، القبطان كوك.. كل هؤلاء

---

(18) قطعة قماش مطرزة يبلغ طولها حوالي 70 مترا وعرضها 50 سم، وهي تصور الأحداث التي أدت إلى الغزو النورماندي لإنجلترا.

الرحالة الدنيويين منشغلون بالمكاسب الشخصية أو غلب عليهم القلق الفطري، يتفحصون البوصلات ويتعاملون مع السكان المحليين بينما يقومون بتخليد أنفسهم.

وأكثر لحظات الوصول إثارة للاهتمام على الإطلاق، سفينة غير مستقرة بسبب عدم التوازن في حمولتها وتصدر صريرا، اكتسبت اسمها من اسم أحد نباتات السياج الإنجليزية، ازدحمت بقدور الطهي وأواني القلي وخطاطيف صيد السمك، والبنادق والزبد والطحين، وبأشخاص عنيدين ومثاليين وطموحين ومجازفين. تشق طريقها نحو الجزء الطويل والضيق من كيب كود[19] الذي يحتضنها. لم تكن لديكم أدنى فكرة عما تبدؤونه - ويليام برادفورد، إدوارد وينسلو، ويليام بروستر، مايلز ستانديش، ستيفن هوبكنز وإليزابيث زوجته، وبقيتكم. كيف كان لكم أن تتخيلوا العبودية والانفصال، وحمى البحث عن الذهب في كاليفورنيا، ومعركة ألامو، والفلسفة المتعالية، وهوليوود، وسيارة فورد موديل تي، وساكو وفانزيتي، وجون ماكارثي، وفيتنام، ورونالد ريجان؟ كنتم قلقين بشأن الإيمان، والطقس، والهنود الحمر، وأولئك المضاربين دائمي الشكوى الذين خلّفتموهم وراءكم في لندن. لكنني رغم ذلك أحب أن أفكر فيكم، وأنتم تبحثون عن مكان للسكن، وتقطعون الأخشاب وتبنون وتزرعون وتصلون. تتزوجون وتموتون. تسيرون في البرية، وتلحظون نباتات الحماض والقيصوم وحشيشة الكبد وجرجير الماء، ونوعا ممتازا قويّا من الكتان والقنب. كانوا في الغالب أناسا يفتقرون للخيال، لحسن الحظ. فلم تكن سنوات العشرينيات من القرن السابع عشر في ماساتشوستس وقتا مناسبا لإطلاق العنان للخيال؛ هذه رفاهية مخصصة لأمثالي، وأنا أتفكر فيكم.

(19) رأس من الأرض يمتد داخل المحيط الأطلسي من الطرف الجنوبي لولاية ماساشوستس الأمريكية.

أنتم ملكية عامة؛ الماضي المدرك. لكنكم أيضا ملكية خاصة؛ نظرتي إليكم تخصني، وعلاقتكم بي شخصية. أحب أن أتفكَّر في الخط المتذبذب والواهن الذي يمتدّ منكم إليَّ، والذي يؤدي من أكواخكم في مزرعة بليموث إلي، أنا كلوديا، وأنا أعبر الأطلنطي برعاية خطوط طيران بان أميريكان وخطوط عبر العالم الجوية والخطوط الجوية البريطانية لزيارة أخي في جامعة هارفارد. كما ترى، هذا هو الهدف من كل ذلك. كلوديا الأنانية تخضع التاريخ مرة أخرى لوجودها الشخصي التافه. حسنا ألا نقوم جميعا بذلك؟ وعلى أي حال، فإن ما أفعله هو أنني أضع نفسي في السياق التاريخي، وأتحرش به، لأرى أين يقع مكاني. الفؤوس والبنادق في بليموث عام 1620 تتردد أصداؤها خافتة في شريحتي الزمنية الخاصة؛ ولقد أثَّرت في حياتي، على المستويين العام والخاص.

أحب أن أنتقي شذرات الآراء التي تربط بين عقولكم وعقلي، بعض الآراء القوية حول حكم القانون، وتوزيع الملكية، والسلوك اللائق واحترام الآخرين. لكن تلك الشذرات قليلة؛ وأنا أمعن النظر غالبا عبر ضباب غامض مبهم؛ يجري فيه تقديس ما أعتبره تعصبا، بوصفه إيمانا؛ حيث يمكنكم بكل مرح وضع رأس هندي أحمر مذبوح فوق خازوق خارج حصنكم؛ وتحمُّل الحرمان الذي قد يقتلني في حوالي أسبوع. في هذا الضباب أنتم تؤمنون أيضا بالسحر؛ لا مجرد إيمان، بل تعلمون يقينا أيضا أن ثمة حياة بعد الموت.

بالطبع، كنتم محقِّين إلى حدّ ما، لكن ليس بالطريقة التي كنتم تظنونها.. أنا، كلوديا. أغمض عيني نصف إغماضة ناظرة إلى الماضي؛ أسجل وأقيِّم. لكنني لم أكن لأروق لكم؛ فأنا امرأة عجوز فاجرة بذيئة اللسان لها سجل رهيب من والهرطقة. كلا، لن أعجبكم على الإطلاق؛ سوف أؤكد لكم أسوأ مخاوفكم عن الحال الذي قد تؤول إليها الأمور.

لكنكم تستحقون، وسوف تنالون مكانا كبيرا في تاريخ العالم الذي أكتبه. سوف أسير بينكم، بتسامح، وأشير إلى محافظتكم على النظام، وإحساسكم بالعدالة، وقدرتكم على العمل الشاق وشجاعتكم. قيل لكم إن الهنود الحمر «يستمتعون بتعذيب الناس بأكثر الطرق الدموية الممكنة، يسلخون جلود الرجال وهم أحياء بالأصداف البحرية، ويقطعون مفاصل الآخرين وأعضاءهم شيئا فشيئا، ويشوونهم على الفحم، ويجبرون الرجال على أكل شرائح من لحمهم على مرأى منهم وهم أحياء..»، وعلى الرغم من ذلك أبحرتم. الهنود الحمر بالطبع هم الذين ماتوا في النهاية، المساكين الحمقى. كانت هناك فرصة مساوية كذلك لأن تُقطَّع آذانكم أو أنوفكم بالسكاكين في مقاطعاتكم الأم، نظرا للجو العام السائد من الآراء. في عالم بدائي، ربما يجب تقييم الشجاعة بطريقة مختلفة. ومع ذلك، فقد حظيتم بالاحترام.

يبدو عالمكم خياليّا؛ جنّة قاسية، تعج بأشجار البلوط والصنوبر والجوز والزان، وتعوي بينها الذئاب والأسود. حتى إنكم لم تذكروا أبدا اللبلاب السامَّ الذي أصابني مرة أثناء نزهة في كونيتيكت. البيئة تفرض سيطرتها، ولذا لا داعي لأي هراء بشأن الحفاظ عليها. السؤال المهم هو: هل ستكون البيئة لطيفة إلى درجة أن تحافظ هي عليكم؟ إنها تقتل الكثير منكم بطريقة غير مباشرة بسوء التغذية والأمراض. أولئك الذين ينجحون بصعوبة في تجاوز ذلك الشتاء الأول الرهيب يفعلون كل ما في وسعهم للتدخل في مسار الطبيعة. قطعتم الأشجار بالآلاف؛ تسمدون حقولكم بأسماك الرنجة، بأسلوب غير متوقع، تضعونها ورؤوسها للأعلى في أكوام صغيرة من التربة وكأنها فطائر من كورنوال تحدق في النجوم. كان لكم على مر التاريخ أثر كارثي على القندس وثعلب الماء، كما كان لكم أيضا على قبائل الوامبانواج والناراجانسيت الهندية. أثَّرتم على حياة حلزون

البحر وأصداف البطلينوس، الكائنات البحرية الهادئة التي تحيا حياة نظيفة، وجدت نفسها تتحول إلى نقود، تُلمَّع وتُثقب لتصبح خرزا من الصدف استخدمه الهنود الحمر عملة صعبة في تجارة الفراء. كان سعر فراء القندس في سوق لندن يتحكم في قيمة الخرز الصدفي. إنه لظرف اقتصادي عجيب وملائم أن تصبح قبعة تُرتدى تحت سماء ميدلسكس الممطرة مسألة حياة أو موت بالنسبة للأصداف البحرية التي تزحف في المياه الضحلة في كيب كود.

كان هناك كلب من فصيلة السبانيل على متن سفينة مايفلاور[20]. طاردت الذئاب ذات مرة هذا الكلب الصغير في مكان غير بعيد عن المزرعة، وركض ليربض بين قدمي سيده مستنجدا به. كلب ذكي عرف أن البنادق أكثر حدّة من الأسنان. ما أجده جديرا بالاهتمام بخصوص هذا الحيوان هو أني أعلم بوجوده من الأساس، أن مروره غير المهم عبر الزمن ينبغي أن يسجل. يصير واحدا من تلك الأشياء الحيوية غير المهمة التي تقنع المرء بحقيقة التاريخ.

أنا على علم بأمر كلب السبانيل الصغير هذا. أعرف كيف كان الطقس في ماساتشوستس في يوم الأربعاء السابع من مارس عام 1620 (بارد لكن صحو، مع رياح شرقية). أعرف أسماء الذين ماتوا في ذلك الشتاء والذين لم يموتوا. أعرف ما الذي كنتم تأكلونه وتشربونه، وكيف كنتم تؤثثون بيوتكم، ومَن كان منكم أصحاب ضمائر ومثابرة، ومن لم يكونوا كذلك. وأنا أيضا، لا أعرف أي شيء. لأنني لا أستطيع أن أنسلخ من جلدي وأتلبَّس جلودكم، لا أستطيع أن أنزع عن عقلي كل معرفته وتعصبه، لا أستطيع أن أنظر إلى العالم بطهارةٍ بعينَي طفل، لأنني حبيسة زماني تماما كما كنتم أنتم حبيسي زمانكم.

حسنا، لا يمكن فعل شيء بهذا الخصوص. ومع ذلك، تنتابني رعشة

(20) السفينة التي أبحر بها الآباء الحجاج من بليموث إلى ماساتشوستس في العام 1620.

حين أتأملكم، أبرياء طليقين في الجنة تلك (أبرياء بقدر براءة أي منتج أوروبي من القرن السابع عشر). لكن من غير الملائم، على أي حال، المضي في ذلك التشبيه أبعد من ذلك. ما أستمتع به هو أن أضعكم في مواجهة ما هو آتٍ، ما لا يمكن تصوره، في مواجهة القارة المزدحمة التي أعرفها؛ التزاوج بين كل ما هو مثير للإعجاب وكل ما هو مروِّع.

أحب أمريكا، وغوردون يحب أمريكا. سيلفيا لا تحب أمريكا، سيلفيا المسكينة كانت تتعثر هناك، تتخبّط بثقل كسلحفاة بعيدة عن بيئتها الطبيعية. لم تتعلم اللغة ولا الأسلوب ولا التقاليد قطّ. ثمّة أشخاص لهم خصال كالحرباء (أنا أتمتع بها، وكذلك غوردون، وجاسبر بالطبع كذلك) وآخرون تصلّبت طباعهم الشخصية وأصابهم العناد في فترة ما من شبابهم. تجمّدت ردود فعل سيلفيا الشخصية حيال الظروف حينما كانت في السادسة عشرة. كانت تصبو لقضاء وقت ممتع وإنجاب الأطفال، والحصول على منزل أنيق وأصدقاء لطفاء. حققت كل تلك الأشياء، وتوقَّعَتْ أن تعيش في سعادة أبدية بعد ذلك. لم تحسب حسابا للعوامل الخارجية. ازدهر مستقبل غوردون المهني. في منتصف عمرها، وجدت سيلفيا نفسها تعيش النصف الأول من كل عام في الجهة المقابلة من المحيط الأطلسي، بينما يمارس غوردون مهامَّه في هارفارد.

خُصِّص مكان لسيلفيا، بالطبع، في المقعد الخلفي من السيارة. تجلب الأمر على نفسها، تضع يدها على مقبض الباب وتقول: «سأركب أنا في الخلف، كلوديا». يفلت التعبير الأمريكي من شفتيها وتصححه سريعا. تنطق الكلمات الأمريكية المقابلة للبريطانية الدالة على صنبور وشقة ورصيف وما إلى ذلك، شاءت أم أبت، هناك حدود للأمر. لكنها أحيانا، حينما تكون مضطربة، وهي تشعر بالاضطراب الآن بالطبع، لا تستطيع التحكم في حديثها على ما يبدو. يبدو ما ينزلق من لسانها وكأنه هجين

بشع، لا هو بلغتها ولا بلغة أمريكا. صارت مشوشة، وتدرك أنها كذلك. لم تعد قدماها ثابتتين في أي مكان، ولا لسانها. لم تكن تفعل أي شيء بطريقة صحيحة هنا. وهي تفتقر للاتزان في المواقف المختلفة على الدوام، تصافح حينما يجب عليها تبادل العناق، وتعانق عندما يكون عليها أن تكتفي بالمصافحة. تقول الكثير، أو لا تتحدث بدرجة كافية. تفتقد القدرة على تقييم المنزلة الاجتماعية والعلاقات والعواقب. على العكس من غوردون، الذي كان ينسلّ خلسة من أوكسفورد إلى هارفارد من دون أي تعديل في طريقة حديثه أو لبسه أو أسلوبه، وكان ينتمي لكلا المكانين بالتساوي، مرحَّبا به في كل منهما، وينال التقدير فيهما بالتساوي.

لا تقول كلوديا: «أوه! لا.. سوف أفعل يا سيلفيا»، فقط تركب ببساطة في المقعد الأمامي مع غوردون، بينما تلهث سيلفيا قليلا، وتنحشر في الخلف بالسيارة الصغيرة، وهي تتمنى لو أن تلك السيارات الرائعة الكبيرة الوثيرة ما زالت موجودة في الولايات المتحدة.

تستقر في مكانها باستسلام، وتعد نفسها لطول طريق السفر. سبق أن قال لها غوردون: «لا تأتي معنا، لستِ مضطرة إلى ذلك». لكن كان عليها أن تفعل بالطبع، حتى في هذا اليوم الحار المروِّع في منتصف صيف ماساتشوستس، حيث كانت اللافتة التي عليها مؤشر درجة الحرارة على جانب الطريق السريع تشير إلى 98 درجة فهرنهايت، وكان ثوبها يلتصق بها، والعرق يقطر بين كتفيها. لو لم تأت لقضت اليوم بأكمله في البيت حيث الجو بارد، تشعر بأنها منبوذة وغير مرغوب في وجودها، وتفكر فيهما وهما يضحكان ويستمتعان بوقتهما من دونها. تشعر بهما وهما يبتعدان عنها، دون أن يعيراها أي اعتبار. كانت تشعر بالفعل بأنها مجبرة على أن تُشعِرهما بوجودها، فمالت للأمام وهي متضايقة لتسأل غوردون إن كان بوسعه إغلاق النوافذ وتشغيل مكيف الهواء، بينما هي تحاول سماع ما تقوله كلوديا.

تقول كلوديا: «نغلق النوافذ؟ نحن بحاجة لهواء نقي!».

يندفع الهواء النقي الساخن خلال السيارة، وتمر خلفهم مَشاهد ماساتشوستس الخضراء الحارقة، وتستسلم للأمر، للوقت الراهن، وتنزلق للخلف. تلاحظ أن شعر كلوديا صار الآن ثلاثة ألوان: رماديًا وأبيض ورقعا من الأحمر الداكن القديم. قُصَّ ليصير قصيرا، وكان مصففا بإهمال، لكنه تدبَّر أمره ليظهر (بالطبع) بمظهر أنيق. كان شعر سيلفيا، المصفف بعناية الذي يُصبَغ كل شهر، لم يزل لونه رماديًا أشقر، وكان في اللحظة الراهنة يعاني بشدة من رياح الطريق السريع العاصفة. تبحث عن وشاح. ترتدي كلوديا بنطالا من قماش الجينز وجاكيتا من القماش نفسه، مع قميص ضيق مخطط فرنسي الشكل. لا تستطيع سيلفيا أن تتخيل، كيف يمكنها في سنها هذا، الإفلات بمثل هذا المظهر؛ لكنه (بالطبع) لا يبدو كمظهر عجوز متصابية، بل هو أنيق وحسب.

يقول غوردون وقد بدا عليه الخوف من أن يكونوا عرضة لخطر ما: «هل كل شيء على ما يرام؟».

تقول سيلفيا: «الهواء شديد للغاية». يرفع غوردون زجاج نافذته مقدار قدم، وترفع كلوديا زجاج نافذتها بوصتين.

تفكر سيلفيا في الطعام. على الأقل سوف يكون هناك مطعم جميل مكيف الهواء في هذا المكان، وسوف تلتزم شبه التزام بحميتها الغذائية، وستقاوم المثلجات والكلوب ساندوتش. لكنها قطعا ستتناول طبقا ضخما من سلطة التونة مع الكثير من الصلصة. ميزة أمريكا هي الطعام، كان هذا عزاءها الوحيد خلال السنوات العشر من حياتهم الانفصامية التي قضوها ذهابا وإيابا، ستة أشهر في أوكسفورد، وستة أشهر في كامبريدج بماساتشوستس. دوما تجهز الحقائب، وتضع كل شيء في مكانه، ثم تعيد إفراغ الحقائب، وتعيد الترتيب مرة أخرى. يقول الناس: يا له

من أسلوب حياة رائع! وتوافق سيلفيا بحماس. تتأمل منزلَيْها الأنيقَيْن بإصرار، وتفكر في عدد الأشخاص المثيرين للاهتمام والمشهورين الذين تعرفهم على جانبي الأطلسي، وإن لم يكن بالإمكان اعتبار الكثير منهم من أصدقائها المقربين. ليسوا أشخاصا يمكنك الجلوس معهم لتبادل الثرثرة، هم فقط أشخاص تدعوهم لتناول الغداء أو المشروبات، أو يدعونك هم لتناول الغداء والمشروبات. دوما، يرحبون بغوردون ثم يحيُّون سيلفيا. كان غوردون، كما قيل لها، واحدا من أعلى الأكاديميين أجرا في مجاله. كان حجم ميزانية مصروفاتها المنزلية يثير دهشتها. لم يعد بإمكانها أن تفكر في أشياء أخرى تنفقها عليها. كان غوردون بالطبع غائبا معظم الوقت؛ هذه ضريبة الشهرة. وكانت تتساءل أحيانا، في الهزيع الأخير من الليل، إن كان مستمرا، من وقت لآخر، في إقامة علاقات مع نساء أخريات. هذا أمر محتمل. ربما. لكن، إذا كان يفعل هذا، فهي لا تريد أن تعرف شيئا. لن يتركها الآن من أجلهن، لأن الأمر سوف يكون مزعجا، وسوف يؤثر على عمله. تعلمت منذ زمن طويل، أثناء علاقته بعالمة الإحصاء الهندية، أن إثارة المشكلات أمر غير مُجدٍ. ولو أنها صبرت فسوف يمرّ الأمر وينتهي.

تسأل بنبرة حزينة: «كم تبقى من الوقت؟».. تنظر كلوديا لخريطة الطريق، وتقول: «نصف ساعة تقريبا». تلقي الكلمات والخوف ينتابها من وقوع خطر ما، وقد نفد صبرها. كانت تتجادل (بالطبع) مع غوردون، وفجأة انتهى الجدال وانفجر الاثنان ضاحكين. تصيح سيلفيا: «ما الأمر المضحك؟» يقول غوردون وهو مستمر في الضحك: «سأخبرك لاحقا».

وأخيرا، يصلون إلى وجهتهم. يَصُفُّون السيارة. تحملق سيلفيا حولها. تقول: «لا أستطيع أن أرى أي أكواخ خشبية، ولا أي أشخاص يرتدون ملابس تنكرية». لا يمكنها أن تفهم على أي حال لماذا أصرت كلوديا على

القيام بهذه الرحلة. مكان يرتدي فيه الناس ملابس تنكرية، ويتظاهرون بأنهم يحيون في حقبة تاريخية مضت، يبدو سخيفا للغاية بطريقة لا تعبّر عنها الكلمات، وليس من الأشياء التي تثير اهتمام كلوديا على الإطلاق، ولا غوردون. كانت كلوديا وغوردون يعبران بالفعل الطريق الأسفلتي لموقف السيارات، ويتجهان نحو ما يُسمًى مركز التوجيه. تدلف سيلفيا بامتنان إلى برودة هواء المكيف، وتتجه نحو حمام السيدات. تصلح شعرها وزينتها وتلقي نظرة على ورقة المعلومات التي أُعطِيت لها. تقرأ: مزرعة بليموث هي إعادة إحياء لقرية المهاجرين في عام 1627. أنتم على وشك أن تغادروا زمانكم وتعودوا إلى العام السابع من فترة الاستيطان. الأشخاص الذين سوف تقابلونهم يجسِّدون بأزيائهم وحديثهم، وسلوكهم وأساليبهم، أشخاصا حقيقيين معروفين من سكان المستعمَرة. وهم دوما تواقون لتبادل الحديث. وجهوا ما تشاؤون من أسئلة؛ لكن عليكم أن تتذكروا أن الإجابات التي سوف تتلقونها تعكس شخصية القرن السابع عشر لكل فرد منهم.

تقهقه سيلفيا. تشعر بتحسن الآن، بعد أن أصلحت زينتها وقضت حاجتها. تنضم للآخرين مرة أخرى، وتقول: «هذا المكان يبدو مخبولا للغاية».

تقول كلوديا: «نصف ساعة أخرى». تعتقد كلوديا أن سيلفيا كانت طوال الرحلة تريد إغلاق النوافذ أو فتحها، وتقاطع، وتسأل: كم بقي من الوقت؟ كأنها طفلة! تماما كما لو كانت ليسا أو أحد أطفال غوردون المزعجين يركب في الخلف. لكن أفضل طريقة للتعامل مع سيلفيا هي تجاهلها، كما اعتادت أن تفعل. وقد مرت شهور عدة منذ آخر مرة التقت غوردون. تتخلص من سيلفيا وتكمل حديثها مع غوردون. يتجادلان، بشدة وباستمتاع، حول سياسات ملاوي، التي زارها غوردون مؤخرا. يقدم

غوردون النصائح لوزراء تلك البلاد بخصوص كيفية إدارة الاقتصاد. يقول: «هراء، كلوديا.. ليس لديك أدنى فكرة عما تتحدثين عنه. فأنت لم تذهبي لذلك المكان اللعين من قبل». ترد كلوديا: «ومنذ متى كنت أعتمد على التجربة الشخصية حتى أكوِّن رأيا مستنيرا؟». ويضحك الاثنان. وسيلفيا، في الخلف، تستمر في ثرثرتها.

يصلون إلى وجهتهم. يشاهدون في قاعة باردة مظلمة عرضا للشرائح؛ يعطيهم التعليق شرحا مختصرا ومبسطا وواضحا عن الاستيطان في الساحل الشرقي. تعتقد كلوديا بأنه ليس سيئا، ليس سيئا على الإطلاق.

يخرجون إلى الضوء الساطع، وعلى ما يبدو إلى عام 1627. يدخلون المستوطنة المحصنة، ويقومون بجولة في الحصن الصغير. يخرجون ويمرون عبر الشارع المنحدر الطويل في القرية الذي تحيطه الأكواخ الخشبية من الجانبين. ينبش الدجاج والإوز في التراب. يجلس شخص يرتدي سترة جلدية بلا أكمام، ويعتمر قبعة ذات حافة ضخمة وهو يصلح سياجا، ويحيط به المتفرجون الذين يرتدون القمصان القطنية وأطرافهم مكشوفة. تطارد امرأة تعتمر قبعة شمس الدواجن بمكنسة؛ يلتقط أحدهم صورة فوتوغرافية لها.

تدلف كلوديا داخل أول الأكواخ الخشبية. توجد بالداخل نار مشتعلة يغلي فوقها قدر طهي أسود، وأثاث بدائي، ونباتات مجففة معلقة مقلوبة من عوارض السقف، وسرير مغطى بخرقة، تفصله عن باقي المكان ستارة. كما كان هناك شاب يرتدي سروالا قصيرا حتى الركبة وقميصا أبيض، وكانت مجموعة من الزوار تتأمله في صمت. تسأله كلوديا عما إذا كان قد جاء على متن سفينة مايفلاور. يجيب بالنفي، ويردف: بل على متن السفينة آن، بعدها بعامين. تسأله كلوديا: «لماذا أتيت؟» يشرح الشاب معتقداته الدينية والمصاعب المترتبة على ذلك في إنجلترا. تسأله كلوديا

عما إذا كان يأمل أن يصبح ثريًا في العالم الجديد. يجيبها الشاب بأن كثيرا من المستوطنين يأملون أن يحصدوا ثمار النجاح في نهاية المطاف بعد سنوات الكفاح المبكرة تلك. تنصحه كلوديا: «تحمَّل حتى النهاية. سأخبرك شيئا واحدا: يؤول الأمر في آخر المطاف إلى نهاية تثير الاهتمام للغاية». يرمقها الشاب بنظرة متسائلة ويخبرها بأنهم يؤمنون بالرب. تقول كلوديا: «سوف تحتاجون إلى هذا الإيمان».. وتقول سيلفيا: «اسأليه إذا كان ذلك الشيء المجفف هو البردقوش، لم أره مزروعا هنا من قبل». ترد كلوديا: «اسأليه بنفسك، إنه يتحدث الإنجليزية». تقول سيلفيا: «لا أستطيع، يبدو الأمر مثيرا للضحك». يتشاغل الشاب بإصلاح خيط من خيوط صيد الأسماك ويتجاهلها. تقول كلوديا: «حسنا. حظًا طيبا مع الحروب الهندية[21]». تغادر الكوخ، تتبعها سيلفيا، وتسير في الشارع، وتدخل الكوخ الذي يليه، حيث كان غوردون يتحدث إلى شاب ضخم البنية له لكنة أيرلندية. يشرح الأيرلندي كيف كان متجها ناحية فيرجينيا، وانتهى به الأمر بالوصول إلى هذا المكان دون أن يقصد ذلك. كان ينوي أن يتجه جنوبا في الوقت المناسب؛ حيث سمع أن هناك احتمالات طيبة لنجاح زراعة التبغ. يهزّ غوردون رأسه بحكمة؛ وتضيف كلوديا: «قد يكون لديك فكرة جيدة في هذا الشأن. لكن مع ذلك، خذ بنصيحتي. لا تبدأ في استقدام العمالة من الخارج، وستتفادى الكثير من المشكلات لاحقا بهذه الطريقة». يقول غوردون: «أنت تفسدين الحكاية». ترد كلوديا: «ربما تكون هناك حكاية بديلة». يسأل غوردون: «وماذا عن نظرية المصير الحتمي؟». تهز كلوديا كتفيها؛ وتقول: «لطالما اعتقدت أن هذا أمر خطير». يسأل الأيرلندي: «عفوا، سيدتي؟». تقول كلوديا: «يبالغ

(21) الصراعات التي خاضتها الحكومات الأوروبية والمستوطنون في أمريكا ومن ثم الحكومة الأمريكية ضد قبائل الهنود الحمر.

الناس كثيرا عندما يتعلق الأمر بالقدر، في رأيي الشخصي. لا أعتقد أنك تفكر فيه، الآن؟». يقول الأيرلندي: «حسنا..». تكمل كلوديا حديثها: «بالضبط. لا تفكر فيه بأكثر مما أفكر أنا. لا يبدأ الناس في إلقاء المواعظ بخصوص القدَر إلا لاحقا». تشكو سيلفيا: «يا إلهي! أشعر أنني أفتقد المعلومات اللازمة للتعامل مع الموقف». تقول كلوديا للأيرلندي: «أنتم الآن تعيشون في زمن مثير من الناحية الفكرية. ضع في اعتبارك أنك قد تشعر الآن أنك لا تلحظ مثل هذا الأمر، لكن صدقني، فإن النتائج لها آثار ممتدة على المدى البعيد. قد يشعر بعض الناس أن الأمور قد آلت إلى تدهور مستمر بعد تلك المرحلة». عند هذه النقطة بدأ يظهر على الأيرلندي بعض الاضطراب. وكان الآخرون الذين توقفوا للمشاهدة يتململون بارتباك. يقول غوردون: «أوه! بالله عليك! هناك عصر التنوير الذي يأتي بعد ذلك». تقول كلوديا: «وانظر ما الذي استتبعه ذلك». يقول غوردون: «يجب استغلال الفرص حينما تسنح..». ترد كلوديا: «فكرة أخرى مستهلكة». تتذمر سيلفيا: «الجو حار للغاية هنا». تقول كلوديا مخاطبة الأيرلندي: «على أي حال، هي مجرد فكرة، فلتلتزم بالزراعة لتحقيق الاكتفاء الذاتي، ولتنظر ما يحدث». يقول الأيرلندي بشيء من الضجر: «أجل يا سيدتي». يلتفت، بشيء من الارتياح، لامرأة تريد أن تعرف كيف يشعل النيران بلا أعواد ثقاب.

يخرجون من الكوخ. تُخرج سيلفيا منديلا ورقيًا من حقيبة يدها وتمسح وجهها. تقترب كلوديا من الرجل الذي يصلح سياجا أسفل شجرة، وتسأل عن اسمه. يجيب: «وينسلو، إدوارد وينسلو». تقول كلوديا: «أعرف شخصا من سلالتك». يقول غوردون: «توقفي عن ذكر أسماء من تعرفين من المشاهير». يحني الشاب رأسه بأدب. تقول كلوديا: «إنهم أثرياء للغاية». يبدو على الشاب الاستياء. يقول غوردون: «إنه ليس مهتمًا

بالثراء أكثر منك أو مني». ترد كلوديا: «على العكس، إنه مهتم للغاية. أنا ومن بعدي الطوفان.. مفهوم فاسد وحديث نسبيًا. لطالما كنتَ تفتقر للحساسية التاريخية». يقول غوردون: «وأنت لم تهتمي بالأفكار أبدا، فقط تدمنين الآراء العامة غير الصحيحة. لطالما تجاهلتِ أي شيء لا يثير اهتمامك. الأيديولوجيا والتاريخ الصناعي والاقتصاد».

تقول كلوديا وهي ترفع وجهها لسماء ماساتشوستس: «علماء الاقتصاد، ما هم إلا محاسبون أكاديميون». يبدأ غوردون في الرد: «والمؤرخون المزعومون الانفعاليون..». تنفجر سيلفيا: «بالله عليكما! الناس يسمعونكما». تقول كلوديا: «كلا، لا يفعلون. صديقنا وينسلو هنا يجلس بسلام في عام 1627، لذا فإن نقاشا عائليًا في القرن العشرين يقع خارج نطاق خبراته». تصيح سيلفيا: «أوه! كلاكما يتصرف بسخف!». يتغضن وجهها. يريان أنها على وشك الانفجار بالبكاء. تصيح سيلفيا: «لقد نلت كفايتي من هذا المكان. سأذهب لتناول الغداء». تبتعد حثيثا عبر الطريق الترابي بين الأكواخ الخشبية. تتعثر مرة، بينما بقعة داكنة من العرق تفترش ظهر ثوبها، وشعرها في حالة مزرية.

تقول كلوديا: «يا إلهي!».

يقول غوردون: «حسنا، لقد كنت تبالغين في الأمر بعض الشيء، أليس كذلك؟». يشاهد هيئة زوجته المتعثرة، يفكر باللحاق بها، ثم يقرر أنها ستتماسك على نحو أفضل من دونه، ويعرف أنه ما كان عليه أن يقرر هذا. تقول كلوديا بلطف لسيد وينسلو: «آسفة لما حدث». يقول وينسلو: «العفو، سيدتي». تقطب كلوديا حاجبيها قائلة: «لست متأكدة أن هذا من كلام زمانك، أعتقد أنك ربما تستبق عصرك». يُظهر الشاب، في تلك اللحظة، بعض الحنق. يبادر بالرد: «عفوا، لكننا جميعا نتلقى تدريبا مكثفا في..». يقول غوردون، وهو يمسك ذراعها: «كلوديا، هذا يكفي».

تقول كلوديا: «إنما بدأت للتو بالوصول إلى أعلى قدر من الكفاءة في مثل هذه الأمور». لكنها رغم ذلك تسمح له باقتيادها بعيدا. يقول غوردون: «أعرف هذا، وهذه هي المشكلة». تقول كلوديا: «لقد قلت إن هذا المكان يبدو واعدا، وهو كذلك بالفعل». يقول غوردون: «مع ذلك، أعتقد أنه يجب علينا أن نعود للواقع».

تنحني كلوديا فوق حظيرة مسيَّجة لتتفحص خنزيرا خاملا، ينام في بقعة ظليلة. تسأل: «ألا تجد فكرة التاريخ البديل مثيرة للاهتمام، ولو قليلا؟». يقول غوردون: «لا. إنه مضيعة للوقت». تقول كلوديا وهي تنخس الخنزير بجزء من عصا: «كنت أعتقد أنك من المفترض أن تكون منظِّرا؟». يقول غوردون: «نوعية النظريات التي أهتم بها تهتم بالاحتمالات، لا بالخيال. دعي ذلك الحيوان التعيس وشأنه». تقول كلوديا: «يا له من أمر ممل للغاية! ومن المتعارف عليه أن الخنازير تحب أن يحك أحد ظهرها. بالمناسبة، لقد قابلت جاسبر الشهر الماضي. اصطحبنا أحفادنا لحضور مسرحية موسيقية مروِّعة».

يقول غوردون: «يا لها من نزهة عائلية فاتنة! كيف يستمتع بحياته بعد أن حصل على لقب لورد؟». تقول كلوديا: «يستمتع بصورة مفرطة». يقول غوردون: «كان الحظ بكل تأكيد حليف جاسبر؛ حظه الخاص». تقول كلوديا: «إنه رجل الحظ. هذا صحيح». يواصل غوردون: «وحظوظك أنت، لو لم تمتزج مع حظوظه لصارت أقل امتلاء بالمشكلات». تقول كلوديا: «أوه! لا أعلم. أعتقد أنه قد كُتِبت عليَّ علاقتي بجاسبر، أو إن لم يكن هو فشخص آخر يشبهه. ودوما ما كنت أعامل الناس مثلما يعاملونني، عليك أن تعترف بهذا». يقول غوردون: «بالطبع. هل هو متزوج هذه الأيام؟». تقول كلوديا: «هو كذلك، بطريقة ما على ما أعتقد، حتى في سنه هذه».

ينهض الخنزير، ويتحرك بتثاقل نحو الركن البعيد من الحظيرة. تقول

كلوديا: «الكائن الغبي لا يفهم التقاليد.. أعتقد أن علينا أن نذهب ونجد سيلفيا». يقول غوردون: «أجل. أعتقد أننا يجب أن نفعل هذا». يظلان في مكانهما. تقول كلوديا: ءكم أنت متناقض! فأنت على استعداد لأن تفكر في مصائر بديلة في السياق الشخصي». يقول غوردون: «أنا أضع في الاعتبار أن الناس يتخذون القرارات، وإن كنت أعترف بأن بعضهم يحسنون ذلك أكثر من غيرهم. لكن أولئك الذين لا يهتمون بتحقيق أي تقدم هم فقط من لا يملكون أي نوع من التحكم في حيواتهم». تقول كلوديا: «مثل هذا الخنزير تعس الحظ الذي هو من القرن العشرين، ومحكوم عليه بأن يعيش في ظروف القرن السابع عشر لأغراض السياحة والتراث القومي الأمريكي».

يسير الاثنان بتمهل، ناحية مركز الاستقبال، واليوم الحاضر، وسيلفيا. يقول غوردون: «لقد فكرت في لعبة جديدة نلعبها معا فقط. إنها تشبه لعبة النتائج. يقر كل منا باختيار خاطئ اتخذه وبعدها يقوم الآخر باختراع بديل. أنت تعترفين بسوء اختيارك لجاسبر، وأنا أعطيك بدلا منه.. ممم، دعيني أرَ.. أعطيك أدلاي ستيفينسون الذي أذكر أنك التقيتِه سريعا ذات مرة وأعجبك. وأنجبتِ منه ابنا رائعا ترشح حاليّا لمنصب حاكم ماساتشوستس». تستفسر كلوديا: «وبأي خطأ تعترف أنت؟». يقول غوردون: «أعترف بسوء اختيار مهنتي. كان عليَّ الاستمرار في لعب الكريكيت، لو أنني فعلت لربما كنت الآن رئيسا متقاعدا لفريق إنجلترا وأحظى بالاحترام حيث يكون مطلوبا». تقول كلوديا: «لا تكن سخيفا. أرى أن لهذه اللعبة مجموعة قوانين خاصة بي ومجموعة قوانين أخرى لك أنت، لن ألعب. على أي حال، أريد أن أتناول شرابا».

يدخلان المطعم. تجلس سيلفيا إلى مائدة وحدها، وأمامها كوب من الشاي المثلج وطبق ضخم من السلطة. كان وجهها ملطخا. ترحب بهما بكرامة

جريحة. تقول: «لم أكن أعرف إن كنتما ستأتيان أم لا، لذا بدأت في تناول الطعام». يضع غوردون يده على كتفها، قائلا: «نحن آسفان، حبيبتي. آسفان حقًا. لقد كنا نتسكع. أتمنى أنك تشعرين بالانتعاش. هل يمكنني أن أجلب لك أي شيء آخر؟». ترد سيلفيا، بنبرة جريحة وباردة؛ ربما تتناول بعض المثلجات.

يجري فرض مواقف السيارات ومراكز الاستقبال والحمامات والمطاعم، على البرية. وفي ناظرَيَّ، يمثل ذلك المكان أماكن عديدة، بعضها واقعي والآخر غير واقعي، بعضها كان معيشا والآخر متخيلا. يصير جزءا من سلسلة مَراجعي؛ الماضي الجمعي يصير منطقة خاصة. كان غوردون وسيلفيا يسيران، بعد ظهيرة أحد الأيام منذ بضع سنوات، بجوار مستوطني بليموث ومجموعة من مسؤولي المتحف الذين يرتدون أزياء تنكرية.

الفصل الرابع

تهمس قائلة، وهي تشير بإصبعها: «ما هذا؟».

تقول الممرضة: «ماذا تقصدين، آنسة هامبتون؟ لا يوجد شيء، مجرد النافذة».

«هناك!» تطعن الهواء بإصبعها، وتضيف: «شيء يتحرك.. ماذا يدعى؟ ما اسمه؟!».

تقول الممرضة بفراغ صبر: «لا أرى شيئا. لا تقلقي، عزيزتي. إنك مشوشة الذهن بعض الشيء اليوم، هذا كل ما في الأمر. حاولي أن تنامي. سأسدل الستائر».

ترتاح قسماتها فجأة. وتتمتم: «ستارة.. ستارة».

تقول الممرضة: «أجل، عزيزتي. سأسدل الستائر».

خذلتني اللغة اليوم. لم أستطع أن أجد الكلمة التي تدل على شيء بسيط؛ أثاث عادي مألوف. لوهلة، حملقت في الفراغ. اللغة تربطنا بالعالم؛ من دونها ندور كالذرّات. لاحقا، صنعت قائمة بموجودات الغرفة؛ أسماء محتوياتها: فراش وكرسي وطاولة وصورة ومزهرية وخزانة ونافذة وستارة.. ستارة، وعدت أتنفس مرة أخرى.

نفتح أفواهنا فتتدفق كلمات لا نعرف حتى أصولها. نحن معاجم متحركة. في جملة واحدة من اللغو نحافظ على اللاتينية، والأنجلوساكسونية والنوردية القديمة. نحمل داخل رؤوسنا متحفا، وفي كل يوم نحيي ذكرى شعوب لم نسمع بها من قبل. الأكثر من ذلك. أننا نقول الكثير، ذلك أن لغتنا هي لغة كل شيء لم نقرأه. شكسبير والنسخة المعتمدة من الإنجيل

يظهران في السوبر ماركت وفي الحافلات وفي الثرثرة في المذياع والتلفاز. أجد هذا أمرا معجزا. لا أكف عن التعجب منه. لا أكف عن التعجب من أن الكلمات أطول عمرا من أي شيء، وأنها تنتشر مع الريح، وتنام في سبات شتوي ثم تستيقظ مرة أخرى، وتعيش كالطفيليات على أغرب عائل، وتبقى، وتبقى، وتبقى.

أذكر مدى إثارة اللغة الخصبة كالربيع في فترة الطفولة. أجلس في الكنيسة، أدحرج الكلمات في فمي مثل البِلي (كرات زجاجية يلعب بها الأطفال): معبد ومنافق، وحكاية رمزية؛ تجاوزات وبابل وميثاق. أحفظ عن ظهر قلب، أُنشِد بأعلى صوتي: «لارس بورسينا ملك كلوسيوم[22]، أقسم ألّا تعاني أسرة تاركوين العظيمة من الظلم بعد اليوم..»، أشعر بالسعادة لتفوُّقي على غوردون، الذي لا يستطيع أن يتهجَّى أطول كلمة في المعجم (antidisestablishmentarianism)، وهي التي تعني: مُعارض للفصل بين الكنيسة والدولة. أنطق كلاما مسجوعا، وأهرطق، وأتعجب. كنت أجمع أسماء النجوم والنباتات: السماك الرامح والجبار ومنكب الجوزاء والحندقوق وبقلة الملك والمخلصة. أسماء لا تحصى، على ما يبدو، مثل حبات الرمل على الشاطئ، والأوراق على شجرة الدردار الضخمة خارج نافذة غرفة نومي، لا حد لها، ولا تُقهَر. «هل هناك من يعرف كل الكلمات الموجودة في العالم؟» أسأل أمي: «هل يوجد أحد؟». تقول أمي بغموض: «أعتقد أن بعض الرجال بالغي الذكاء قد يعرفون».

أكثر ما أثارت ليسا اهتمامي أيام كانت طفلة حينما كنت أشاهد معاناتها مع اللغة. لم أكن أمّا جيدة، بالمفهوم التقليدي. أجد الأطفال حديثي الولادة منفِّرين بعض الشيء؛ أما الصغار فهم مملون ويُشتِّتون الانتباه. حينما بدأت ليسا تتحدث، استمعتُ إليها. كنت أصحح

(22) ملك تروسكاني اشتهر بحربه ضد مدينة روما في العام 508 قبل الميلاد. حكم مدينة كلوسيوم.

التفاهات التي كانت جدَّتاها تشجعانها عليها.

قلت لها: «كلب.. حصان.. قط. لا يوجد شيء يسمى هَوْهَو ولا شيء يسمى شي شي». تقول ليسا بتمعن وهي تتذوق الكلمة على لسانها: «حصان». لأول مرة تواصلنا. تسأل ليسا: «شي شي اختفى؟». أجيبها: «هذا صحيح. لقد اختفى. أنت فتاة ذكية». وقطعت ليسا خطوة نحو النضج.

الأطفال ليسوا مثلنا. إنهم كائنات مستقلة لا سبيل لفهمهم، ويستحيل الوصول إليهم. لا يسكنون عالمنا، بل يسكنون عالما فقدناه، ولا يمكننا استعادته أبدا. لا نتذكر طفولتنا لكننا نتخيَّلها. نبحث عنها عبثا، عبر طبقات التراب الذي يخفيها، ونستعيد بعض الخِرَق المهلهلة مما نعتقد أنها كانت عليه. وطوال الوقت، فإن سكان هذا العالم بيننا مثل سكان أستراليا الأصليين، وأصحاب الحضارة المينوسية[23]، أناس من عالم آخر يعيشون في أمان في كبسولتهم الزمنية الخاصة.

كنت أصطحب ليسا للتريُّض في الغابة القريبة من سوتليه حينما كانت في الخامسة والسادسة، وكنت أتخلَّص من والدة جاسبر والجليسة السويسرية التي تشبه البقرة. كانت تسليني وتأسرني. هذا الكائن الصغير الغريب الذي لا يمكن الوصول إليه، حبيسة في حالتها المحايدة أخلاقيّا، السابقة لأي تعليم، بلا أي خبرة بالماضي أو المستقبل، حرة من كل قيد، في حالة من النعيم. كنت أود اختبار هذا الشعور. كنت أسألها بمكر وبسفسطة الكبار، مستعينة بفرويد ويونج، وقرون من الإدراك والرأي. وكانت تهرب مني، غير عابئة بي، مسلحة بقواها الخاصة في التهرُّب، بتقاليد الهنود الحمر، وبأساليب التخفي.

كلوديا وليزا. طولهما خمسة أقدام وثماني بوصات، وثلاثة أقدام وسبع

---

(23) نسبة إلى مؤسسها الملك مينوس. وهي من أقدم حضارات اليونان وأوروبا وتعود إلى العصر البرونزي. موطنها جزيرة كريت منذ بدأت في الألف السابع قبل الميلاد. أصبحت في ذروة شهرتها في الألف الثالث قبل الميلاد حتى الألف الأول قبل الميلاد.

بوصات؛ أربعة وأربعون عاما، وستة أعوام. تخوضان بين السنبل البري وشقائق النعمان وأوراق الشجر المتعفنة. تتردد أغاني الطيور بين الأشجار. يجر كلب عجوز من فصيلة لابرادور قدميه متثاقلا أمامهما، وهو يتشمم فطر عيش الغراب. تتخلل بقع من أشعة الشمس الأشجار لتستقر على الأقدام وعلى الأغصان وعلى الأذرع والسيقان، وعلى ظهر الكلب. تدندن كلوديا. فيما تجلس ليسا القرفصاء، من وقت لآخر، لتستخرج كائنات دقيقة من بين الشجيرات المتشابكة بأصابع صغيرة دقيقة.

تسأل كلوديا: «ماذا لديك هناك؟».

تجيب ليسا: «شيء ما».

تنحني كلوديا لتتفحصها: «هذا قمل الخشب».

تقول ليسا: «لديها أرجل».

تقول كلوديا مع رعدة خفيفة: «أجل. أرجل كثيرة. لا تسحقيها هكذا. سوف تؤذينها».

«لماذا لا تريدني أن أؤذيها؟».

تجاهد كلوديا، وهي تقطب جبينها، قائلة: «حسنا.. لا تحبين أن يؤذيك أحد، أليس كذلك؟».

تحملق ليسا في كلوديا ووجهها خالٍ من التعبير. تسقط قملة الخشب من يدها: «لديك عينان غريبتان».

تفقد ملامح كلوديا، التي كانت عيناها دوما ما تجتذبان تعليقات الإطراء، تعبيرها عن الاهتمام اللطيف.

تواصل ليسا: «فيهما ثقوب سوداء».

تقول كلوديا: «آه! هذه تسمى بؤبؤ العين. إنها لديك أنت أيضا».

تقول ليسا وهي تضحك بخفة: «لا، ليست عندي». تستمر في السير، أمام كلوديا مباشرة، فتضطر كلوديا لتعديل خطواتها حتى لا تتعثر

بها. تشعر كلوديا بإحساس غريب وكأنها في الموقف الأضعف، بسبب الخطوات القصيرة المتعبة التي كانت مجبرة على أن تخطوها، ولسبب آخر، أقل وضوحا. تتوقف عن الدندنة وتفكر في الأمر. لا تلبث أن تقول: «هل تذكرين حينما اصطحبتك إلى الشاطئ وذهبت للسباحة؟».

تجيب ليسا على الفور: «كلا».

تقول كلوديا بحدة: «بالطبع تذكرين. اشتريت لك حلقة مطاطية صفراء وجاروفا. كان ذلك الشهر الماضي».

«كان ذلك منذ زمن ليس بالبعيد إلى هذا الحد».

«إذا، فأنت تذكرين!».

تصمت ليسا. تلتفت لتنظر إلى كلوديا التي تلحظ أن عينيها منحرفتان بطريقة قبيحة.

«لا تفعلي ذلك. سوف تصابين بالحَوَل».

«إنني أشكل بملامحي وجها مضحكا».

«أرى هذا. إنه ليس وجها لطيفا».

يغرد طائر أبو الحناء تغريدا حادّا. ترتعش الغابة، وتهتز، وتتمايل من حولهما. نسمات صيف ديفون الدافئة تداعب وجهيهما وأطرافهما. يتبرز الكلب على بساط من الطحالب. تلحظ ليسا ذلك بلا تعليق. تجلس كلوديا على غصن شجرة سقط أرضا. تسألها ليسا: «لماذا تجلسين؟».

«ساقاي متعبتان».

تدعك ليسا بطة ساقها: «ساقاي ليستا متعبتين».

تقول كلوديا: «إنهما أقصر. ربما كان هذا هو السبب».

تمد ليسا ساقا للخارج وتتأملها. تراقبها كلوديا. ينام الكلب على بقعة من الحشائش وأنفه بين يديه الأماميتين. تقول ليسا: «ريكس لديه سيقان قصيرة أيضا. سيقان أكثر».

تقول كلوديا: «إذا كان لديه سيقان أكثر، فهل تعتقدين أنه متعب أكثر؟».

ترد ليسا على الفور: «لا أعرف. هل هو كذلك؟».

«لا أعرف أنا أيضا. ماذا تعتقدين أنت؟».

تقطف ليسا رؤوس مجموعة من زهور الحوذان، وتجمعها في كومة. تتجاهل كلوديا، التي تُخرج سيجارة وتُشعلها. يمتزج الدخان الذي تزفره كلوديا مع أشعة الشمس الصفراء، ويَعلَق هناك، كثافة ضبابية تتماوج في هواء الغابة الصافي. تنهض ليسا، وتخوض خلاله كي تصل إلى الكلب. تنثر رؤوس الحوذان على ظهره. لا يتحرك الكلب. تركع ليسا بجواره وتهمهم بشيء ما.

تقول كلوديا: «عم تتحدثين مع ريكس؟».

ترد ليسا ببرود: «لا شيء».

الأشجار تغني. وتصدر أيضا أصوات أزيز وهسهسة، وهناك عيون تحملق من جذوعها، أشكال لعيون كبيرة قاسية، يجب ألا تنظر إليها وإلا فقد تقفز الكائنات خارجها وتنقضّ عليك. أشباح وساحرات ورجال شيوخ مثل الشيخ العجوز الذي يكنس الشارع خارج منزل كلوديا في لندن. لو كان بوسعها أن تعدّ حتى عشرة قبل أن تصل إلى الشجرة، تلك الشجرة التي تصدر الأزيز والهسهسة وتراقبها، لو تمكنتْ من العد دون أن تخطئ فلن يصيبها شيء بأذى، وسوف تختفي العيون البشعة. تنجح في العد ويختفون.

كلوديا في الحقيقة هي أمي، لكنها لا تحب أن تكون أمي، لذا يجب أن أناديها كلوديا. جدتي هامبتون وجدتي برانسكوم تحبان كلتاهما أن تكونا جدّتين، لذا مسموح لي أن أناديهما «جدتي». «أمي» كلمة سخيفة، بينما كلوديا هو اسمي. «بينما» كلمة سخيفة؛ فأنت لا تنطقينها، بل تنفخينها. بينما، بينما. بينما كلوديا هو اسمي.

ليسا اسم أفضل. كلوديا يصدر ضجة عالية، مثل الناقوس في البهو في سوتليه. بوم - طاخ! اسم ليسا أصدر صوتا ناعما لطيفا، مثل الجداول أو المطر. ليسا. ليسا. لو أعدته مرارا وتكرارا لا تعودين أنت، ليس أنا ليسا، ذاتي، شخصيّا، بل كلمة لم أسمعها أبدا من قبل. ليسا. ليسا.

يخطر على بالها فجأة أن الشيء ذا الأرجل، الذي له علاقة بالخشب، قد يعضها. تلقيه أرضا بسرعة. كانت ستدهسه لتتأكد، ذلك الشيء البشع، لكن كلوديا تراقبها. عينا كلوديا فيها ثقوب سوداء تماما كالعين التي في الشجرة. وفي داخل كلوديا حيوانات مفترسة صغيرة قد تطل خارج تلك العينين، حيوانات صغيرة تعض، حيوانات صغيرة لها أسنان حادة.

تقف على أطراف أصابع قدميها لترى عيني كلوديا بصورة أفضل، وتنقلب ملامح كلوديا غضبا.

ذات مرة، منذ زمن ليس بالبعيد، ذهبت للشاطئ مع كلوديا. ذهبت للشاطئ في سيارة كلوديا. الأشجار على جانب الطريق تسارعت بجوار السيارة شا - شا - شا - شا، وانزلقت أسيجة الشجيرات، ثم ظهر الشاطئ والبحر يندفع نحوك، شديد الرطوبة وشديد العمق وشديد الاضطراب. جعلتك كلوديا ترتدين حلقة مطاطية صفراء وتذهبين بعيدا لمنطقة أعمق من طولك. قالت كلوديا: «كل شيء على ما يرام.. أنت بخير، أنا أمسك بك، لن أدعك تفلتين مني». ولا يوجد شيء أسفل منك سوى مياه، مياه عميقة عميقة بها أسماك، ولو أفلتتك كلوديا فسوف تغوصين في القاع. كان كل هذا منذ زمن بعيد. زمن بعيد للغاية.

سوف تفرد الزبدة على ظهر ريكس وتصنع منه شطيرة. شطيرة كلب. الزبدة أولا ثم المربى. التوت على تلك الشجيرة يمكن أن يكون المربى. لكن الزبد أولا.. الكثير والكثير من الزبد. لو لم تستمع إلى كلوديا، لو لم تجبها، فسوف تتوقف كلوديا عن إلقاء الأسئلة وستختفي. ووووششش!

وووششش تنفخ في الهواء، وستختفي كالسحر، كدخان سيجارتها، يتلاشى ويتلاشى، ويختفي في اللا شيء، في الفراغ. يمكنك أن تمشي خلال الدخان، الدخان الأصفر المشرق، تدفعه بعيدا بيديك، وتمشي خلاله مثلما تمشي خلال الماء.

سوف تسحر كلوديا حتى تختفي مثل الدخان. تخبر ريكس بأنها تسحر كلوديا.

ليسا تلك - ليسا تلك التي يُقيِّدها الجهل لكنه يحرِّرها في الوقت نفسه - ميتة الآن، تماما مثل الأصداف المتحجرة والرخويات، مثل الأشخاص الذين في الصور الملتقطة في العصر الفيكتوري، مثل مستوطني بليموث. ولا يمكن استعادتها حتى لليزا التي في الوقت الحاضر، التي يجب عليها أن تبحث مع بقيتنا عن تلك الذات البعيدة، تلك الذات الأخرى، ذلك الكائن المشاكس الفاني. ليسا الموجودة في الوقت الراهن سيدة مهمومة مشغولة على مشارف الأربعين من العمر، تحاول التعامل مع ابنَيْن مشاكسَيْن في سن المراهقة، وزوج يشار إليه بأنه وكيل عقاري محلي بارز. أما في نظري أنا، فهو مثال واضح للانحطاط البريطاني في الفترة ما بين عصر ماكميلان[24] وعصر ثاتشر[25]. لقد انحدرنا لهذا المستوى. هاري جيمسون له قبضة يد ضعيفة عند المصافحة، وله آراء ضعيفة متأثرة بجمعيات الروتاري المحلية وصحيفة «الديلي تيليجراف»، كما يمتلك منزلا مروِّعا على أطراف هينلي، فيه ملعب تنس، وحمام سباحة، وساحة مغطاة بالحصى، ويحاكي المنزل الريفي الذي يطمح لامتلاكه. لم أقضِ أكثر من ست ساعات بصحبته منذ الزفاف. دعني أقل هذا من باب الشفقة،

(24) هارولد ماكميلان: (1894 - 1986). رجل دولة بريطاني من حزب المحافظين وتسلم رئاسة الوزراء بين 1957 و1963. وقد عرف بالبراغماتية والذكاء ورباطة الجأش.

(25) مارغريت ثاتشر: (1925 - 2013) أول امرأة تتسلم منصب رئيسة وزراء بريطانيا في الفترة 1979 - 1990، وزعيمة حزب المحافظين بين 1975 و1990. لقبت بالمرأة الحديدية.

ومن باب الحفاظ على النفس أيضا: الرجل المسكين مرعوب مني. لا يكاد يراني حتى يتلعثم، وتلتمع جبهته بالعرق، ويداه اللتان تصبان الشراب وماء الصودا تفقدان السيطرة على مكعبات الثلج، تُسقِطان الكؤوس الزجاجية، وتنجرحان بسكين قطع الليمون. حينما أرغب في رؤية ليسا أصطحبها لتناول الغداء في لندن، ونترك هاري جيمسون لهدوء غداء الروتاري ونادي الجولف والحزب المحلي.

لماذا تزوجَتْه؟ آه! حقّا، لماذا؟ ها أنا ذي مجددا أفكر في القوى الغريبة التي تجمع بين شخصين، وتبقيهما مرتبطين على مر السنين. أعتقد أنه في هذه الحالة يكون الخطأ خطئي أنا بقدر ما هو خطأ أي شخص آخر. لو لم أكن مثل ما أنا عليه، لم تكن ليسا لتشعر بأنها مجبرة، وهي في التاسعة عشرة، على أن تتمسك بالزواج، بعالم خاص بها، وبأول شاب مناسب يتقدم لها.

بطبيعة الحال، حضرتُ حفل الزفاف. وكذلك فعل والدها.

تقف كلوديا وجها لوجه أمام جاسبر، وسط بقعة خالية هادئة، بينما يراقبهما باقي الضيوف بفضول.

تقول: «حسنا. ها أنت هنا».

«أنا هنا. وأنت هنا. تبدين بحالة جيدة للغاية، كلوديا».

هناك لمسات من الشيب بشعره. ما يزال له ذلك الأسلوب المميز والأشعث بعض الشيء في زيّه. بزة ثمينة بحاجة إلى الكي، وربطة عنق منحرفة، ورماد سجائر على كمه. تستنشق رائحته بعمق.

«سمعت أن لديك صديقة جديدة. وأنهن يزددن صغرا في السن طول الوقت. هذه علامة سيئة؛ كنتَ أرقى من قبل».

يتجاهل قولها هذا. يلوح بنظارته الطبية للغرفة: «مَنْ كل هؤلاء الناس؟».

تقول كلوديا: «صفوة شباب هينلي».

«علينا أن نختلط بالناس، على ما أعتقد».

«فلنختلط».

يبتسم، ابتسامته المثيرة الواثقة، وتشعر بنفسها تشتعل رغبة وغيظا.

يرى جاسبر كلوديا عبر الغرفة الممتلئة بأغراب لهم هيئات رثة. كلوديا في ثوب أحمر، بلا قبعة بين كل الأوشحة والريش، ومظهرها غير ملائم بطريقة رائعة. يتقدَّمان كل واحد تجاه الآخر. يقف متأملا إياها، يتذكرها ويستمتع بمرآها: «أرى كتابك الأخير منتشرا في كل مكان، كلوديا».

«آمل أن يكون كذلك».

«كيف حالك؟».

«بخير».

«هل هذا الشاب.. ملائم؟».

تقول كلوديا: «يبدو معقولا بما فيه الكفاية».

«ليسا تبدو رائعة».

«كلا، لا تبدو كذلك. تبدو باهتة، كالعادة، وهذا الفستان كارثة. إنه اختيار والدتك».

ينظر وراء كتفها، ويرى أمه تبتسم بشجاعة وتحيِّي الناس: «علينا أن نختلط بالناس».

تقول كلوديا: «فلنختلط». تنظر إليه، ويقرر فجأة أنه لن يعود إلى لندن الليلة.

«أتودين تناول الغداء معي؟».

ترد كلوديا بعنف: «مستحيل».

يهز كتفيه: «هل ينتظرك أحدهم؟».

«اهتم بشؤونك، جاسبر».

في تلك اللحظة صار ما كان مجرد نزوة عابرة ضرورة مُلِحَّة؛ يضع يده

على يدها ليأخذ منها كأسها. «دعيني أُحضِر لك مشروبا آخر، كلوديا».

وليزا المشدودة من التوتر لدرجةٍ تشعر معها بأنها ستنفجر خارجة من جسدها النحيل، ومن الثوب الحريري الرائع الذي طلبته الجدة برانسكوم من محلات هارودز. تراهما واقفين معا في منتصف الغرفة (والناس يحملقون بمكر..) وتنقلب معدتها. هل يتشاجران؟ إذا لم يكونا يتشاجران فقد يكون الأمر أسوأ. تعض شفتها ويخفق قلبها بقوة، ويخفت ألق اليوم. تتمنى لو لم يحضرا، لو أنهما رحلا، لو أنهما لم يوجدا. لم تهتم أمها بارتداء قبعة، ولا يرتدي والدها بدلة صباحية مثل والد هنري، بل بدلة عادية وحسب. لكنهما يبدوان على الرغم من ذلك أكثر إبهارا من الجميع، أكبر وأكثر تألقا وأكثر إثارة للاهتمام.

قضينا الليلة معا، جاسبر وأنا، في فندق في ميدنهيد. تشاجرنا على الإفطار، ولم نلتقِ ثانية لعامين بعدها. تماما كالأيام الخوالي. كانت علاقة جديرة بالاستحضار؛ كما كان الشجار كذلك. كان يتعلق بنشاط جاسبر الحالي بوصفه مسؤولا كبيرا في التلفزيون. كان هو القوة الدافعة وراء المسلسل الباذخ الذي أعيد بثّه مؤخرا، وقدَّم تاريخ الحرب الأخيرة بصورة درامية. تتبَّعت أحداث المسلسل شخصية خيالية لضابط شاب خلال مراحل مختلفة من الحرب، من البلقان إلى الشرق الأقصى، على خلفية مشاهد تاريخية يُعاد تمثيلها. مجلس حرب تشرشل[26]، الإنزال في نورماندي (يوم النصر)[27]، يالطا[28].. تلقى المشروع كثيرا من الإطراء

(26) ونستون تشرشل (1874 - 1965): سياسي وضابط وكاتب بريطاني. تولى رئاسة الوزراء في الفترة بين 1940 و1945، وكذلك 1951 إلى 1955. وقاد بريطانيا إلى النصر في الحرب العالمية الثانية.

(27) يوم النصر أو عملية الإنزال في النورماندي. استمرت المعركة من يونيو 1944 حتى أغسطس من العام نفسه. تم فيها إنزال 156 ألف جندي أمريكي وبريطاني وكندي على خمسة شواطئ على ساحل نورماندي الفرنسي. أدت إلى تحرير شمال فرنسا. وفي ربيع العام التالي حرر الحلفاء كل أوروبا الغربية من الاحتلال الألماني.

(28) منتجع على الساحل الجنوبي لشبه جزيرة القرم.. شهدت انعقاد مؤتمر باسمها بين 4 و11 فبراير 1945 حضره زعماء أمريكا وبريطانيا والاتحاد السوفييتي لمناقشة إعادة تنظيم الوضع في ألمانيا وأوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

والنقاش؛ كان رائدا، وتلته أعمال لامعة مكلفة كثيرة كانت تعيد بناء الماضي القريب بعناية. كان جاسبر يشعر برضى بالغ. كان يبحث عن إشادة منّي. قلت: «لقد كرهته بشدة». سألني: «لماذا؟»، أخبرته: «لأنه يقلّل من شأن الماضي، ويحوّله إلى تسلية». قال جاسبر: «أنت عنيدة ومتزمّتة كالعادة. مشكلتك أنك ليست لديك مرونة فكرية؛ هذه وسيلة جديدة». قلت: «إنها هكذا بالفعل، وإنها قد مكّنت أشخاصا مثله من جَنْي الكثير من المال من وراء معاناة الآخرين». رد جاسبر بعنف: «أنت تجنين العائدات من كتبك التي تدور حول الموضوعات نفسها». شرحتُ الفرق بين التاريخ بصفته تحليلا عقلانيًا والتاريخ بصفته مشاهد مسرحية. قال إن في كتبي بهرجة مبالغا فيها، وإنني أشعر بالغيرة. وتحدث في ذلك الفيلم عن كورتيز[29] بلا داعٍ. قلت: «الأمر يختلف. كنت مجرد متفرِّجة». تبادلنا الانتقادات عبر مفرش الطاولة الأبيض المنشّى في حانة منمقة على ضفة نهر، بينما انكمشت النادلات بجوار الحوائط. في النهاية، قال: «أعصابك مستثارة بطريقة سخيفة حول هذا الأمر، كلوديا. يبدو أنك تعتبرين هذا المسلسل إهانة شخصية. وعلى المرء أن يتساءل: لماذا؟». قمتُ، وخرجت. كان هذا تصرفا غبيّا.

تجلس كلوديا وحدها أمام التلفاز. الغرفة دافئة وهادئة، الستائر مُسدَلة تحبس المطر والحركة في الخارج، في يدها كأس من النبيذ، وقدماها مرفوعتان، وقد انتهى عمل اليوم. تُعرَض شارة البداية، وتبدأ الحكاية. إنها حكاية عامة، وخاصة معا. نرى البطل الشاب الذي استُدْعي في عام 1939 وهو يودِّع خطيبته ووالدته، يدخل الجيشُ الألماني فرنسا، ويتشاور تشرشل مع مستشاريه. وللحكاية أيضا، بعدان مختلفان. هناك الحكاية المكلِفة، بممثليها المهرة، والإنتاج المدروس، والاهتمام بالتفاصيل؛ بداية

(29) قائد إسباني هزم إمبراطورية الأزتيك وغزا المكسيك أوائل القرن السادس عشر.

من لمعة زيت الشعر على رأس البطل الشاب، حتى الانبعاجات في أوعية الشاي المعدنية التي تستخدمها مؤسسات الجيش البريطاني، وضجيج صوت محرك سيارة الجيب في الخلفية. وبين هذه المشاهد لقطات من فيلم، تبدو بالمقارنة وكأنها من صنع هواة، غريبة وغير حقيقية؛ مشاهد لبنادق تهتز، وجنود صامتين يركضون، وصفوف من الدبابات والشاحنات تندفع بأعداد كبيرة من ناحية في الشاشة وتخرج من الناحية الأخرى. الخيال مليء بألوان دافئة، للممثلين وجوه متورِّدة، وهناك حشائش خضراء وسماء زرقاء؛ بينما الواقع باللونين الأبيض والأسود، والجنود الشُّبان الذين يبتسمون ويلوحون على متن سفينة لهم وجوه بيضاء، والبحر أسود والصحراء رمادية. ترتشف كلوديا نبيذها وتشاهد باهتمام؛ تلحظ علبة سجائر بلايرز Players التي يخرجها البطل من جيب زيّه العسكري وزاوية ميل قبعة خطيبته التي تتخذ شكل صحن؛ رائحة الحنين اللزجة حبيسة هناك خلف زجاج الشاشة. تراقب صفًا أسود من الأسرى الإيطاليين يمشون بتثاقل عبر الصحراء الرمادية، ودخانا أسود يتصاعد من طائرة محترقة، ودخانا أبيض يتصاعد من مدفع دبابة.

الحكاية التي تشاهدها لها الآن بعد ثالث غير مميز، لكنه مع ذلك أوضح كثيرا. هذا البعد له رائحة وإحساس وملمس. له رائحة شريط طارد الناموس مون تايجر والكيروسين والروث والغبار. إحساسه حادٌّ للغاية لدرجة أن كلوديا تنهض وتغلق التلفاز، وتجلس محملقة في الشاشة الزجاجية الصماء، حيث تتتابع أحداث الحكاية.

«التاريخ»، بصق جاسبر عبارته عبر مائدة الإفطار في ميدنهيد: «هو في نهاية الأمر ملكية عامة».

أوه! إنه كذلك بالفعل. وهذه هي المشكلة، كما اكتشف الجمهور التعيس، قرنا بعد قرن. وبالطبع فإنه على صواب. علماء التاريخ يجنون

عوائدهم، فلم لا يفعل جاسبر ومَن هم على شاكلته مِثل ذلك؟ فقط البغيضات العنيدات المتزمِّتات مثيلاتي هن اللاتي سوف يُثِرن الجدل حول كون بعض الأمور ذات حرمة خاصة، وأننا حينما نحيل كل شيء إلى مجرد تسلية فسوف نكتشف في النهاية أن الأمر لم يكن مزحة على الإطلاق.

صار جاسبر ثريّا. كان ميسور الحال من قبل، لكنه الآن أصبح ثريّا. صار عضوا في مجالس إدارات شركات لإنتاج الأفلام، ومجالس إدارات بنوك تجارية، مستشارا لهذا ولذاك، مطلوبا في كل مكان ومحترما ومكروها، يتودَّدون إليه، ولا يثقون به.

نشرتُ كتابي عن تيتو[30]، نتاج خمس سنوات من العمل، وحصلت على الكثير من الاهتمام. كتب جاسبر: «مبروك يا عزيزتي. من كان بيته من زجاج..».

يكفي هذا عن جاسبر. ينبغي أن يكون واضحا الآن يتلاءم مع الكيفية التي ينبغي أن تنظم شؤون حياته من خلالها. حبيب في بداية الأمر، رفيق دائم في المناوشة، والد ابنتي. تتشابك حياتانا أحيانا، وتتباعدان أحيانا أخرى، وتتصلان على الدوام. لقد أحببته يوما ما، لكنني لا أستطيع أن أتذكر كيف كان ذلك الشعور.

كنت أتحدث من قبل عن اللغة. لقد وضعت ثقتي في اللغة، لذا أُصاب بالهلع حين تراوغني كلمة بسيطة، حينما أحملق في قطعة من القماش المزركش بالورود أمام نافذة ولا أعرف أي اسم أطلقه عليها. ستارة. أحمد الرب. أنا أتحكم في العالم طالما كان بإمكاني أن أطلق عليه الأسماء. ولهذا يجب على الأطفال تعقّب اللغة قبل أن يتمكنوا من فعل أي شيء آخر. «ما اسم هذا الشيء؟» اعتادت ليسا أن تسألني: «وهذا؟ وذاك؟».

(30) جوزيف بروز تيتو (1892 - 1980): عسكري ورجل دولة يوغسلافي من أصل كرواتي ترأس المقاومة ضد الاحتلال النازي في الحرب العالمية الثانية. وأصبح رئيس وزراء البلاد بين 1943 و1963، ومن ثم زعيم البلاد ورئيس الحزب الشيوعي حتى وفاته. اشتهر بكونه مؤسس حركة عدم الانحياز.

لم يكن الملاذ التقليدي من حب واهتمام أمومي هو ما استطعت تقديمه لليسا، بل عقلي وطاقتي. ولو لم تكن قد اكتسبَتْهما وراثيّا، فقد كنت مستعدة تمام الاستعداد لأن أعلمها كيف تفكر وتتصرف. لم أكن ماهرة في منح القبلات للتهوين من البكاء، أو في رواية قصص ما قبل النوم؛ أي أم بإمكانها أن تفعل ذلك: كانت فائدتي أهم بكثير.

كانت بمنزلة خيبة أمل لي. وكذلك كنتُ أنا، على ما أعتقد، بالنسبة إليها. كنت أبحث عن شخصيّتي البديلة، عن الطفلة المستفهِمة الثائرة المستقلة التي كُنْتها؛ وكانت ليسا تبحث عن شخص مطمئن، يتسوَّق لشراء الملابس، ويشرب الشيري مثل أمَّهات صديقاتها في المدرسة. كلما كبرت، شعرتُ أكثر وأكثر بنظرتها المحملقة الصامتة في كل مرة كنت أزورها في سوتليه، أو أصطحبها إلى بيمنستر لتبقى مع والدتي، أو أستضيفها في شقتي في لندن بضعة أيام. هناك، كانت تتجول بهيئتها الشاحبة الضئيلة، تقف في مداخل الأبواب، أو تجلس على أريكة. كنت أشتري لها الكتب. اصطحبتها للمتاحف والمعارض الفنية؛ حاولت أن أشجِّعها على أن يكون لها رأي وأن تكون فضولية. كبرت ليسا، صارت أطول، وصار عقلها أقل مرونة، وصارت مثل الآخرين. بدأت تصيبني بالملل، وشعرتُ باستيائها. لطالما أثرت استياء الناس طوال حياتي. عادة ما يخلف لدي الأمر شعورا بعدم الاكتراث، وأحيانا يُشعرني بالبهجة. لكن استياء الطفل مثير للقلق بطريقة غريبة. كنت أرفع رأسي عن مكتبي فأرى ليسا تتعلق بستارة، تقضم أظفارها وتحدِّق بي. جُمِّدت صورتها هذه في ذاكرة العقل، مرات عديدة، محفوظة في تلك الساعات التي تحويها حياة كلٍّ منا. ذكريات بالكاد نتشارك فيها. ساعاتي تختلف عن ساعات ليسا؛ بقدر اختلافي أنا عن ليسا.

«اذهبي واقرئي ذلك الكتاب الذي أعطيتك إياه». تقول كلوديا ذلك، وقلمها يتحرك جيئة وذهابا عبر الورقة.

«كنت أقرؤه».

«إذا..». تتوقف كلوديا، تتفحص ما كتبَتْه، وتفكر. ترفع رأسها وتنظر إلى ليسا. خيال صغير دخيل مشتِّت للانتباه بجوار النافذة: «لا تقضمي أظفارك هكذا، عزيزتي. ولا تجذبي الستارة».

تصمت ليسا. يسقط إصبعها من فمها، وتسقط يدها عن الستارة. بخلاف ذلك لا تتحرك.

تتناول كلوديا ورقة أخرى وتكتب.

«أرجوك يا ليسا، اذهبي وابحثي عن شيء تفعلينه. أنا مشغولة. عليَّ أن أتولى أمر هذه الرسائل. سنخرج لاحقا».

تقول ليسا، بعد دقيقة، أو دقيقتين: «لا أدري ماذا أفعل».

تقول كلوديا: لن أكرر هذا الأمر ثانية، في المرة القادمة سوف أستأجر فتاة من وكالة لتصحبها للحديقة، لحديقة الحيوان، أي شيء.. يحتاج المرء لعقلية معينة كي يتعامل مع الأطفال. وأنا أفتقد تلك العقلية، حمدا للرب.

أظفار كلوديا لها لون وردي. لون وردي زاهٍ، مثل حلوى الفئران المصنوعة من السكر. لو كانت لديك أظفار كهذه فستصبحين مثل كلوديا؛ وسيكون بوسعك أن تفعلي ما تشائين، وتقولي ما تشائين، وتذهبي حيث تشائين. ستكونين مشغولة.. مشغولة طوال الوقت.. تحادثين أصدقاءك في الهاتف، تدخلين وتخرجين ثانية لاحقا، وتقولين للبواب أن يحضر لنا التاكسي، ارتدي معطفك، أسرعي، أسرعي.

تقول جدتي: «لو قضمتِ أظفارك، فلن يرغب أحد بالزواج منك». لم يتزوج أحد كلوديا أبدا. قالت كلوديا إنها وجاسبر لم يتزوجا، لأنهما لم يتحابًا بدرجة كافية. لا بد من الحب بشدة قبل الزواج. لو كانت أظفارهم مقضومة فلن ترغبي بالزواج منهم حتى لو كنت تحبينهم. لا يمكنك طلاء أظفارك باللون الوردي حتى تكبري، وهذا الوقت لن يأتي أبدا. توجد على

تسريحة الزينة الخاصة بكلوديا زجاجات صغيرة بدرجات مختلفة من اللون الوردي؛ بلون زهور القرنفل الوردي، بلون الخدود المتوردة، بلونٍ وردي فاقع، وبلون أحمر هاواي. على تسريحة زينة جدتي زجاجة من ماء الكولونيا، وعلبة كريم بوندز، وفرشاة شعر، ومرآة لها يد فضية.

تقول كلوديا: «اذهبي وابحثي عن شيء تفعلينه». تصيح ليسا: «لا أستطيع. لا أستطيع. لا أستطيع. لا أدري أين أجده. لا أدري أين أبحث، وأريد أظفارا وردية مثلك، وأريد أن أصبح أنت لا أنا، وأريد أن أجعلك تنظرين إليَّ، وأريدك أن تقولي: ليسا كم أنت جميلة!».

الفصل الخامس

تقول: «أشعر بالظلم دائما، ألا تتفقان معي؟».

تتجمد الممرضتان، هما بعمر الحادية والعشرين والرابعة والعشرين، لوهلة بين حركاتهما الماهرة من دس وطي ورفع للأغطية.. تتبادلان نظرات خبيرة وسريعة. تقول الممرضة الشقراء: «يا إلهي! يا له من قول غريب! أتريدين الشاي أم القهوة، آنسة هامبتون؟».

تقول كلوديا: «بالله عليك! لا يمكنك أن تعملي في مكان كهذا من دون أن تكوني فكرتِ في الأمر. هل هي كذلك أم لا؟».

تقول الممرضة السمراء: «أوه! أنا لست متدينة، ولا حتى بنسبة ضئيلة. لكن أمي، على الرغم من ذلك، متدينة وترتاد كنيسة. شاي أم قهوة، عزيزتي؟».

تقول كلوديا: «حسنا، آمل أن تكون مدركة لما تفعله. شاي بلا سكّر».

لم أكن لأوافق أبدا على تعميد ليسا. لم يكن جاسبر ليهتم بالأمر على أي حال. دبرت الجدتان الأمر بتواطؤ ماكر دون أن تخبرا أحدا. قامتا بتهريبها سرّا لكاهن سوتليه (وأقامتا بعدها لبعض الأصدقاء القدامى حفل شاي صغيرا لطيفا، ولا شك). اكتشفتُ الأمر بالمصادفة بعدها بأشهر عدة، وهاجمتهما معا. قلت: «ما هذا؟ تحصين روحاني؟ بعض من تأمين الحياة البارع؟ ومَن طَلَب رأيي في الأمر؟». دافعتا عن نفسيهما وفق معتقداتهما وميولهما. قالت أمي: «لم نسألك لأننا نعلم أنك مشغولة. وكنا نعلم أنك لن ترغبي في الحضور». تنهدت الليدي برانسكوم، وقالت: «عزيزتي كلوديا.. كنا نعتقد فقط أن الأمر سيكون لطيفا. الصغيرة المسكينة؛ يريد

المرء أن يفعل كل ما بوسعه لأجلها. ولو لم نطلب من الكاهن ذلك لحزن كثيرا». سُجِّلت ليسا في كنيسة إنجلترا كي لا يستاء أحد، وحتى تستطيع الليدي برانسكوم إخراج ثوب التعميد الخاص بالأسرة، وطاقم الشاي «كراون ديربي» المصنوع من الصيني. قال جاسبر: «حسنا. لا ضير على ما أعتقد». أوه! لا، لا ضرر على الإطلاق؛ تماما كما ينتمي المرء لأكثر من نادٍ، فأنت لا تعلم أيها قد يكون مفيدا.

تقول كلوديا: «بالمناسبة، هل حدث يوما أنك تركتِ الكنيسة؟».

تنتفض ليسا، وتخفض الكتاب الذي كانت تقرؤه؛ ما زالت عينا والدتها مغمضتين، وما زال الأنف الرفيع المدبب موجَّها ناحية السقف، لكنها، على ما يبدو، ليست نائمة.

«أنت مستيقظة.. لم أكن أعرف».

تقول كلوديا: «آه! هل هذا ما أنا عليه حقًا؟ أحيانا أتساءل».

تغلق ليسا الكتاب. تنهض، وتفرد ثوبها، وتذهب لتقف وتنظر إلى كلوديا. يخطر على بالها أنها لم تنظر كثيرا إلى كلوديا من أعلى قبل ذلك. تسأل كلوديا إن كانت بحاجة لأي شيء. هل تنادي الممرضة؟

تقول كلوديا: «لا. أنا أرى ما يكفي من الممرضات. أنت لم تجيبي عن سؤالي بعد».

تقول ليسا: «لا أذهب إلى الكنيسة كثيرا، لو كان هذا هو ما تعنينه. في المناسبات فقط، في عيد الميلاد، والصلوات الخاصة في مدرسة الأولاد، هذا النوع من المناسبات».

تقول كلوديا: «لم يكن هذا هو ما أعنيه».

تتأمل ليسا وجه كلوديا، الذي صار بلون العاج الأصفر، وغارت عيناه في محجرين بلون البنفسج الداكن؛ أسفل الجلد المجعد، كان بإمكانها أن ترى عظام جمجمة كلوديا: «لست متأكدة مما إن كنت مؤمنة».

تقول كلوديا: «أوه! أنا متأكدة».

تُطِل ممرضة برأسها من الباب؛ الممرضة الشقراء ابنة الحادية والعشرين: «هل كل شيء على ما يرام؟».

تقول ليسا: «كل شيء بخير. أشكرك».

«إنها بحالة طيبة اليوم. فهي لطيفة وتتبادل الحديث».

يغلق الباب. تفتح كلوديا إحدى عينيها، تتأكد من رحيل الممرضة، وتحملق في السقف: «أخبريني ماذا كنت تفعلين؟».

تقول ليسا: «حسنا. كانت إجازة نصف العام للأولاد في نهاية الأسبوع الماضي، فاصطحبهم هنري لمشاهدة مباراة رجبي. وفي مساء السبت ذهبنا جميعا إلى المسرح، حضرنا عرض مسرحية الملك لير لفرقة شكسبير الملكية. كان عرضا جيدا للغاية. بعدها تناولنا العشاء في مطعم رولز، هدية بمناسبة عيد ميلاد تيم. ومممم.. دعينا نر..».

وبعد ظهيرة الإثنين زرت الرجل الذي صار له أربعة أعوام الآن وهو حبيبي، والذي لا تعلمين عنه شيئا ولن تعلمي عنه أبدا. ليس لأنك ستستنكرين الأمر، ولكن لأنك لن تستنكريه. ولأنني منذ كنت طفلة صغيرة وأنا أخفي أشياء عنك: زرًّا فضيًّا وجدته على الطريق، أحمر شفاه اختلسته من حقيبة يدك، أفكارا، مشاعر، آراء، نوايا، حبيبي. أنت لست، كما تعتقدين، عالمة بكل شيء. أنت لا تعرفين كل شيء، وبالتأكيد لا تعرفينني أنا. أنت تصدرين الأحكام وتقولين إنك لا تخطئين أبدا. أنا لا أجادلك؛ أنا فقط أراقبك، وأنا أعلم ما أعلمه. وأنا أعلم ما لا تعلمينه أنت.

حبيبي اسمه بول. لقد حكيت له عنك، وعن جاسبر؛ وإلى حد ما، بالقدر الذي يستطيعه أي إنسان آخر، فهو يتفهم الأمر. وهو يود أن يقابلك، من باب الفضول. ربما أحضره إلى هنا يوما ما، ليلقي نظرة، من

خلال الفتحة الزجاجية المستديرة في الباب. لن تستطيعي أنت رؤيته.

تقول كلوديا: «فلنُصَلِّ.. هه! صليت مرتين في حياتي، ولم تفدني الصلاة في شيء. ولم تفد أي أحد».

سوف يكون هناك مَن يأخذ دور البطولة في التاريخ الذي أكتبه. وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟ لو كان له وجود بالفعل، فهو مسؤول عن الرواية الرائعة المروِّعة بأكملها. ولو لم يكن له وجود، فإن مجرد فكرة وجوده شغل أكبر عدد من العقول، أكثر من أي شيء آخر، فهو يهيمن على المسرح.

سوف أتخذ أحد المباني مثالا. مبنى له شكل صليب، تم تأثيثه لغرض غير السكنى والدفاع. سوف أضاعف هذا المبنى بمقدار ألف، عشرة آلاف، مئة ألف. قد يكون صغيرا بحجم غرفة واحدة، أو قد يطاول عنان السماء. قد يكون قديما أو حديثا. قد يكون بسيطا أو باذخا. قد يكون من الحجر أو من الخشب، أو من الطوب أو الطين. هذا المبنى في قلب المدن وفي قلب الأماكن غير المتمدنة من الأرض. إنه على الجُزر وفي الصحارى وفوق الجبال. إنه في بروفينس، وفي سوفولك، وتوسكانا، وألزاس، وفي فيرمونت، وبوليفيا، وفي لبنان. جدران هذا المبنى وأثاثه تروي حكايات؛ تحكي عن ملوك وملكات. تُرشِد وتُهدِّد. الهدف منها أن تؤدي إلى السمو الروحي وأن تثير الرعب، فهي تجسيد ملموس لجدال.

وهكذا حدث ذات مرة أن ذهبت للصلاة؛ للركوع في كاتدرائية القديس جورج في القاهرة. كنت في الحادية والثلاثين.

تلج إلى الداخل، بعيدا عن الوهج والفوضى في الخارج، بعيدا عن الحرارة، وضجيج الترام والعربات التي تجرها الأحصنة، والناس والعربات والحيوانات، ورائحة القاهرة التي تفوح بالروث والكيروسين، إلى حيث الهدوء ورطوبة الجو النسبية داخل الكاتدرائية. ترتدي السيدات أثوابا من

الحرير والكريب، ويرتدين قفازات ويعتمرن قبعات، ويتبادلن الابتسام في هدوء. ضباط الجيش، رجال مغامرون ذوو بنية ضخمة وشوارب، يفرقع الجلد الذي يرتدونه وملابسهم ذات اللون الكاكي. يضعون قبعاتهم على المقاعد المجاورة، ويركعون للحظات بالركبة على الأرض، واليد أمام العينين. وحدها كلوديا، بسِرِّيَّة، وعلى مضض، وهي تشعر بالبؤس، تتخذ مجلسا في الخلف، في ظل أحد الأعمدة. تُبقي نظارتها الشمسية فوق عينيها، تَخَفٌّ جريء.

يلتزمون بشعائر الكنيسة الإنجليزية، ويُشكر الرب ويُتَضرَّع إليه ويُعبد. تُصدِر الكراسي أصوات احتكاك، وتصدر الأثواب حفيفا، وتصدر الأحذية صريرا على الأرض الحجرية. يزحف الذباب على الجلد المتعرِّق ويُضرَب بغتة. يطلب الأسقف من الرب حماية الجنود البريطانيين والبحّارة والطيَّارين، وتحقيق نصر سريع في الصحراء الغربية. «آمين..». تغمغم الرؤوس المحنية، أصوات ذكورية صارمة، وأصوات أنثوية صافية مهذبة.

ترفع كلوديا صلاتها الخاصة، صامتة وحيدة مرتبكة. تقول: «يا الله، لقد وصل بي الحال في بؤسي إلى هذه الدرجة. لم أعد أحتمل. لا تدعه يمت. لا تدعه يرقد وقد تفجرت أشلاؤه في الصحراء. لا تدعه يرقد هناك يتعفَّن تحت الشمس. وأكثر من أي شيء، لا تدعه يمت ببطء من جرَّاء العطش والإصابات، عاجزا عن النداء، وقد غفلت عنه وحدات الإسعاف. لو كان الأمر ضروريًا، دعه يكن أسيرا. يمكنني أن أتحمل ذلك. لكن أرجوك، أرجوك، لا تدعه يظل مفقودا ويُعتَقد أنه قُتِل».

«اغفر لنا آثامنا..».

يتردد صوت كلوديا الصامت: «حسنا إذا، حتى هذا أيضا. اغفر لي آثامي. لو كانت آثاما».

«حتى هذا. كل هذا. لو قمت بدورك».

تُجمَع تبرعات من أجل الأطفال في دار الأيتام القبطية في هليوبوليس، ويدعو المصلون مرة أخرى: «امنحنا النصر، يا رب، وأنر بصيرة أعدائنا..». ثم ينهضون. يخرجون من الكاتدرائية، الأثواب الحريرية والقطنية، والبزات النظامية، والبدلات الاستوائية، إلى الطريق الذي تصطف على جانبيه الأشجار على النيل. تمر كلوديا بسرعة من بينهم، دون أن تنظر إلى أحد، وتعبر الطريق حتى تكون وحدها. تسير نحو الجسر. تقف للحظات تحملق عبر النهر تجاه الجزيرة، للون الأخضر الرمادي لأشجار النخيل والكازارينا، للمياه المتلألئة، ولانحناء شراع سفينة صغيرة (فلوكة) أبيض.

تجلس ليسا وهي تراقب كلوديا التي قد تكون أو لا تكون نائمة. لا سبيل لمعرفة ذلك. عينا كلوديا مغمضتان، لكن شفتيها تتحركان مرة أو اثنتين. متى كانت كلوديا على هذه الحال؟ لا تتذكر ليسا أي مرض أو ضعف؛ يبدو الأمر وكأنك تشاهد شجرة مألوفة وقد قُطِعت. لا تُفكِّر ليسا في النتائج المحتملة، لأن عالما لا تكون فيه كلوديا لا يمكن تخيله. كلوديا موجودة فقط بكل بساطة، كانت هكذا على الدوام، وستظل كذلك.

تفكر ليسا في الحب. إنها تحب أبناءها. وبطريقة غريبة تحب زوجها. هل تحب كلوديا؟ هل تحبها كلوديا، بالأساس؟

هناك أسئلة لا يمكنها إجابتها، أو لا ترغب في إجابتها. فما بينها وبين كلوديا، في نهاية المطاف، هو أمر لا مفر منه. لا يمكن فعل شيء بخصوصه، ولم يكن هناك أبدا ما يمكن فعله قط. كانت تعرف ذلك منذ زمن، ببصيرة الطفولة القاسية.

قرأت ليسا كتب كلوديا؛ ستُفاجأ كلوديا لو علمت بالأمر. لدى ليسا، في مكان ما، ظرف بني اللون فيه صورتان أو ثلاث لكلوديا من قصاصات الصحف. هناك أيضا مقال مطوَّل عن كلوديا. عنوانه «لمحة مختصرة» وبه صورة جانبية لوجه لكلوديا، ليس وهو ضامر وأصفر كما هو الآن،

لكن وهو رقيق، وخلفه مُعلَّقة مخملية، وقد اتخذت وضعا أنيقا، وأضاء ملامحها مصوِّر ماهر. الكلام في الأسفل لا يطريها بمقدار الصورة: «كلوديا هامبتون تثير الجدل. وبوصفها عالمة تاريخ غير محترفة، فهي تجعل التاريخ متاحا بصورة أقرب لعامة الجماهير، ازدراها بعض الأكاديميين بشدة، بينما دحض البعض الآخر نظرياتها بغضب. الازدراء يثير حنقها». «لمجرد أنني كانت لديَّ الشجاعة لخوض الأمر بمفردي بدلا من الاكتفاء بوثيقة التأمين المريحة المتمثلة بالراتب الشهري الأكاديمي، يعتقدون أنه يحق لهم الاستعلاء». تستمتع بدحض النظريات، الأمر الذي يتيح لها فرصة الرد والقتال. «أعشق المعارك الكلامية. على أي حال، عادة ما أفوز». تستشهد بحجم مبيعات كتبها. «ومن الذي يقنع عامة الجمهور بقراءة التاريخ؟ أناس مثلي، وليس الأكاديميين أمثال إلتون وتريفور روبر». لكن، على الرغم من كل شيء، ورغم كل تحديها ذاك، فإن كلوديا هامبتون لديها بعض الجراح الأدبية؛ فكثيرا ما قام النقاد بإدانتها من خلال كلماتها الثرية التي - يجب القول - كثيرا ما تكون غير دقيقة ومليئة بالتناقضات. «تاريخ مصور بالألوان»، «الراوية الرومانسية لسيرة الحياة التاريخية»، «مواعظ من متعلمة ذاتيًا»؛ هذه هي اللغة التي استخدمها نقادها.

كانت نظرة ليسا إلى كل هذا نظرة محايدة. والحق أنها وجدت قراءة الكتب ممتعة أكثر مما كانت تتوقع. لكنها كانت على استعداد تام لأن تصدق أن بها عيوبا. فقد كانت تعرف كلوديا، على كل حال؛ كانت تعرف أن كلوديا يمكن أن تخطئ بشأن أشياء أساسية بسيطة. كانت كلوديا دوما مخطئة بشأن ليسا.

لم تتصور كلوديا أبدا أن تنفصل ليسا عنها. ليسا تنمحي في وجود كلوديا؛ لطالما كان هذا هو الوضع. حتى الآن، في غرفة المستشفى الغريبة الهادئة تجلس بحذر، تترقَّب حركة كلوديا التالية. كلوديا تضع حدا لليزا،

تثير فزعها، تمنعها من الحديث، أو، على الأقل، أي حديث قد يُعِيره الناس الانتباه، تجعلها تنكمش بوصة أو اثنتين، وتقلل من شأنها. ليسا الأخرى ليست هكذا. ليسا الأخرى، ليسا التي لا تعرفها كلوديا، إيجابية دون أن تفرض نفسها، وهي أجمل وأذكى، وطاهية ماهرة وأم مقتدرة، وزوجة ملائمة وإن لم تكن مثالية. تعرف الآن أنها تزوجت سريعا في سن صغيرة من شخص غير مناسب، لكنها وجدت وسائل تمكنها من التعايش مع الوضع. اكتشفت أيضا أنها تجيد التنظيم الماهر الهادئ للأمور. طوال السنوات الخمس الأخيرة، كانت تعمل سكرتيرة لا يمكن الاستغناء عنها في عيادة خاصة لجرّاح ماهر من الدرجة الأولى. وكان هذا هو الطريق الذي عرفت من خلاله حبيبها الذي كان طبيبا أيضا. وفي النهاية، يوما ما، حينما يكبر الأولاد، قد تتزوج ليسا من حبيبها، لو استطاعت أن تقنع نفسها بأن هاري سيكون على ما يرام، وأنه سيتخطى الأمر، ويجد لنفسه شخصا آخر.

الظلام يخيم في غرفة المستشفى؛ كان شتاء ما بعد الظهيرة يلف النوافذ. تنهض ليسا، تُشعِل الأنوار، تفكر في إغلاق الستائر، وتبدأ في جمع حاجياتها. وبينما تُدخِل ذراعها في معطفها، تفتح كلوديا عينيها.

تقول كلوديا: «لا تسيئي فهمي. عبادة الرب لا يعني أنني أعتقد أني سوف ألقاه قريبا. الموضوع برمته مجرد..».

يتقلص وجهها فجأة. تضغط شفتيها وتزمهما. تتحرك يدها عبر الغطاء. تقول ليسا: «هل أنت على ما يرام؟».

تقول كلوديا: «لا. لكن من منا كذلك؟».

تقف ليسا، وأحد ذراعيها داخل المعطف، ينتابها إحساس غريب. للحظة أو اثنتين لا يمكنها حتى أن تحدد كنه ذلك الشعور. تقف وهي تنظر إلى كلوديا. تعرف الآن ذلك الشعور. تشعر بالأسى من أجل

كلوديا؛ تنتابها الشفقة، مثل الجوع، أو المرض. كانت قد شعرت بالأسى من أجل أشخاص آخرين، بطبيعة الحال. لكن ليس حيال كلوديا أبدا. تضع يدها، للحظة، على ذراع كلوديا، وتقول: «يجب أن أرحل. سوف أحضر ثانية يوم الجمعة».

وأنا أنظر إلى ليسا الآن أرى شبح الكهولة على وجهها. هذا أمر مقلق. فأطفال المرء، بطبيعة الحال، يبقون صغارا للأبد. ربما فتاة، أو حتى شابة لكن تصلُّب الملامح هذا، وترهُّل الجسد، ذلك الإيحاء بأن ما مضى من عُمْر يقارب ما تبقى منه.. يا إلهي! لا. أنظر بدهشة إلى ربة المنزل تلك القادمة من الأقاليم، وأتساءل: «من تكون؟». ثم من خلال تينك العينين اللتين انتشرت حولهما شبكة من التجاعيد الرقيقة تحملق فيَّ أنا ابنة السنوات الثماني، والستة عشر عاما، وليزا التي مضى على زواجها عام واحد، ولديها رضيع متورّد يصرخ.

يزداد الأمر صعوبة على المرء حتى يصدق أن ليسا ربع روسية. هناك في مكان ما بالداخل، خلف تلك الهيئة البريطانية المحافظة المنتمية إلى الطبقة الوسطى، ببذلتها التي اشترتها من محلات ييجر، وقميصها الحريري ذي الوشاح العريض، وحذائها الأنيق اللامع، خلف كل ذلك يقبع أكثر أناس معذبين في تاريخ العالم. في مكان ما من روح ليسا، رغم أنها لا تعلم الكثير عن الأمر، ولا تكترث له، هناك همسات سانت بطرسبرج، والقرم، وبوشكين، وتورجينيف، والملايين من الفلاحين الصابرين، والشتاء القارس، والصيف الحارق، وأكثر اللغات التي نطق بها الإنسان روعة، والسَّماوَر[31]، والعربات التي تجرها الخيل، والوجوه الحزينة ذات الأعين اللوزية الداكنة لآلاف الأيقونات. أصل الإنسان يظهر في نهاية المطاف، أؤمن بذلك بشدة، لكن ليس بخوف مثل الليدي برانسكوم المسكينة

(31) وعاء معدني يستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي.

التي كانت تفعل أفضل ما في وسعها حتى تنسى أصل حفيدتها المشؤوم (وكان كل الذنب أيضا ذنبها هي، مسكينة إيزابيل، تتحمل للأبد وزر تلك النزوة الشبابية الباريسية). تحمل ليسا في روحها أمورا لا تدري عنها شيئا. أجد هذا الأمر مثيرا للاهتمام. بل أجده شيقا في واقع الأمر. أنظر إلى ليسا، وتعوي الذئاب عبر السهوب، وتسيل الدماء في معركة بورودينو[32]، وتتنهد إيرينا شوقا إلى موسكو. كلها أمور ثانوية، وكلها في العقل، المزج بين الواقع والخيال هو طريقتنا لمعرفة العالم. على الرغم من كل شيء، كان لليزا جد روسي، ولهذا دلالة.

يبدو والد جاسبر سببا ممتازا لثورة الروس: رجل يتسم باللامبالاة الأخلاقية التامة، لم يعمل يوما في حياته، وبدّد ثروة العائلة، أو ما تبقى منها مما خلَّفه والده، قبل أن يُتِم الثلاثين من العمر. قضى الفترة الأولى من حياته في باريس، وبادن - بادن، والبندقية، وكان يزور روسيا من وقت لآخر كي يبيع المزيد من الأرض أو قصر سانت بطرسبرج. بعد الطلاق عاش فقيرا بعض الشيء في الريفييرا، وكان يزيد من دخله قدر المستطاع بالقمار أو بالارتباط بسيدات ثريات. سرعان ما زال انبهار جاسبر به في فترة المراهقة المتأخرة؛ كان جاسبر ينوي أن يصير شخصا ناجحا؛ ساشا، الشخصية البوهيمية الساحرة في عيني التلميذ ذي الستة عشر عاما، صار الطالب الجامعي ذو العشرين عاما يراه بعينين مختلفتين، متسولا بائسا، غير مبهر سوى للوريثات الأمريكيات الساذجات، ومضيفات المجتمع الفرنسي الثانويات. بعد عام 1925، لم ير جاسبر والده إلا فيما ندر. أما أنا فقابلته مرة واحدة. كان ذلك في عام 1946. كان ساشا قد ظهر في لندن بعد أن قضى فترة الحرب في منتون في راحة قدر المستطاع. وقد تفادى

(32) معركة خاضها جيش نابليون ضد الجيش الروسي في سبتمبر 1812. شارك فيها 250 ألف جندي وسقط فيها 70 ألفا. وهي تمثل آخر محاولة روسية لوقف تقدم الفرنسيين نحو موسكو، لكنها لم تسفر عن انتصار الفرنسيين في النهاية.

الاعتقال بطريقة ما، وكان الآن يبحث عن مصادر للدخل وعن علاقات مفيدة، وكان ابنه الشهير يبدو له واعدا بعض الشيء. دعاه جاسبر إلى الغداء في النادي الذي ينتمي إليه، وطلب مني الانضمام إليهما. كان ساشا في السبعين من عمره، وكانت آثار السنين قد بدأت تظهر عليه: وجهه له ثنيات مجعدة، عيناه تالفتان وقد تدلى جفناه، وابتسامة ماكرة لشخص يحترف الغواية. قبّل يدي، وقال الأشياء التي كان يقولها لكل امرأة التقاها خلال خمسين عاما. وأصررتُ أنا بخبث على أن يجلس في أكثر الكراسي راحة، وسألتُ باهتمامٍ إذا كان الجو البارد يضايقه. عدّل ساشا، الذي لم يكن أحمق، أسلوبه إلى أسلوب شخصية الأب الشهم؛ دعاني «يا عزيزتي»، وأطرى نجاح جاسبر بتملُّق بالغ، ودعانا نحن الاثنين إلى فيلا الريفييرا. لا داعي لأن أقول إننا لم نذهب إلى الفيلا أبدا. كان جاسبر يشعر بأن والده مصدر للإحراج؛ ووجدته أنا غير مريح. لكنني ما زلت أستطيع أن أراه؛ بمعطفه الكشميري الذي حافظ عليه بعناية من فترة ما قبل الحرب، وبوشاحه الذي اشتراه من متجر إيرميس، ناجٍ من الحرب رث الهيئة، يمثل رماد طبقة وعصرا مضى. وبعد ذلك الغداء تشاجرتُ وجاسبر، مناوشة شيقة كانت مقدمة لمعاركنا اللاحقة الأكثر دموية.

يقول جاسبر: «إذا.. هذا هو، المحتال العجوز. هل كان كما توقعتِ؟». تبدو كلوديا متألقة في ثوب أخضر زمردي، تدخن سيجارة، وتجتذب الأنظار المتحفظة؛ يمسك بذراعها ليصدّ النظرات.

«إلى حدٍّ ما».

يقول جاسبر: أعطيتُه شيكا بمئة جنيه. دعينا نأمل أن يرحل في صمت، على الأقل عاما أو عامين».

تهمهم كلوديا.

«ماذا؟».

«لقد قلت: همممم». تنظر بلطف للأمام. ليس إلى جاسبر الذي يشعر بوخز غاضب لا يمكن لأحد سوى كلوديا أن يثيره. رعشة غاضبة لا يمكن فصلها عن الرغبة المتسللة التي امتزجت معه.

يتوقَّفان عند ناصية شارع سانت جيمس. تقول كلوديا: «لقد ورثتَ يديه، وشيئا من فمه».

«لا أظن ذلك».

تهز كلوديا كتفيها: «لا يمكنك تجاهل الوراثة».

يقول جاسبر وهو يخطو في الطريق: «أنا أصنع نفسي لأصير كما أنا.. هيا، يمكننا أن نعبر». كانت كلوديا قد تركت ذراعه لتُخرج شيئا من حقيبة يدها. يسير للأمام. تبقى كلوديا وراءه. تفصل بينهما السيارات وسيارات الأجرة. يتوقف جاسبر عند الرصيف المقابل. تعبر كلوديا الطريق، وهي تتمخط.

تقول: «بالإضافة إلى ما مُنِحْتَه. منحك ساشا ماضيا دراميًا للغاية. ألا تجد ذلك مثيرا للاهتمام؟».

«ليس على وجه الخصوص».

«ألا تثير ألف عام من التاريخ العنيف اهتمامك؟».

يتردد صوت كلوديا واضحا، ويصل إلى مسافات بعيدة. التفتت رؤوس تعتمر قبعات مستديرة.

يقول جاسبر: «لا يعنيني الأمر. وسلوكك مبالغ فيه».

تقول كلوديا، وهي تسير في شارع سانت جيمس، وتسبقه بخطوة أو خطوتين: «لا أفهم كيف يمكن أن تكون مسرفا في أنانيتك بحيث تضع نفسك بمعزل عن أسلافك لمجرد أنك ترى والدك غير ملائم».

يشعر جاسبر بالحرارة فجأة، رغم أنه يوم بارد في ديسمبر. يلحق بها: «تتحدثين بصوت مرتفع للغاية، لو لم يكن لديك مانع أن أذكر

هذا، كلوديا. ولو كان يجب علي أن أحمل على كاهلي روسيا كلها، فمن المفترض أنك تحملين عبء أجيال من مزارعي دورسيت الخاملين. لا يليق بك ذلك إطلاقا، عزيزتي».

تقول كلوديا: «أوه! لا أدري. ربما يكونون هم السبب وراء صفات قوة التحمل التي أتمتع بها». تبتسم بلطف لجاسبر الذي يتجهم.

«وما الذي تحملتِه؟».

«أكثر مما يمكنك أن تعرف أبدا».

يصارع جاسبر الذي عرف كلوديا منذ ثمانية أشهر وتسعة أيام مشاعره بعنف. تثير كلوديا جنونه؛ فهي أكثر النساء اللاتي قابلهن سحرا؛ يرغب في الاستغناء عنها بكل سرور؛ ولا يستطيع الانتظار حتى يلتقيها مرة أخرى.

تقول كلوديا: «شكرا على الغداء اللطيف».

لماذا عصفت رياح روسيا بأكملها في غرفة طعام نادي جاسبر ذات الجلد البني والستائر والأرضيات البنية؟ كيف يحمل هذا المتشرد المخادع المراوغ من مونت كارلو معه رائحة عطر أصيل، وصدى غريبا لزمان ومكان آخرين؟ تفكر كلوديا بالأمور التي لا يعرف الدجال العجوز شيئا عنها. ما الذي يعرفه عن التاريخ؟ أراهن أنه لم يقرأ أعمال تولستوي أبدا. المهم هو أنني قرأتها، بالطبع. ما يجلبه موجود في عقلي أنا، وليس في عقله. أليس هذا مثيرا للاهتمام؟ الزمان والكون يرقدان داخل عقولنا. نحن نشكِّل تواريخ للعالم في حالة سبات.

تقول: «في يوم من الأيام، سوف أؤلف كتابا طموحا للغاية. سأكتب تاريخ العالم».

لكن جاسبر كان قد قطع نصف الطريق عبر شارع سانت جيمس، وهو يسير أمامها بتعجرف. تتوقف عند الجزيرة التي تفصل بين مسارب الطريق، تتمخط، تفكر في غرور جاسبر وعناده وجسده القوي. تنضم إلى

جاسبر على الرصيف، وتُكمِل النقاش، وتجد الأمر مسليا لأن جاسبر بدأ ينزعج. لن يقبل جاسبر أي شيء يتعلق بالوراثة أو التنشئة، لأن جاسبر بالغ الأنانية، والأناني بالطبع يرى أنه قد صنع نفسه بنفسه، لا يريد أن يكون مدينا لأحد أو يستمد صفاته من أحد. إنجازاته تخصه وحده.

تقول: «شكرا على الغداء اللطيف».

«لا داعي للشكر».

«يجب أن أذهب. لدي أعمال كثيرة..».

«متى سأراك؟».

تقول كلوديا: «ممم.. اتصل بي..». إنها تتحدى المصير؛ لو أثارت غضب جاسبر بدرجة كافية، قد لا يتصل لمدة يوم أو يومين أو ثلاثة أيام أو أربعة، وسيكون هذا سيئا أوه! سيئا للغاية. لكن احترام الذات أهم من القلق؛ لن تسمح كلوديا لجاسبر أبدا أن يضعها في موقف ضعف.

يقول جاسبر: «العشاء غدا». عبارته تأكيد، وليست سؤالا.

تقول كلوديا: «ربما..».

الفصل السادس

لقد تقدَّمتُ في العمر مع تقدُّم القرن، ولم يبقَ الكثير لكلينا. قرن الحروب. التاريخ كله، بالطبع، هو تاريخ الحروب، لكن هذه المئة عام تفوَّقت على نفسها.

كم عدد الملايين الذين قتلوا وتشوَّهوا واحترقوا وتجمَّدوا وجاعوا وغرقوا؟ الله وحده يعلم. أنا على ثقة أنه يعلم.

كنت على هامش حربين؛ ولن أرى الحرب القادمة. لم تشغلني الأولى على الإطلاق؛ هذا الشيء الذي يطلق عليه اسم حرب استدعى والدي وأخذه منا للأبد. كنت أرى الأمر وكأنه تأثير مناخي لا مفرّ منه، عاصفة رعدية أو ثلجية. أما الحرب الثانية فقد تلقّفتني، لكنها لفظتني دون أن أصاب بأذى. دون أن أصاب بأذى بالمفهوم المادي للكلمة. لقد شهدتُ الحرب؛ وبهذا المعنى حضرتُ الحروب، وسمعت القنابل والبنادق، ولحظتُ آثارها. وبالرغم من ذلك، فإن ما أعرفه عن الحرب يبدو حيّا بصورة أكبر في العقل؛ حينما أسهر وأرتعد فإن ما يدور في العقل ليس هو الخبرة، ولكن المعرفة. هناك، لولا إرادة الله، لكنت سأذهب مع كل أولئك الملايين الذين أبيدوا بكل خفة: في معركة السوم، في فرنسا، ألمانيا، إسبانيا، البلقان، ليبيا، روسيا. في روسيا.. قبل كل شيء، في روسيا. كان يجب أن يموت ساشا هناك بكرامة وسط التاريخ، بدلا من أن يموت من السعال بسبب الالتهاب الشُّعَبي وانتفاخ الرئة في دار للمسنين بمونت كارلو. كان يجب أن يكون مجرد رقم. ساعتها كان يمكن للمرء أن يتجاوب معه. كان يجب

أن يكون رقما من تلك الأرقام التي تتجمد لها الدماء؛ من المليون قتيل في لينينجراد، من الثلاثة ملايين عامل من الرقيق من روسيا البيضاء وأوكرانيا، من المليوني أسير من كييف، من الربع مليون الذين أصيبوا بالتشوه من جراء لسعة الصقيع، من العشرين مليونا تقريبا، سواء ازدادوا أم نقصوا قليلا، من الرجال والنساء والأطفال الذين لم يعودوا مواطنين روسا، ولم يعودوا ينتمون لأي مكان بحلول عام 1945. كان يجب أن يكون ساشا رجلا عجوزا في سمولينسك أو مينسك أو فيازما أو جاسك أو جيف، يموت ببطء وسط الطبيعة المتجمدة، وقد استحال بيته أنقاضا والجحافل الألمانية تتقدم. كان يجب أن يكون تلك الهيئة المحنية المرتدية أسمالا وقد حملت صندوقا على ظهرها، وهي تمشي متثاقلة وسط الطبيعة التي ينيرها ضوء القمر في مورمانسك المدمَّرة عام 1942، التي رأيتها ذات مرة في صورة فوتوغرافية. كان يجب أن يكون ذلك الوجه الرمادي المجهول الآخر الخالد للأبد، الجاثم فوق جثتي زوجته وابنته اللتين أُطلِقت عليهما النار في سمولينسك أو مينسك أو فيازما أو جاسك أو جيف.

تبقى الحقيقة وتحيا من خلال هذه الكلمات. الثلج ودرجة الحرارة البالغة عشرين درجة تحت الصفر في شتاء عام 1941؛ الأسرى الروس الذين جُمِعوا في حظائر مفتوحة، وتُرِكوا حتى ماتوا من البرد أو الجوع. أفران ستالينجراد؛ الثلاثون مدينة المدمرة، السبعة ملايين حصان التي ذُبِحت، والسبعة عشر مليونا من المواشي، والعشرون مليون خنزير. ومن وراء الكلمات، الصور، هياكل المباني التي تقلصت بفعل النيران حتى صارت مداخن وجدرانا عارية؛ الأجساد التي لاكها الصقيع، الوجوه الصارخة للرجال الجرحى. هذا هو السجل؛ هذه هي خلاصة التاريخ في نهاية الأمر؛ هذه هي لغة الحرب.

ليست تلك اللغة الأخرى، تلك اللغة المجنونة التي تصنع ستار دخان من الوهم، اللغة المخبولة التي يتحدث بها الجنرالات والساسة: عملية باربا روسا، بكل إيحاءاتها التي تذكرنا بفاجنر؛ عمليات زهرة اللبن الثلجية، وزهرة الياقوتية وزهرة النرجس وزهرة التوليب تتراقص نحو طبرق في طريقها إلى الموت. تلك هي اللغة التي اعتدت سماعها في القاهرة، على شفاه مغامري الجيش الثامن[33]، الحديث المقتضب عن أسماء النسوة والحبيبات، تمويه على استحياء للدلالة على أطنان عدة من المعدن المتحرك الذي يوزع الموت، والكناية اللطيفة التي من خلالها لا تنفجر تلك الأشياء عند استهدافها (وتشوي طاقمها وهم أحياء) لكنها كانت «تتخمر». كان الأمر نزهة، بالطبع، ولم يكن الرجال يموتون، ولكن «ينفد رصيدهم»، ولم يكونوا يلقون حتفهم من الطلقات النارية، بل كانوا «يوقفون الرصاص». لا تتضح غرابة الأمر للمرء إلا مع الإدراك المتأخر للأمور. بدا الأمر طبيعيًا في حينه، بل حتى مقبولا. كانت الكلمات هي مهنتي، لكن لم يكن ذلك هو الوقت الملائم للتحليل الدقيق لمضمونها، أو لذلك النوع من التحليل على الأقل. البيانات الرسمية من مركز القيادة العامة.. البيانات الموجزة من الملحق الصحافي.. تقاريري أنا المكتوبة على الآلة الكاتبة المحمولة التي ما زلت أحتفظ بها. كانت هذه هي الكلمات التي أتعامل معها، لغة تبدو الآن وكأنها تحجَّرت، حلت محلها مصطلحات جديدة، وتمويه جديد. لقد عشت بعد هذا في عالم التدمير والقتل المفرط، وقدرة الضربة الثانية للرد على الهجوم النووي، والقدرة السلبية؛ سيناريوهات الحروب القادمة، أو ربما حرب النهاية، تسبقها الكلمات المشفرة التي تشتت الانتباه.

الكلام يتجدد مثل الطبيعة؛ تموت كلمات وتولد أخرى، تماما كما تختفي أبنية لتحل محلها أخرى، وكما ذَرَت الريح الرمال لتغطي مخلَّفات الحرب.

(33) تشكيل ميداني من الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية، قاتل ضمن الحملات على شمال أفريقيا وإيطاليا.

زرتُ القاهرة بعد سنوات الحرب، وبدا هذا الزمن وكأنه يلتمع كسراب يغطي الحاضر. كانت فنادق هيلتون وشيراتون واقعية بما يكفي، والمدينة المزدحمة ذات المباني العشوائية والألوان الداكنة الكالحة والزحام المروري الذي يصم الآذان، لكن في عقلي كان هناك ذلك المكان الآخر الحاضر بقوة، وصوت طقطقة حوافر حمار بسنابكه، وطيور الحدأ تحلق في سماء زرقاء كالبورسلين، وبهجة الخط العربي ذي الطابع الباروكي.

لم يعد المكان على حاله، لكن الإحساس كان هو الإحساس القديم نفسه؛ تلبَّستني الأحاسيس وغيَّرتني. وقفتُ خارج برج سكني من الإسمنت والزجاج، قطفتُ ملء يدي من أوراق شجر الكينا من أحد الأغصان، سحقتها بكفي، شممتها، وامتلأت عيناي بالدموع. كلوديا ذات السبعة والستين عاما، على رصيف مزدحم بالسيدات الأمريكيات، تبكي، ليس حزنا، لكن تعجبا من أنه لا شيء يضيع أبدا، وأن كل شيء يمكن استعادته، وأن حياة المرء ليست ذات بعد واحد، ولكنها آنية وسريعة. وأن كل شيء يحدث داخل العقل في الوقت نفسه.

شرفة فندق شيبرد مزدحمة. ما من طاولة خالية، وحول كل طاولة تزدحم ثلاث كراسٍ أو أربع أو خمس. كل طاولة عليها مجموعة؛ الضجيج مزيج من اللغات المختلفة. يشق النُّدُل طريقهم بين الطاولات بصواني المشروبات، وتمشي كلوديا بينهم. تتأنَّى، وتتجاهل عبارات الإطراء من رجلين ثملين من جنوب إفريقيا، وحملقة ضابط من الجيش الفرنسي الحر، ودعوات للانضمام لصديق هنا أو مجموعة معارف هناك. إنها تعرف العديد من هؤلاء الناس؛ أما الباقون فتتحدد لها هويتهم من زيِّهم ولغتهم. يرتدي كل منهم ما يدل على مهنته وجنسيته وعقيدته. تقول لنفسها: هذا يشبه القرون الوسطى، لِمَ لمْ أفكر بهذا الأمر من قبل؟ تلحظ الشارة الذهبية التي تزين كُمَّ ضابط بحرية، والقبعة ذات الشريط

الأحمر التي وضعها عميد على ركبته، والطرابيش الحمراء التي تتشاور فيما بينها على طاولة أخرى. هذا مشهد من القرون الوسطى محدَّث في سياق مدينة في عام 1941. عالم منظَّم بحيث يمكنك أن تعرف شخصية كل فرد. هاتان سيدتان من اليهود السفارديم، وهذا ضابط من السيخ، وهناك مجموعة من ثلاثة أشخاص من المقاطعات المحيطة بلندن. ذلك الرجل يعرف كيف يحلِّق بطائرة، وهذا مدرَّب على قيادة الدبابات، وهذه الفتاة تعرف كيف تُضمِّد جرحا. وهناك، لو لم أكن مخطئة، الشاب الذي ربما يمكنه أن يحتال على الأمر حتى أحصل على مكان في وسيلة مواصلات تنقلني للجبهة، لو أنني لعبت أوراقي بطريقة صحيحة.

تبتسم. تلك الابتسامة اللامعة ذات أحمر الشفاه الشائعة في تلك الأيام. تقترب من طاولته، بهيئتها الأنيقة وهي ترتدي ثوبا من الكتان الأبيض، وشعرها النحاسي الزاهي، وتنتعل صندلا أحمر بكعب عالٍ، وساقاها مكشوفتان وقد اسمرَّتا من الشمس. ينهض، يسحب لها كرسيّا، ويفرقع بأصابعه تجاه النادل.

ينظر بإعجاب إلى ساقيها وشعرها وزيها غير المعتاد من المراسِلات الصحافيات.

على الأقل افترضتُ أن هذا هو ما كان يفعله. فقد حاول لاحقا أن يصطحبني إلى مخدعه، ثمنا لمكان في طائرة نقل ذاهبة إلى الصحراء في اليوم التالي. لم أدفع الثمن، أو ليس بالضبط، لكنني حصلت على المقعد. ليست لديَّ أدنى فكرة ماذا كان اسمه. أرى، دون وضوح، شنبا أحمر، وذلك الوجه الداكن السمرة الذي لوحته الشمس، التي فعلت ذلك بالجميع. لم تكن له أهمية، مجرد شاب في سلاح المدفعية كان له بعض النفوذ في أمور النقل، لكنه كان واحدا من الأشخاص الذين يعتمد عليهم، العامل الذي لولاه لما ذهبت إلى برقة، ولما كنت في الشاحنة التي تعطلت، ولما

أنقذني في مكان ناءٍ ومعزول ضابطان في سيارة جيب كان هو أحدهما..

ما كنت لأجلس في سعادة فائقة في شرفة فندق الوينتر بالاس في الأقصر، وما كنت لأرقد في بؤس على سرير مستشفى في الجزيرة. وباختصار، ما كنت لأصبح ما أنا عليه الآن. ولا يمكن حتى لأكثر علماء التاريخ استقلالية، أنا ربما، أن ينكر أن الماضي يرتكز على بعض الحقائق الأساسية التي لا تقبل الجدل. كذلك الحياة؛ لها جوهرها، نقطة مركزها.

نصل الآن إلى هذا المركز.

وصلتُ إلى مصر وحدي عام 1940؛ وكنت وحدي حينما غادرتُها عام 1944. كلما أنظر إلى الوراء وأتذكر تلك السنوات، أتذكرها وحدي. ما حدث هناك يحدث الآن فقط داخل رأسي، لا أحد آخر يرى الطبيعة نفسها، أو يسمع الأصوات نفسها، أو يعرف تسلسل الأحداث. هناك صوت آخر، لكنه صوت أسمعه أنا وحدي. أدلتي، أدلتنا، هي الدليل الوحيد، أو الدليل الخاص الوحيد بالأحرى. فيما يتعلق بالأمور العامة، التاريخ، هناك الكثير من الأدلة. معظمها منشور الآن؛ كل تلك الحكايات عن أي جنرال أبلى أفضل من غيره، ومَن كانت لديه عدد من الدبابات، ومَن تقدَّم في أي مكان ومتى ولماذا. لقد قرأتُها جميعا؛ يبدو أنه ليست لها أي علاقة بأي شيء مما أتذكره. من وقت لآخر، أعاني لأتذكر بعض الحقائق، اسما أو تاريخا، التي لا يبدو أن لها أهمية في الغالب. وهذا بالطبع تعليق غريب من شخص قام بنفسه بتأليف هذا النوع من الكتب. كنت معنية بأهمية الأسماء والتواريخ في ذلك الوقت، فقد كان عليَّ الحصول على موضوع أقدِّمه. لو لم أتابع الأحداث، وأعرف ما الذي يدور، وأضع نفسي في موقعٍ يمكنني من خلاله متابعة ما يجري، لو أمكن ذلك، فلن يكون لدي موضوع أقدِّمه. برقية لاذعة من لندن كان بإمكانها أن تنهي مبرراتي للبقاء في الشرق الأوسط. لكن لا يبدو أيٌّ من ذلك مهمّا؛ لقد ذاب مثل

لغة تلك الأيام، أو مثل عمارات القاهرة القديمة ذات الشرفات الباروكية التي حلت محلها المباني الإدارية والأبراج السياحية.

قال غوردون إنني لن أنجح أبدا بصفتي مراسلة حربية. كان ذلك أدعى، بالطبع، لأن أنجح. كما أشار، لم أكن في ظاهر الأمر مؤهلة. كان عليَّ أن أبذل جهدا كما لم أبذل من قبل. لجأتُ إلى كل واسطة أعرفها، ذهبت لرؤية كل شخص أعرفه يمكنه مدّ يد العون لي، وفي نهاية المطاف عُيِّنت مراسلة صحافية محلية لصحيفة تصدر يوم الأحد، ومراسلة لصحيفة أخرى أسبوعية. كان عليَّ أن أكافح، ولم تكن أي من الصحيفتين تدفع لي أجرا يكفيني. كان عليَّ أن أنفق من مدَّخراتي، المدخرات التي ورثتها من إحدى جدتَيَّ، كي يكون لديَّ ما يكفيني للعيش في القاهرة.

وكنت دوما أعاني، مع المحررين في لندن، ومع زملائي من الرجال في مجموعة الصحافيين. كانت أهميتي بقدر أهمية ما أرسله. وكان ما أرسله جيدا. بالطبع، كنت أحرص على إرسال الصحف إلى غوردون؛ كي أقول: أرأيت؟ لقد أخبرتك.. كانت تصله متأخرة بعد صدورها ببضعة أشهر، وهو يتدرب في أرض بور في إسكتلندا، وبعد ذلك في الهند، وكان يرد بعدها ببضعة أشهر أيضا، وكأن المرء يجري محادثة بها فجوة زمنية، ويقوم بتصحيح ما يراه أخطاء في الأسلوب. استمررنا في الجدال، بطريقة ودية بما فيه الكفاية، عبر القارات. لم أره لأكثر من أربع سنوات، ولما التقيته بعدها كان كل منا قد صار شخصا مختلفا. التقينا على رصيف قطار في فيكتوريا، وقال: «يا إلهي! لقد صبغتِ شعرك! لم تكن لديَّ أدنى فكرة أنه أحمر لهذا الحد. كنت أظنه بنّيًا نوعا ما». لم نتبادل القبلات؛ وقفنا نحملق ببعضنا. قلت: «لماذا لديك تلك العلامة على وجنتك؟».. «أُصبتُ بمرض جلدي مقزز في دلهي. إصابة الحرب الخاصة بي. أين إصابتك أنت؟» لم أرد.

كان غوردون في الاستخبارات، بطبيعة الحال. قضى معظم فترة الحرب في مكتب، مع زيارات متباعدة لبعض الأماكن غير الصحية. حكى كل منا للآخر ما رآه ملائما عن تلك السنوات. ذات مرة قال غوردون: «قابلتُ رجلا كان يعرفك في مصر. يتذكر أنه التقاك في فندق في الأقصر. تناول شرابا معك ومع صديق مجهول لك». قلت: «لا بد أن ذلك كان الوينتر بالاس، على ما أعتقد». «ومن كان صديقك؟ كان هناك نحو مئتي ألف أو ثلاثمئة ألف من رجال القوات المسلحة متمركزين في القاهرة وما حولها في تلك الفترة». قلت: «انتقِ منهم من تشاء».

كان، بالتأكيد، الوينتر بالاس. لا أعتقد أنه كانت هناك أي فنادق أخرى. وصلنا على متن القطار الليلي القادم من القاهرة والذي كانت كل عربات النوم فيه محجوزة. لذا كان علينا الجلوس ونحن نهتز طوال تلك الليلة الحارة متكدسين وقد تلاصقت أفخاذنا. تشاركنا في مقصورة مع مجموعة من الممرضات اللاتي كن في إجازة من المستشفى العسكري في هليوبوليس، وكاهن ظل يحاول أن يبدأ لعب الورق. في النهاية خلدوا جميعا إلى النوم، ولما بزغ الفجر، ذلك الفجر الصحراوي المشرق نصف الشفَّاف، كنا وحدنا مستيقظَيْن، وشاهدنا صف التلال على الجانب الآخر من النيل يتحول من اللون الوردي إلى لون العنبر، والمياه تتحول إلى زرقة الياقوت. كانت هناك أسراب من البلشون الأبيض ومالك الحزين تجلس محنية على الأشجار التي بجوار الشاطئ، وطائر أبو منجل أسود يقف كتمثال على الشاطئ الرملي. كانت الحقول في المساحة المزروعة بين النهر والصحراء زاهية بخضرة البرسيم أو أعواد قصب السكر الطويلة السميكة، وكانت تضج بالحياة. كان هناك فلاحون مكشوفو السيقان وقد عقدوا جلابيبهم بين سيقانهم، وأطفال صغار في أثواب زاهية قرمزية وحمراء وليمونية، وصفوف من الجِمال والحمير والجواميس. وبدا

المكان بأكمله وكأنه يتحرك برقَّة، النخيل الرمادي المخضر بسعفه الشبيه بالريش وجذوعه المحنية الشبيهة بجلد الثعبان يهتز ويتمايل مع الرياح الصحراوية الخفيفة. جلسنا وأيدينا متشابكة نحملق من النافذة، وكان الأمر وكأننا نشاهد لوحة. لوحة لبروغل ربما. واحدة من تلك اللوحات المعقدة الغنية بالمعلومات، والمليئة بالتفاصيل، لأناس يفعلون أشياء محددة، وكلب يرفع ساقه، وقطة تجلس في الشمس، وطفل يلهو، تلك اللوحات التي تشعر معها بأنك تنظر إلى لحظة مجمدة من الزمن.

قلت: «من الأشياء التي لا يفعلها المرء أبدا أن يلحظ هذا المكان، ويراه على ما هو عليه. بالنسبة إلينا، لم يكن سوى خلفية للأحداث. إنه بلد جميل. ونحن لا نراه».

قال: «سوف نراه دائما».

وصلنا إلى الأقصر، وشققنا طريقنا خارج المحطة بين الترجمان، وباعة الجعارين الفرعونية (الخنافس)، ورؤوس رمسيس الثاني المصنوعة من البازلت الأسود، ومذبّات الذباب، والقوادين الذين يبيع بعضهم شقيقات بعض، وحجزنا غرفة في فندق وينتر بالاس. ظللنا هناك حتى ما بعد الظهيرة. رقدنا سويا، وشمس منتصف النهار تخترق مصراعي النافذة على شكل خطوط. استمتعنا بوقتنا أكثر مما كنت أظنه ممكنا. كانت لديه إجازة لمدة خمسة أيام. علمت بالأمر حينما سمعت صوته عبر الهاتف يسألني إن كنت سأترك العمل لنتمتع بعطلة نهاية أسبوع طويلة. كان على الجبهة، وسيعود إلى هناك في الأسبوع المقبل، أو إلى حيث تكون الجبهة في ذلك الحين، تلك الفوضى غير المحددة من حقول الألغام وتشكيلات المركبات وسط الرمال الخالية المحايدة. وصفها لي ذات مرة كأنها حرب تدور رحاها في البحر، لا على الأرض، سلسلة من حركات التقدم والتراجع يتعامل الطرفان المشاركان فيها مع بعضهما فقط،

وبالكاد مع الطبيعة التي يتحركان عبرها. حرب لا يعترض سبيلها شيء، لا مدن ولا قرى ولا ناس، ولا شيء ملموسا تكسبه أو تخسره. حرب تخوضها للسيطرة على سلسلة تلال صخرية بالكاد يمكنك أن تلحظها، أو موقع على خريطة. حرب شارك فيها فجأة مئات الآلاف من الرجال، حيث لم يكن هناك شيء من قبل، لكن برغم ذلك يظل المكان خاليا. تحدَّث عن الصحراء، ووصفها بأنها مثل لوحة للعبة ما، يناور فيها الطرفان الخصمان من مربع إلى آخر. استخدمتُ التشبيه في برقية أرسلتُها ونلت الثناء من مكتب لندن، فأخبرته أنه كان عليَّ أن أنسب له الفضل. قال إنه سينتظر ذلك بعد أن تنتهي الحرب.

في نهاية المطاف، قمنا عند حلول الظلام وارتدينا ملابسنا، وذهبنا لتناول شراب على الشرفة المطلة على النيل. ربما كانت تلك هي اللحظة التي تحدثت فيها إلى الرجل الذي يعرفه غوردون. لو كان الأمر كذلك، فقد نسيته الآن؛ كل ما يبقى هو كتف التل الأسمر المنخفض الممتد فوق وادي الملوك والشمس تغرب خلفه في وهج من اللون الذهبي والوردي والأزرق المائل إلى الخضرة. والأصوات اللطيفة للأمسيات في مصر، من رنين مكعبات الثلج في الأكواب، وطقطقة نعال النُّدُل على الأرضية الحجرية لشرفة الفندق، وطنين الأصوات، والضحك؛ أصوات مئات الأمسيات الأخرى، في نادي الجزيرة الرياضي، ونادي تورف، وفندق شيبرد. لكن ذلك المساء، أو الذي يليه والذي يليه، متقوقع في داخل عقلي. أعرف أنني جلست على كرسي من الخيزران، وانطبع نقش الخيزران على جسدي من خلال ثوبي المصنوع من القطن، وأنا أنظر للنهر وأشرعة مراكب الفلوكة البيضاء المتطايرة، وسماء الغروب التي لم تلبث أن التمعت فيها نجوم الصحراء الفائقة التألق. أعرف كيف كنت أشعر؛ أكثر ثراء، أكثر سعادة، وأكثر حيوية مما كنت عليه في أي وقت

قبل ذلك أو منذ ذلك الحين. المشاعر هي التي تبقى؛ المشاعر والمكان. ليس ثمة الآن تعاقب لتلك الأيام، ولا ترتيب زمني، لا يمكنني القول متى ذهبنا إلى الكرنك، إلى تمثالَي ممنون، إلى المقابر، كل ذلك يتزامن بعضه مع بعض. إنه وقت من الزمن آني ومجمد معا، مثل مشهد قروي في لوحة لبروغل، مثل جدران المعابد التي يطير ويسبح ويمشي عليها الإوز والبط والأسماك والماشية نفسها التي تعيش في النيل وعليه وبجانبه اليوم.

يقول المرشد، وهو يشير بيده: «الفرعون، انظروا إلى الفرعون وهو يقدم الأضاحي للأرباب والربات. انظروا إلى مفتاح الحياة المقدس. انظروا إلى زوجة الفرعون. زوجة الفرعون أيضا أخت الفرعون. هو يحب أخته».

يسري ضجيج خافت من الإثارة. الحرارة مروِّعة والمقبرة خانقة. يقول كاهن الجيش: «هذه العلاقات غير الشرعية كانت أمرا مقبولا إلى حد بعيد في تلك الأيام، على ما يبدو». تعلن الفتاتان المنتميتان للفرع النسائي من الجيش البريطاني أنهما ستموتان لو بقيتا في الداخل لوقت أطول. يقول الكاهن: «حسنا، مصطفى، هيا بنا نمضي قدما، أيمكننا ذلك؟». تمشي المجموعة الصغيرة بتثاقل على الرمال خلال العتمة التي تضيئها المشاعل.

تتلكأ كلوديا. تنظر إلى قوام الفرعون الشاب الوسيم، وإلى رفيقته الرشيقة ذات العينين المائلتين والصدر النافر.

يقول توم: «زوجان وسيمان».

«أجل».

ينزلق شعاع كشاف توم على مجموعة من الثيران، عبيد يحملون غزلانا نافقة، وسرب من البط ينطلق من وسط غور من القصب.

تقول كلوديا: «دعنا نشاهدهم مرة أخرى». يتحرك شعاع الكشاف سريعا ويتأرجح. «إنها جميلة. هل أختك جميلة؟».

«جينيفر؟ يا إلهي لم أفكر في الأمر من قبل. أجل، أعتقد أنها كذلك». يضحك. «لكنني لن أفكر فيها بهذه الطريقة الجائرة».

يحيطها بذراعه. ويصيح المرشد من نقطة أبعد في ممر المقبرة المظلم: «أرجو أن.. تعالا.. سيدتي وسيدي.. تعالا من فضلكما الآن».

تستمر كلوديا في التحديق في القوامين المتألقين، شباب للأبد، إلى جانب بعضهما للأبد.

يسأل: «فيم تفكرين؟».

«ممم.. لا شيء».

بدا خلال العام أو نحو ذلك من الوقت الذي قضيته هناك، أن ذلك البلد كان مجرد خلفية للأحداث. رُميتُ وسط حرارة المكان وأتربته وروائحه الذي صارت مجرد طرف تصادَف وجوده إلى جوار أمر الحرب الملحّ الأكثر أهمية. في مثل هذه الظروف أنت تتعلم التكيف مع الوضع، ومع المشاق والعوائق والمخاطر، ويستمر في القيام بالأمور المهمة. كان الجيش البريطاني يفرض وجوده على الطبيعة وعلى المجتمع. كانت شاحناته تسد الطرقات، ومستودعاته تغطي الدلتا من القاهرة إلى الإسكندرية، ويملأ أفراده شوارع القاهرة ومقاهيها بالأصوات الناطقة بالإنجليزية. كانت لهجات لانكشر، ودورسيت، والطرف الشرقي من لندن، وإيتون وونشستر، تتردد حول المساجد والبازارات، والأهرام والقلعة. استوعبَتِ القاهرة، المدينة متعددة اللغات والأجناس، ما يدور وتجاهلتْه في الوقت ذاته. من جهة، كانت تستغل الوضع وتتلاعب به، ومن جهة أُخرى، استمرت ببساطة في فعل ما كانت تفعله دوما من قبل. ازداد الأثرياء ثراء؛ واستمر الفقراء في الخوض في طين القنوات، وفي صنع الوقود من روث الجاموس، وفي التسول بالشوارع.

ربما رأيتها للمرة الأولى خلال تلك الإجازة في الأقصر. يبدو لي الآن أنني

فعلت ذلك بالفعل. رأيت فجأة أنها مكان جميل. رأيت قسوة الحياة في الحقول والقرى وفوضاها، عالما من التراب والماء، والقش وأوراق الأشجار، والبشر والحيوانات، ورأيت اتساع الصحراء المطلق الملموس، وكثبان الرمال التي شكلتها الرياح، والسراب المتلألئ. كانت لها رقة لوحة مرسومة بالألوان المائية، كلها ألوان هادئة من درجات الأخضر الرمادي، والأزرق الشاحب، والأسمر الفاتح، والبني الزاهي. هي جميلة وغير مبالية؛ حينما تبدأ في رؤيتها ترى أيضا القروح حول أفواه الأطفال، والذباب الزاحف على عيني رضيع كفيف، واللحم العاري المتقرح على ظهر حمار.

رأيتها من خلاله ومعه. والآن، صار هو وهي شيئا واحدا، التحما في العقل في كيان واحد من صوته وملمسه، وتلك المشاهد والروائح.

ترقد مستيقظة في الساعات الأولى من الصباح. على الطاولة المجاورة للفراش مون تايجر (طارد الناموس). والمون تايجر هو لفافة خضراء تحترق ببطء طوال الليل، وتطرد الناموس، وتتساقط على شكل أجزاء طولية من الرماد، بينما عينها الحمراء الملتهبة رفيق للظلمة الحارة التي تطن فيها أصوات الحشرات. تتمدد هناك لا تفكر في شيء، سوى أنها موجودة، وجسدها كله يشعر بالرضى. تسقط قطعة أخرى محترقة من المون تايجر (طارد الناموس) مثل الريشة في الطبق.

يتحرك توم. تهمس كلوديا: «هل أنت مستيقظ؟».

«أنا مستيقظ».

«كان عليك أن تخبرني. كان بإمكاننا أن نتبادل الحديث».

يضع يده على ساقها: «عمَّ يمكننا أن نتحدث؟».

«كل الأشياء التي لم يتوفر لنا الوقت لنتحدث عنها من قبل. تقريبا، كل شيء».

«لقد أمضينا نحو خمسين ساعة معا الآن. منذ أن التقينا».

تقول كلوديا: «بل اثنتين وأربعين».

«هل أحصيتها؟».

«بالطبع».

يسود الصمت. ثم يقول: «أحبك».

«حسنا إذا، وأنا أيضا. أعني أنني أحبك. تحدث إليَّ. أخبرني عن أشياء».

«حسنا. عن أي نوع من الأشياء تريدينني أن أخبرك؟ هل تريدين معرفة رأيي في ألدوس هكسلي[34]؟ رأيي في عصبة الأمم[35]؟ يمكننا أن نجد نقطة خلاف، أعرف أنك تستمتعين بالجدال».

«ليس الآن. دعنا نتحدث عن أنفسنا، فهذا هو كل ما يثير اهتمامي في اللحظة الحالية».

يقول توم: «وأنا أيضا». يمسك يدها. يرقدان، جنبا إلى جنب. مثل الأشكال المرسومة على المقابر، كما تعتقد كلوديا، أو الأجسام الملفوفة في التوابيت. تتوهج لفافة طارد الناموس توهجا خافتا وتصدر دخانا؛ ومن خلف مصراع النافذة المغلق يمتد الليل الحار المخملي الأسود والنيل والصحراء.

يشعل توم سيجارة. تتوهج الآن عينان حمراوان في ظلام الغرفة؛ طارد الناموس والسيجارة: «دائما ما يظن الناس الذين هم في مثل موقفنا أنهم متفردون. لكن رغم ذلك.. كوننا نحن الاثنان وصلنا هنا دون قصد..».

تقول كلوديا: «وكأننا أسرى للحظ، أو مثل أبطال فيلم (أيتام العاصفة)».

«تماما. لكن يا له من حظ. أنا مدين بلقائك لهتلر. يا لها من فكرة».

(34) ألدوس هكسلي (1894 - 1963): كاتب إنجليزي شهير له الكثير من الروايات والقصص القصيرة وسيناريوهات الأفلام. أشهر رواياته «عالم جديد شجاع».

(35) منظمة دولية تأسست في أعقاب مؤتمر باريس الذي وضع حدا للحرب العالمية الأولى العام 1919. كان الهدف من إنشائها الحفاظ على السلم العالمي ومنع انتشار الحرب وتسوية المنازعات سلميا، لكنها فشلت في تحقيق أهدافها.

تقول كلوديا: «دعنا لا نفكر في الأمر. لنطلق على الأمر اسما أكثر احتراما. القدر. الحياة. هذا النوع من الأسماء».

يرقدان لفترة في صمت. يقول توم: «احكي لي أنتِ بعض الأشياء. هناك الكثير الذي لا أعرفه.. هل تتقنين العزف على البيانو؟ متى تعلمت أن تتحدثي بالفرنسية؟ لماذا هناك ندبة على ركبتك؟».

«هذه أشياء مملة. لا أريد الحديث عنها. أريد أن تدلّلني. أريد أن أرقد هنا للأبد أستمع إليك وأنام وأنت تتحدث. يمكنك أن تحكي لي حكاية».

يقول توم: «لا أعرف أي حكايات. أنا شخص محدود الخيال تماما. لا أعرف سوى حكايتي أنا».

تقول كلوديا: «هذا سيفي بالأمر».

«إن كنت مصرّة على ذلك، فهي حكاية عادية على كل حال. وُلِدْتُ في مقاطعة على مشارف لندن لأبوَيْن لهما إمكانات مادية محدودة لكنها كافية. كان والدي مدير مدرسة، وأمي.. كانت مجرد أم. لم يشب طفولتي سوى خوف غير معلن من الكلاب الضخمة والعناية بشقيقتي. تميزت سنوات دراستي بفشلي في ترجمة اللاتينية، وإخفاقي في استخدام مضرب الكريكيت. فترة الشباب.. حسنا، ربما تصبح سنوات الشباب مثيرة للاهتمام بصورة أكبر بعض الشيء، فنرى بطلنا وقد أصبح أقل بلادة وأقل أنانية وانطوائية وهكذا دواليك. والواقع أنه أصبح أكثر اهتماما بالآخرين، وبدأ يُظهِر بعض الميول المثالية الغامضة، والرغبة في إصلاح العالم وما إلى ذلك».

تتنهد كلوديا: «آه! واحد من هؤلاء..».

«واحد من هؤلاء. هل تستنكرين الأمر؟».

«بالطبع لا. استمر. ماذا فعلتَ حيال الأمر؟».

«كل الأشياء البريئة الحماسية المعتادة. انضممتُ إلى المنظمات المهمة. حضرتُ الاجتماعات السياسية. قرأتُ الكتب. وكنت أناقش أصحابي الذين يتقاربون معي في التفكير حتى وقت متأخر من الليل».

تقول كلوديا: «بريئة؟ ما البريء في ذلك؟ (عملية) هي الصفة التي قد أختارها».

«صه. هذه حكايتي أنا، وسأرويها كما أشاء. كاتب السيرة الذاتية يحق له التعليق بصفته محررا. إذا.. السخط الاجتماعي في فترة الشباب بلغ ذروته حينما عملتُ لفترة مراسلا صحافيًا لجريدة إقليمية في الشمال. هل زرتِ الشمال الشرقي خلال فترة الكساد[36]؟».

تفكر كلوديا.

يقول توم: «إذا كان عليك التفكير في الأمر، فأنت لم تزوريها. لقد ساعدتْ تلك الزيارة العقل على التركيز بشدة، دعيني أقل ذلك. لم تعد هامبشير أبدا كما كانت من قبل. لذا، على أي حال، فقد ألهبت مشاعري طوابير العاطلين المصطفِّين للحصول على إعانة، وقررتُ أن السياسة هي مجال العمل الوحيد. أعني أن الأمر كان واضحا. في سن الثالثة والعشرين، يمكن للمرء إصلاح العالم في لمحة لو أتيحت له الفرصة، بكل بساطة، كنت قد رتبت الأمر كله في البيان الرسمي الخاص بي، إصلاح التعليم، وتوفير الفرص والتأمين الاجتماعي، وإعادة توزيع الدخل».

تقول كلوديا: «إذا.. لماذا؟».

«لماذا لم تنجح الأمور بهذه الطريقة؟ لأن الأمور، كما يعرف كلانا، ليست هكذا. يستسلم بطلنا الضعيف كسياسي طموح، ويتلفت حوله ليرى ما الذي سوف يأتي بعد ذلك. بعد أن يكون قد تقدم في العمر عاما

(36) الكساد الكبير: أزمة اقتصادية بدأت عام 1929 واستمرت حتى أوائل أربعينيات القرن الماضي. بدأت في أمريكا مع انهيار سوق الأسهم الأمريكية يوم 29 أكتوبر 1929، الذي سمي (الثلاثاء الأسود). كان تأثيرها مدمرا على العالم الذي انخفضت تجارته ما بين النصف والثلثين.

أو عامين، وتعلّم بعض الحكمة إن لم يكن الكثير منها. الواقع بعد أن يعرف أنه جاهل في الأغلب، وأنه لا سبيل لهزيمة أعدائه حتى يملك من الحجج ما يؤهله لذلك. لذا فكرت أنه يجب عليّ أن أسكت وأفتح عينيَّ وأذنيَّ لبعض الوقت. تركتْ لي إحدى عماتي ميراثا صغيرا، وأنفقتُه على أجرة السفر إلى أمريكا. فكرتُ أن ألقي نظرة على أرض الأحرار، وأتعلم شيئا أو اثنين. أنظر وأسمع. أكسب بعض المال من كتابة مقال من وقت إلى آخر. لذا فعلتُ ذلك. وعدتُ وأنا أكبر سنّا وأكثر حكمة من ذي قبل».

تقول كلوديا: «انتبه، أنت تحذف أجزاء كبيرة من هذه الحكاية».

«أعرف هذا. ليس لدينا وقت للحكاية كلها. ليس الآن. سنلتزم بالأساسيات. في أمريكا، في الغرب الأوسط، وفي الجنوب، شعرتُ بوجود حالة من الغضب الاجتماعي مرة أخرى، لكني أصبحت أكثر تأملا هذه المرة. عملتُ بالصحافة. صحافة رصينة مدروسة. حققتُ نجاحات صغيرة في هذا المجال».

تقول كلوديا: «يجب أن تقوم بما أقوم أنا به. حقّا، لِمَ لم تفعل..؟».

«أتمنى لو لم تستبقي الأحداث. لم نصل إلى هذا الجزء بعد. النازيون ليسوا أكثر من مجرد ضوضاء مزعجة على الجانب الآخر من القنال الإنجليزي في الوقت الراهن. وبطلنا يظن نفسه رحالة الآن».

تقول كلوديا: «كف عن قول كلمة بطلنا، يبدو الأمر وكأنه من صحيفة الحكايات الموجهة للأولاد» [37].

«يا لك من فتاة مطلعة. ظننت أن الإشارة إلى الصحيفة قد تفوتك. كما قلتُ، ظننت نفسي رحالة. بعثتُ بعض المقالات التي تدور حول المصاعب الاقتصادية التي واجهت الفلاحين اليونانيين، أو خداع الساسة الإيطاليين،

(37) صحيفة قصصية بريطانية موجهة للشباب والمراهقين، صدرت في العام 1879 وتوقفت عن الصدور في العام 1967.

ولما لم أتمكن من فعل ذلك عملتُ لدى مكاتب السياحة مرافقا للسياح. تجولتُ في معظم دول أوروبا بهذه الطريقة. وذهبتُ مرة إلى روسيا. كنت أفكر أنه ربما حان الوقت لأهتم بأفريقيا، وانظري، كيف تتحقق أمنيات المرء؟ وبعد ذلك بدأت الضوضاء المزعجة على الجانب الآخر من القنال الإنجليزي تزداد صخبا. باتت تشكل قلقا واضحا».

تقول كلوديا: «أجل. أود أن أقول شيئا».

«ظننتُ أنك تريدينني أنا أن أتحدث؟».

«أود ذلك بالفعل، لكنك تهمل رواية أكثر الجوانب تشويقا».

«كنت أعتقد أن كل هذا قد يكون شيقا بعض الشيء».

تقول كلوديا: «إنه كذلك بالفعل، لكنه ليس شخصيًا للغاية. لا أعرف الكثير عما كنت تشعر به». وتضيف بخفة: «لا أعرف ما إن كنت تقوم بكل ذلك وحدك أم كان معك شخص ما».

يقول توم: «أوه! أها! فهمت. حسنا، سأحاول أن أروي حكايتي بطريقة أفضل. يمكنني أن أخبرك لم لا يبدو الأمر شخصيًا للغاية. في ذلك الوقت، كان بطلنا.. آسف، آسف. طوال ذلك الوقت، كانت لدي أفكار عظيمة عن الحياة العامة، وعن ارتباط المرء بعصره، وما إلى ذلك. كنت أفكر بطريقة غير شخصية، تلك رفاهية خاصة للظروف المريحة، كما كنت أعلم جيدا. لكن دعيني أؤكد لك..» ويمرر كفه عليها، «دعيني أؤكد لك أن كل هذا قد تغيَّر تماما. لا شيء يجعل المرء يفكر بطريقة شخصية للغاية مثل ارتباطه بعصره بطريقة لم يكن يتوقعها. لقد نلت كفايتي من كل هذا. انظري، بدأ الضوء يبزغ. هاك، لقد نلت حكايتك». يستدير نحوها.

تقول كلوديا: «ليس تماما. لم تقل ما إن كنت..».

يقول توم: «وحدي تماما، حتى الآن. لكن ليس لوقت أطول، كما أتمنى». يمد يده ويرسم خطوط وجهها بإصبعه. تستطيع كلوديا أن ترى

الآن، في ضوء الفجر الواهن، عينيه وأنفه وشفتيه. تقول: «هذا أكثر ما أحبه من الحكاية».

يقول توم: «وأنا أيضا. أوه! وأنا أيضا».

تقول كلوديا لنفسها: «يا إلهي! فلتكن لها نهاية سعيدة. أرجوك، فلتكن لها نهاية سعيدة». لقد احترقت لفافة طارد الناموس كلها تقريبا الآن؛ شكلها الحلزوني الأخضر منعكس في حلزون الرماد الذي تساقط في الصحن. مصراعا النافذة يخططهما الضوء؛ لقد دارت الأرض دورة جديدة.

الفصل السابع

لا أستطيع أن أكتب عن مصر بتسلسل زمني. مصر القديمة، مصر القديمة المزعومة. في تاريخ العالم الذي أكتبه، هذا التاريخ الواقعي بمنظور المشكال، سوف تكون لمصر مكانتها الصحيحة بوصفها قوة واثقة، لا يمكن تدميرها، خلَّدت ذاتها على شكل كميات من الأحجار المنحوتة، والجبس المرسوم وورق البردي، والجرانيت، والورق المذهب، واللازورد وقطع من الفخار، وشظايا من الخشب تكفي لملء متاحف العالم. لم تكن مصر مؤثرة آنذاك فقط، ولكن الآن أيضا، تؤثر في الطريقة التي ننظر بها إلى الأشياء. صورة أبي الهول معروفة حتى لأولئك الذين لم يسمعوا من قبل عن الفراعنة السلالات الحاكمة؛ وعمارة معبد الكرنك الجديد القاسية والمريحة لكل من نشأ مع عمارة فترة الثلاثينيات.

كنت أعرف مصر، مثل أي شخص آخر، حتى من قبل أن أذهب إلى هناك. وحينما أفكر فيها الآن، إذ أفكر في الطريقة التي سأذكر بها مصر في قصة العالم، يجب عليَّ أن أفكر فيها بوصفها ظاهرة مستمرة، سكان مصر الفرعونية الذين يرتدون الأُزُرْ يتدفقون إلى وادي النيل في القرن العشرين، العربات الحربية وزهور اللوتس، حورس ورع وإيزيس جنبا إلى جنب مع المساجد المملوكية، شوارع القاهرة بضجيجها، ناصر وسدّه العالي، القوافل العسكرية باللون الكاكي عام 1942، القصور التركية التي لها ترف العصر الإدواردي. الماضي والحاضر لا يتعايشان في وادي النيل بقدر ما يفقدان معنييهما كلية. ما هو مدفون تحت الرمال منعكس فوقها، ليس في التذكارات التي يبيعها أحفاد سارقي المقابر وحسب، بل

في دورة الطبيعة الأبدية المتمهلة، شروق الشمس من الصحراء في الشرق لتغوص بالصحراء في الغرب، فيضان النهر في الربيع، تكاثر الكائنات، في البلشون الأبيض ومالك الحزين والإوز البري، الحيوانات التي تحمل على ظهورها أثقالا، وفي الفلاحين الصابرين على مر الزمن.

قابلت في فندق رمسيس هيلتون، منذ سنوات عدة، رجلا كان أكبر موزع على مستوى العالم لصهاريج الصرف الصحي، أو هكذا كان يدَّعي. هو من ولايات الغرب الأوسط الأمريكي، وعلى وشك التقاعد، وكان واحدا من تلك المجموعة من الأمريكيين الذين بلغوا سن الشيخوخة ويسافرون بحرّية، بلا قيود أو مسؤوليات، ويتدفقون في الفنادق من دبلن حتى سنغافورة. لم يكن الرجل مرتبطا، وتعرَّف إليَّ في البار بعد أن ظن أنني على شاكلته. قال وهو يريح مقعدته التي اكتست بالبوليستر على المقعد المجاور لي: «ما يحيرني في أمر أولئك الأشخاص هو الإصرار. دعيني أشترِ لك شرابا. دعك من الإنجاز الهندسي، وصدقيني هذا أمر بالغ الأهمية في حد ذاته. لكن ما يثير إعجابي هو الإصرار. كل ذلك، حتى تجهز لنفسك مكانا كي تدفن فيه». تركته يشتري لي شرابا، وسألته ما إذا كان يهاب الموت. «بالتأكيد أهاب الموت. الكل يهاب الموت، أليس كذلك؟». «المصريون لم يكونوا يهابونه. كان يهمهم بقاء الروح. أو الخلود، سمِّه ما شئت. ليس هذا ما يجعلهم متفردين، ومع ذلك فهو أمر فقدنا اهتمامنا به كثيرا هذه الأيام». نظر إليَّ بشك، نادما على الشراب الذي اشتراه لي؛ كان بلا شك يتساءل عما جلبه على نفسه: «هل أنت أستاذة من نوع ما؟». «لا، أنا سائحة مثلك. ما الذي تعمله أنت؟». لذا أخبرني بأمر صهاريج الصرف الصحي، وأقمنا علاقة لا يمكن إطلاق لقب صداقة عليها بقدر ما كانت نوعا من التحالف الغريب؛ لأنه كان رجلا نشيطا أمينا، ولا ينقصه الفضول، ويحب أن يجد من يحادثه، وأنا لم أكن وحيدة، لأنني

لم أشعر بالوحدة قط، كنت وحدي. وهكذا ذهبت للمرة الثانية بعد أربعين عاما بصحبته المتنافرة مع المكان إلى الأقصر، إلى وادي الملوك وإلى إسنا وإدفو. ذهبنا إلى الأهرامات، والقلعة، وإلى شاطئ النيل بجوار جسر قصر النيل؛ حيث لم يعد هناك وجود لكاتدرائية سانت جورج التي صليتُ فيها يوما ما، وحل محلها شبكة جسور علوية صاخبة لمرور القاهرة الذي لا ينتهي. لا أهمية له الآن، الأمريكي - لم أعد حتى أتذكر اسمه - مثل ضابط المدفعية على شرفة فندق شيبرد، لكنه مثله أيضا مرتبط للأبد بمكان معين، وزمان معين. حكايته - أيّا تكن تلك الحكاية - ارتبطت بحكايتي لفترة قصيرة من الزمن. في حكايتينا هناك جدار معبد نقف أمامه، وقد أغمضنا أعيننا نصف إغماضة من شدة وهج السماء فوقنا، بينما تتغير المَشاهد المعقدة النافرة والمنحوتة في الصخر لتحكي حكايتها، سِجِلا للدماء المسفوكة. ثمّة جنود نصف عراة تُقطَّع رؤوسهم، ويُطعنون بالرماح، ويُدهسون بالعربات الحربية. تتكرر هذه المشاهد على الجدران الثلاثة الأخرى بارتفاع عشرين قدما أو ثلاثين. يوضح المرشد أن هذا تسجيل لانتصارات الفرعون العديدة على أعدائه، واحتفاء بها في آن واحد. وبالفعل، تتكرر صورة الفرعون، بحجم يفوق صور الآخرين، وهو يقود عربته الحربية بيسر، يمسك اللجام بيد، والسلاح باليد الأخرى. الجثث تملأ المكان. يعلِّق رفيقي: «يا له من رجل قاس! كنت أعتقد أنه يفترض أن يكون ممثل السماء بالإضافة لكونه الملك؟ إذا، كيف يكون مناسبا له المضيّ في إبادة الناس هكذا؟». أسأل: «ألا ينطوي الأمر على تناقض؟». يشرح المرشد كيف أن الأجساد ذات الرؤوس المقطوعة التي نشاهدها غالبا ما تُمثِّل وحدات، آلافا أو عشرات الآلاف، وأنه نظام لتسجيل عدد الأعداء الذين ذُبِحوا. يقول الأمريكي: «يا إلهي! يا لها من مذبحة مروّعة. أعتقد أن الظروف كانت قاسية عليهم آنذاك بما يغنيهم

عن أن يضيفوا للأمر ذبح بعضهم بعضا». نقف ونتأمل المذبحة الصامتة. يقول الأمريكي: «كنت في فرنسا عام 1944. لم أر القتال، لكنني رأيت ما يخلفه. إنه ليس مشهدا جميلا، دعيني أخبرك ذلك». لا أهتم بأن أخبره بأنه لا حاجة به إلى ذلك.

كان مقلب قمامة رمليًا على مدّ البصر، وكأن يدا ضخمة مستهترة أمطرته بحطام ألف ساحة خردة؛ هياكل المركبات المحترقة، وأكوام الإطارات القديمة، وصفائح الوقود الفارغة، والصفائح الصدئة، وألواح الحديد المموج، والأسلاك الشائكة المتشابكة وفوارغ الطلقات. كل هذه النفايات ترقد وسط الفوضى الطبيعية للصحراء، الشجيرات الهزيلة التي تبدو خالية من كل أثر للحياة، وتتناثر بلا حدود من الأفق إلى الأفق. المساحات الوحيدة الخالية هي الطرق التي تسير فوقها من وقت إلى آخر صفوف الشاحنات أو العربات المدرعة، وقد حُدِّدت جوانبها بصفائح الوقود الفارغة.

كانت الشاحنات والعربات المدرعة تسير على مثل هذا الطريق مدة ساعتين. لكن على الرغم من ذلك، كان من السهل فقدان المسار وسط فوضى آثار الإطارات والعلامات الإرشادية غير المنتظمة. وعندما يحدث ذلك، كان السائق، وهو رجل من لندن ضئيل الحجم ونحيل لكنه قوي، وقد اسمرَّ لونه حتى صار مثل الكسترد المحترق، يقود معتمدا على قراءة الخرائط والتخمين. اتضح أنه كان يقود سيارة أجرة قبل الحرب، ويعامل الصحراء بألفة مشوبة بالاحتقار، وكأنها صورة منعكسة في قصة خيالية لخريطة لندن. وحينما كانوا يلتقون مع مركبات أخرى، كان يصيح في مواجهة الريح بأسئلة ومعلومات. كان الجميع يبحث عن شخص آخر أو عن مكان آخر. كانت هذه المنطقة محور العملية الأخيرة التي تبعثرت خلالها الوحدات؛ كانت الطبيعة مليئة بالآلاف من الرجال الذين كانوا يحاولون إعادة تنظيم أنفسهم.

تجلس كلوديا بجوار السائق. كان جيم تشيمبرز من صحيفة «أسوشيتد نيوز» يجلس في الخلف مع مراسل من نيوزيلندا. عند الحديث، كان يجب عليهم الصياح بصوت يعلو فوق ضجيج محرك الشاحنة. تشعر كلوديا أن كل عظام جسدها قد تخلخلت، واحمرّت عيناها، وبهما ألم حارق من الأتربة. يحذرها السائق، الذي يشعر بالرغبة في حمايتها، ويجد أمر هذه الراكبة الاستثنائية مسليا، ويطلب منها أن تربط وشاحا بين رقبتها وفتحة ملابسها، وإلا فسوف تصاب بقرح الصحراء مثل الجميع.

كانوا يتجهون نحو مقر قيادة الفرقة المدرعة السابعة، وكان السائق يشعر بالقلق ويرغب في الوصول قبل الغروب. كانوا قد سلكوا الطريق الخطأ مرة، وعلقت سيارتهم في الرمال الناعمة ثلاث مرات، وخرجت عن مسارها تماما. وعندما يحدث ذلك، يبدأ السائق بإطلاق الشتائم، ويقفز خارجا، ويُخرج أكياس الرمل، ويشرع الجميع في عملية الحفر الشاقة، وهم يتصببون عرقا.

يشير السائق إلى دبابة: «واحدة من دبابات الألمان. احترقت في عملية التقدم الأولى. أتريدين إلقاء نظرة، آنسة؟».

يخرجان من الشاحنة ويسيران باتجاه الدبابة. كانت هيكلا أسود كريه الرائحة. ترقد مائلة على أحد جانبيها، وقد انغرست في كثيب رملي. ترامى حولها المزيد من الحطام، بقايا صغيرة لها طابع شخصي؛ علبة طعام، ورسالة ممزقة تتطاير مع الريح، عبوة بسكويت يخرج منها صف أسود منتظم من النمل، ويسير تجاه صخرة. يلتقط جيم تشامبرز بعض الصور.

كان هناك ضجيج مستمر. وحينما تمر الطائرات فوق رؤوسهم، طائرات نقل ومقاتلات، تزأر السماء بأكملها. من وراء الأفق تأتي أصوات ضربات غير واضحة، وبين حين وآخر تتصاعد لمعة فضية لطلقات استغاثة من حافة الأفق، أو انفجار لمّاع لمسدسات الاستغاثة. ويتصاعد الدخان

من المشهد بأكمله. يتصاعد الدخان الرمادي من المركبات المحترقة مع هبوب الريح، وتندلع من خط الأفق نفثات بيضاء، ويرتفع عمود من الدخان الأسود إلى يمينها حيث تم تفجير ذخيرة العدو التي استولوا عليها. يتصاعد الدخان والتراب إلى الأعلى معا، وكل شاحنة أو سيارة أو دراجة نارية تخلف وراءها أثرها الخاص من التراب البرتقالي. على البعد، يظهر رتل من الشاحنات، يخفيها الغبار لدرجة أنه لا يظهر منها سوى هيئاتها تزحف عبر المخلفات، وتستحضر برية أخرى وزمنا آخر، عربات مغطاة في البراري. وحينما تقترب سحابة أخرى من الغبار بدرجة كافية لتكشف عن معالم الدبابات، فإنها تبدو أيضا وكأنها شيء آخر، أبراج سفن معقدة عالية الارتفاع تمخر عباب المحيط، تكمل هيئتها الرايات الزاهية.

يصيح السائق: «سنتوقف لتناول الشراب. أريد أن ألقي نظرة سريعة على الخريطة». يصعدون تلا قليل الارتفاع، يقع على قمته خندق به مربض فارغ للمدفعية مغطى بشباك للتمويه وأكياس متناثرة تتسرب منها الرمال. يشكِّل هذا ملجأ مفيدا للهرب من الرياح التي أخذت تشتدّ. يشعلون النار داخل صفيحة مليئة بالرمال المشبعة بالبنزين، ويغلون الشاي في علبة طعام معدنية. «أتريدين كأسا من الشاي يا آنسة؟». تجلس كلوديا وهي تشرب الشاي وتحملق من أعلى أكياس الرمل إلى الوادي الضحل في الأسفل من حيث أتوا؛ تتساءل مَن كان يرقد هنا قبل بضعة أيام وهو يحاول قتل شخص آخر. كانوا قد مروا قبل قليل بثلاثة صلبان انتصبت في صف بجوار هيكل شاحنة محترق. كان بجوار واحد منهم خوذة معدنية، وقد كُتبت عبارة على لوح الخشب الخشن: «العريف جون ويلسون، قُتِل أثناء العمليات الحربية».

يعتقد السائق أنهم مقدمون على عاصفة رملية قاسية: «اعذريني على ألفاظي النابية، آنسة». يصعدون إلى الشاحنة مرة أخرى، وينزلون إلى

الجانب الآخر من التل؛ حيث يتكرر المشهد نفسه الذي مروا عليه قبل ساعة، وفي الساعة التي قبلها أيضا. معالم الطريق غير واضحة، لكن السائق يتجه نحو هيئة سوداء ملطخة بعيدة لمركبات أخرى تتضح صورتها عندما يقتربون منها، وتظهر على أنها شاحنتان للصليب الأحمر، تقفان بجوار هيكل دبابة. ترقد صرة في مكان قريب على نقالة. يتسلق الرجال الدبابة. يتوقف السائق ويقفز خارجا، وكذلك يفعل جيم تشامبرز والنيوزيلندي. يقول جيم تشامبرز لكلوديا التي تتجاهله: «سأبقى حيث أنا يا فتاة، لو كنت مكانك». يسيرون نحو الدبابة، وترى الآن أن الأجساد التي اعتلت الدبابة تسحب منها ما يبدو أنه رجل، شيء أسود بجمجمة محطمة وشظايا عظمة بيضاء لامعة مكان الذراع. تفوح رائحة احتراق وعفونة. ترقد صرتان أخريان على نقالتين في شاحنة الإسعاف من الخلف؛ ويصف سائقها الطريق لسائقهم. يبدو أنهم جميعا قد خرجوا عن مسار الطريق. كان هذا المكان مسرحا لإحدى معارك الدبابات في الأسبوع الماضي، وكانت الأرض مليئة بالعلامات المتقاطعة لمساراتها التي تشبه المحراث، وتمتد بعيدا إلى كل الجوانب، فوضى صامتة تشهد على ما حدث هناك.

يصعدون إلى الشاحنة مرة أخرى. تهبّ الريح قوية ومحمّلة بالرمال؛ لم تعد الرؤية واضحة، ولم يعد بإمكانهم رؤية الأفق. يضع السائق نظارات واقية، ويجد زوجا منها لكلوديا. يستمرون في التقدم وسط الظلمة، ويتوقف السائق بين حين وآخر ليقفز خارجا ويتفحص علامة من علامات الطريق، لكن مع مرور الوقت تختفي صفائح الوقود الفارغة والعلامات الإرشادية تماما، ويتقدمون في الفراغ مع بعض علامات الإطارات التي تتفرق في كل اتجاه بين حين وآخر. تتطاير الرمال على شكل سحب. يصطبغ العالم بأكمله بلون وردي برتقالي متوهج. تستحيل الرؤية لأكثر من عشر ياردات أو خمس عشرة ياردة للأمام.

يستمرون في التقدم زحفا وسط العاصفة الرملية. تتحول الأرض الصلبة إلى رمال أكثر نعومة، تبرز من بينها صخور غادرة تحتك بالشاحنة من الأسفل. يتخبطون ويضطرون إلى التوقف مرتين للحفر وإخراج السيارة. وفي المرة الثانية، ما إن بدؤوا المسير، حتى صدر صرير ارتطام من أسفل الشاحنة ارتجَّت على إثره وتوقفت. يقفز السائق خارجا ويختفي أسفل الشاحنة. يعاود الظهور ليعلن أن محور العجلة الخلفي اللعين قد تحطم تماما.

الجميع الآن، يطلقون الشتائم. النيوزيلندي لديه مقابلة رتّب أمرها، ويرى أنها سوف تضيع إن لم يصلوا إلى مقر القيادة قبل حلول الظلام. يقول السائق، الذي يبدو بوضوح أنه يعتبر نفسه مسؤولا عن كلوديا: «لا تقلقي، آنسة، سوف نوصلك إلى هناك». تقول كلوديا التي لا تشعر بالقلق بالفعل: «لست قلقة». ترفع الغطاء عن آلتها الكاتبة، وتجلس في مقصورة الشاحنة وتكتب، بينما تزأر الصحراء من حولها، بيضاء حينا وصفراء أو وردية حينا آخر. يُخرج جيم تشامبرز قنينة شراب. يقول السائق إن هذا المكان قد لا يكون شارع بيكاديلي الذي تتلألأ أضواؤه، لكن حتما سيمر أحدهم عاجلا أم آجلا، وإنهم غير بعيدين عن المسار اللعين، وحينما تهدأ العاصفة الرملية سيتمكنون من تحديد مكانهم مرة أخرى. تسأل كلوديا: «كيف تتهجّأ كلمة متلألئ؟». يقول جيم: «لا تتباهي، كلوديا». يعرض عليها السائق سيجارة، وقد سلبته عقله تماما.

تكتب كلوديا. يجب عليها أن تتوقف من وقت إلى آخر حتى تنفض الرمال عن الآلة الكاتبة. تكتب لأن الأمر ملائم لها من جهة، ومن جهة أخرى كي تتخلص مما انطبع الآن على مقلتيها. تحاول أن تصف ما شاهدته وفكرت فيه. تكتب أيضا لأنها منهكة للغاية، وعطشى، وجسدها يؤلمها، ومزاجها معتلّ، ولو لم تشغل نفسها بشيء فلربما يظهر عليها أثر كل ذلك، وسوف تشعر حينئذ بالخجل.

والآن، في الخارج، وسط عواء العاصفة الرملية، يعلو صوت آخر، ويتحرك شيء صلب في الظلام ليظهر أنها سيارة جيب فيها شخصان يتبادلان الصراخ. تقترب السيارة الجيب. يقفز الشخصان خارجا. كان ضابط دبابات يدعى توم سوذرن، مع ضابط آخر. رد فعلهما لوجود كلوديا هو القلق المشوب بالتسلية. كانا في طريقهما إلى مقر القيادة، وبإمكانهما اصطحاب شخصين. سيبقى السائق مع الشاحنة حتى يمكن الاتصال بعمال الصيانة. يتطوع جيم تشيمبرز بالبقاء هو الآخر. وكذلك يفعل النيوزيلندي بتجهم. لذا، بطبيعة الحال، تفعل كلوديا هي الأخرى. في النهاية يقررون أن جيم سيبقى بينما يمضي الآخرون.

تصعد كلوديا إلى المقعد المجاور للسائق في الجيب. بدأت العاصفة الرملية تهدأ، وصار بالإمكان رؤية معالم الصحراء مرة أخرى وتمييز الطريق. كانت متعبة حتى إنها لم تكن تستطيع الاستجابة لأي شيء مما يقوله الآخرون. وفي إحدى اللحظات ذهبت في إغفاءة وانزلقت بجوار ذراع توم سوذرن فشعرت به يعدل وضعها برقّة، لكن بحزم. تجلس هناك نصف مستيقظة، ولا ترى سوى القليل. لا ترى سوى يده على عجلة القيادة، يد سمراء تناثرت بها شعرات سوداء بين الرسغ ومفاصل الأصابع. تنطبع الصورة في مخيلتها، وبعد أربعين عاما ستظل ترى تلك اليد.

كانت عودتي إلى مصر مريحة ومرفهة، برعاية شركة فارو تورز للسياحة وفندق هيلتون، وقد تضمنت رحلة قصيرة إلى الصحراء التي شاهدتها هذه المرة من خلف زجاج النوافذ المظلل للحافلة مكيفة الهواء. توقف السائق كي يتمكن الركاب من النزول ويختبروا بأنفسهم هواء الصحراء الأصيل؛ كان هناك أيضا مشهد رائع لأهرامات دهشور. قال صديقي الأمريكي: «ألا ترغبين في النزول؟». هززت رأسي. سأل بقلق: «هل أنت متأكدة أنك بخير؟ لم تتفوهي بحرف طوال الرحلة». قلت: «أنا بخير. كنت أفكر، هذا كل ما في

الأمر. ولقد سبق لي أن رأيت الصحراء. اخرج أنت وألق نظرة. سأبقى أنا هنا». سحب نفسه بمشقة: «حسنا، إذا. لكن كيف زرت الصحراء؟ هل كنت هنا من قبل؟». قلت، بمراوغة: «ليس هنا بالتحديد». لم يعقّب على الأمر؛ كانت فترة انتباهه وجيزة، وكان بعض أصحاب الجِمال الذين يؤجرونها للسياح قد ظهروا من حيث لا ندري، فرصة للتصوير يجب عدم تفويتها. خرج، وصرت وحدي مع الزجاج المظلل الذي رأيت من خلاله مشاهدي الخاصة، الأشكال والألوان البعيدة، لكن الواضحة في الوقت ذاته، لزمن آخر، الدبابات المائلة على الرمال، الدوامات والبقع السريالية بدرجات البنّي للتمويه.

لم أكن أفكر في توم، لكن في ذاتي. كانت ذاتا لا يبدو أنها «أنا»، بل «هي». بريئة، تمضي أيامها بلا مبالاة، لا تعلم شيئا، وقد صرت أراها تتمتع الآن بحكمة بالغة. هكذا كنت أشعر، ومن المؤكد أن أي شخص كان سيشعر بالمثل، وأنا أتأمل تلك اللحظات المعلقة من الماضي: الليلة السابقة لاقتحام سجن الباستيل[38]، صيف عام 1914 في وادي السوم، الأيام الخريفية في وركشير قبل معركة إيدج هيل[39]. ليس هناك ما يمكن عمله؛ لا يمكن إيقاف المقدَّر أو تغييره. هذه هي الحكاية؛ هذه هي الأشياء التي يجب أن تحدث.

ركب صديقي القادم من تكساس الحافلة مرة أخرى، وهو يخزن معدات تصويره، بعد أن حفظ للأجيال صورة رجل يشبه أعضاء العصابات، يمتطي ظهر جمل وهو يلوح ببندقية تشبه بندقية لورنس العرب[40] في يد، وبعقد من خرز اللازورد البلاستيكي في اليد الأخرى. قال: «يا له من مكان يصعب

(38) سجن أُنشئ في فرنسا بين عامي 1370 و1383 للدفاع عن باريس. بعد ذلك أصبح سجنا للمعارضين السياسيين والدينيين والمحرضين ضد الدولة. ثم تحول رمزا للطغيان والظلم وانطلقت منه شرارة الثورة الفرنسية في 14 يوليو 1789.

(39) معركة ضارية في الحرب الأهلية الإنجليزية الأولى جرت قرب إدج هيل وكاينتون عام 1642، على خلفية الفشل في التوصل إلى تسوية دستورية بين الملك تشارلز والبرلمان.

(40) توماس إدوارد لورنس (أغسطس 1888 - 1935) ضابط بريطاني اشتهر بدوره في مساعدة القوات العربية خلال الثورة العربية عام 1916 ضد الدولة العثمانية، وعرف باسم لورنس العرب. كتب لورنس سيرته الذاتية في كتاب حمل اسم «أعمدة الحكمة السبعة».

العيش فيه!». قلت: «هذا الرجل غالبا ما يعيش في شقة سكنية في القاهرة، ويأتي إلى هنا بالحافلة». «أتعتقدين ذلك؟». نظر بندم تجاه الرجل الذي كان قد رحل: «أعتقد أنك على حق. أنا أنجذب إلى الطابع المحلي. لا يمكنني أبدا تمييز ما هو غير حقيقي. لكنك سيدة ذكية للغاية، أليس كذلك، كلوديا؟».

أعتقد أنني استخدمت اسمه هو أيضا. إد؟ تشاك؟ لا أتذكر، رغم أنني أذكر تلك الصحبة اليسيرة المتناقضة، التحالف المؤقت الخاص لغرباء في ظروف مؤقتة. كنت سعيدة بصحبته بطريقة ما؛ كان وجوده الذي لا يتأثر بشيء أشبه بالدرع. كنت قد ترددت في القيام بهذه الرحلة؛ وأجَّلتها عاما بعد آخر، لكنني كنت دوما أعرف أنني في النهاية لا بد أن أقوم بها. ولما واجهت ذلك السراب أخيرا، ذلك الطيف اللامع لذلك الزمن الآخر، فوجئت إذ وجدت أن ذاتي هي التي كان لها وجود مؤثر. ليس هو، ليس توم. كان توم حاضرا بطرق أخرى.

كنت أتشارك مع فتاة أخرى شقة بالزمالك. كانت كاميلا سكرتيرة ذات شخصية سطحية تعمل في السفارة، واحدة من أولئك المدنيين المنعمين العاملين مع المؤسسات العسكرية، الذين يستفيدون من الحروب. ولولا هذه الظروف لقضت كاميلا شبابها في مقاطعات ريف إنجلترا منشغلة بتربية الكلاب والصيد، وزيارة المدينة لحضور بعض العروض من وقت إلى آخر. لكنها بطبيعة الحال كانت تقضي أمتع أوقات حياتها، تكتب قليلا على الآلة الكاتبة في فترة الصباح لأحد زملاء دراسة والدها، وتختار من يروق لها من ضباط الفرقة الثامنة من سلاح الفُرسان في المساء.

تبدو الآن مدينة القاهرة المزدحمة المتعددة اللغات في أربعينيات القرن العشرين وكأنها تعبير ملائم عن تلك البلاد الغريبة. الطبيعة، والتحام الماضي بالحاضر، كان لهما نظيرهما في حياة المدينة المزدحمة، حيث تلتقي جميع الأجناس، وجميع اللغات يُتَحدَّث بها، ويمر اليونانيون

والأتراك، والأقباط واليهود، والبريطانيون والفرنسيون، والأثرياء والفقراء، والمستغلّون والمضطَهدون، جميعا بعضهم بجوار بعض على الأرصفة المغبرّة. لكن الأرصفة كانت هي الشيء الوحيد المشترك بينهم. شاهدتُ ذات مرة عجوزا تجلس على درج أحد المساجد وتموت؛ على الجهة المقابلة من الميدان كان الناس يأكلون المثلجات والحلويات على شرفة أحد المقاهي. نحن الأوروبيين كنا نجوب الشوارع ونحن نركب السيارات أو العربات التي تجرها الخيل. إلى جوارنا وفي وسطنا كانت تتحرك العربات التي تجرها الحمير، والدراجات وألوف الحفاة والترامات المزدحمة بالبشر لدرجة أنها كانت تبدو كأسراب النحل. بالنسبة إلى البعض منا كانت هناك حرب تدور؛ لكن كان هناك بالتأكيد كثيرون ممن لم تكن لديهم أدنى فكرة عن طبيعة هذه الحرب، وعن أطرافها أو عن أسبابها، كانت تزأر بعيدا عن خشبة المسرح مثل أسد في مسرحية، بينما ينشغل الممثلون بأمور حياتهم. وطوال الوقت كانت الخلفية الرائعة تعكس التناقضات بصورة مخيفة، المشاهد التي تنتهي فيها بغتة حدود خضرة النيل الوافرة، بحيث ينتقل المرء من الحقول إلى الصحراء بخطوة واحدة؛ والتي ربما يكون أحد الآثار المتهدمة فيها يونانيّا أو رومانيّا أو فرعونيّا أو من القرون الوسطى أو قبطيّا أو إسلاميّا؛ ويعيش فيها فلاحون أميون متوسط أعمارهم ثلاثون عاما في أكواخ مبنية بين الأعمدة الشاهقة للمعابد التي نُقِشت فوقها الأساطير المعقدة لثلاثة آلاف عام مضت. لم يكن هناك أي تسلسل زمني للمكان، ولا منطق.

يقول المرشد: «انظروا إلى صورة رمسيس الثاني. انظروا إلى الملك وهو يقدم القرابين للآلهة. انظروا إلى زهرة عرائس النيل في الأعلى. انظروا إلى العمود المنقوش الرائع. عمره ثلاثة آلاف ومئتا عام، وارتفاعه ثلاثة وعشرون مترا. شاهدوا في القمة صورة فيكتوريا».

يقول الكاهن: «ننظر إلى ماذا ماذا، مصطفى؟».

«أرجو استخدام منظارك، يا سيد. انظر إلى أعلى هناك».

«أوه! لقد فهمت ما الذي تقصده. إنه يقصد الفيكتوريين. كتابة ونقوش على الجدران كتبها الرحالة الفيكتوريون. إنه أمر استثنائي، أليس كذلك؟».

تسأل واحدة من الفتاتين العاملتين في الفرع النسائي للجيش البريطاني: «كيف وصلوا هناك للأعلى؟». ويضج الباقون بالضحك. «لم يكن المعبد قد حُفر آنذاك، أيتها الحمقاء. كان مليئا بالرمال. كانوا يسيرون عند قمم الأعمدة». يخرجون إلى الشمس التي تُعمي الأعين مرة أخرى، تجاه العربات التي تجرها الأحصنة التي سوف تعود بهم إلى الأقصر، بينما يبقى توم وكلوديا في الظل الحار المظلم، مع رمسيس الثاني والكاهن جون فوسيت من أمرشام بمقاطعة باكنجهام عام 1859.

يقول توم: «دعينا نعد إلى الفندق. لم يتبقّ سوى ست ساعات على موعد القطار».

تقول كلوديا، وهي تحدق للأعلى: «ربما لا نعود هنا ثانية أبدا. فكر في الكاهن جون فوسيت، وهو يلقي مواعظه فوق رؤوسنا، آنذاك».

يقول توم: «فليذهب الكاهن جون فوسيت إلى الجحيم. أريد أن أذهب».

تقول كلوديا دون أن تتحرك: «أحبك».

«أعرف ذلك. لنعد إلى الفندق».

«في صباح الأربعاء ستكون في الصحراء مرة أخرى». «لا يفترض أن تفكري في ذلك الأمر».

«بل يجب عليَّ ذلك، حتى أستطيع التعامل مع الأمر».

ثمّة لحظات، في هذا المكان وفي هذا الوقت، تشعر كلوديا فيها بأنها

ليست مقيدة، لم تعد مرتبطة بالماضي أو المستقبل أو بأي عالم معروف، لكنها تتخبط على غير هدى في الكون. في الليل، تتأمل النجوم الملتهبة التي لا يمكن أن تكون النجوم نفسها التي تلتمع في السماوات الإنجليزية، وتشعر بالخلود، لكن بدلا من أن يكون هذا الإحساس موحيا بالسكينة، كان مثل حمًّى فظيعة، صورة نفسية من حمًّى الملاريا والتيفوئيد والزحار واليرقان التي تصيب الجميع في وقت من الأوقات في هذه القارة.

كان المرء يعيش حياته يوما بيوم. هذه بالطبع تفاهة، لكنها كانت تنطوي على حقيقة مبتذلة آنذاك. لم يكن مسموحا بذكر سيرة الموت، وكان يُستبعَد باستخدام كلمات رمزية، وبأسلوب الحياة اللامبالي الذي يقلل من أهمية قواعد التعامل. كانت السيدات اللاتي قُتِل أزواجهن في عمليات التقدُّم الأخيرة، يشاهَدن بعدها بأسابيع وهن يتصرفن بشجاعة بالغة بجوار حمام السباحة في نادي الجزيرة الرياضي. أتذكر أنني كنت أضحك بإفراط وأرقص وأشرب. كان الناس يدخلون حياتي ويخرجون منها مرة أخرى، أناس لم أرهم ثانية منذ ذلك الحين، وأناس كنت أعرفهم عن قرب: أصدقاء من مجموعة الصحافيين، رجال في إجازات من الصحراء، ملحقون في السفارة، أصحاب نفوذ في مقر القيادة العامة، والمشردون من أهل القاهرة نفسها، وقاطنوها القدامى، شرق أوسطيون محترفون يديرون البنوك والشركات، ينشرون الثقافة بالتعاون مع المركز الثقافي البريطاني أو اللغة الإنجليزية في المدارس والجامعات. أبطال الساعة، كل عميد وعقيد ورائد. شجعان من الجيش الثامن، كانوا يرتحلون مثل بارونات العصور الوسطى بين ميدان القتال والملذات المترفة في المدينة. كانوا يتركون دباباتهم ليعودوا بضعة أيام للعب البولو أو للصيد في الفيوم. كنت أعرف عقيدا ملتحيا يحتفظ بعشرة خيول بولو، وسائسين مصريين، وضابطا من سلاح الفرسان قليل الكلام، كان يحتفظ بقطيع من

كلاب الصيد في هليوبوليس لمطاردة الثعالب. كان شكل الحرب نفسها يؤكد التشبيه، عمليات حصار، جيوش تعسكر في خيام، عمليات هجوم ومناوشات، مد وجزر موسميان حسب ما كانت الصحراء نفسها تفرض التقدم أو التحصن بالخنادق. ومع تنامي أسطورة روميل[41]، كان الأمر وكأن «صلاح الدين» نفسه قد بُعث من جديد، العدو الماكر الشهم، لا يأخذ أسرى أحياء من العدو، لكنه في الأساس نبيل. كتبت مقالا عن الصليبيين الجدد، وأرسلته إلى صحيفة يسارية أسبوعية في لندن؛ وتلقيت ردًا لاذعا من محرر لم يتمكن من فهم وجه الشبه بين الطبقة العاملة البريطانية التي تم تجنيدها في الجيش وحاشية الملك من الإقطاعيين. حسنا، كان محقًا بالطبع، لكن في الوقت نفسه كان لا بد أن تكون ذا تفكير حَرْفي للغاية إذا لم تتمكن من رؤية أصداء ذلك الهجوم الأوروبي الآخر على الصحراء في هذه الحرب، ذلك التدفق الآخر للرجال والأسلحة إلى أرض غريبة. أرسلت المقال إلى غوردون، على سبيل المزاح، وألقى في وجهي ردّه بعد بضعة أشهر: «الرومانسية التقليدية لكلوديا». لم ألحظ أو أهتم؛ كنت أفكر في أشياء أخرى حينئذ.

وسط مجموعة الصحافيين، كانت الحرب هي شغلنا الشاغل بالطبع. كنا نقف في انتظار البيانات الرسمية، والبيانات الصحافية والإشاعات. كنا نطارد المقرَّبين من كبار المسؤولين في مركز القيادة العامة، ونخطب ود الملحقين الشباب الذين يتميزون بالفظاظة، ويمكنهم أن يساعدونا في الحصول على لقاء هنا أو تعليقات مرتجلة هناك. كنا نجلس ونحن نتذمر في مكتب الرقيب، ننتظر دورنا في العمليات المعقدة كالمتاهة حتى

(41) إرفين رومل (1891 - 1944): قائد عسكري ألماني كان يرى أنه من أمهر قادة حروب الصحراء في الحرب العالمية الثانية. هزمه الجنرال الإنجليزي مونتجمري في معركة العلمين بمصر. وبعد عودته إلى ألمانيا اعتقل بعد ثبوت تآمره على حياة هتلر، الذي خيره بين الانتحار أو الإعدام، فمات منتحرا بسم السيانيد، الأمر الذي لم يكشف النقاب عنه إلا بعد هزيمة ألمانيا وانتحار هتلر.

نرسل نسختنا إلى لندن، أو نيويورك أو كانبرا أو كيب تاون، فقد كنا نشكل حشدا صغيرا من جنسيات مختلفة، تماما مثل حشود القاهرة. ويجب عليَّ أن أعترف أنني مثل كاميلا الحمقاء التي كنت أتشارك معها الشقة، فقد عشت أياما مشهودة من المغامرات العاطفية. كنت واحدة من نساء قليلات للغاية فيما كان يعد بالأساس مجال عمل للرجال، وكنت أكثرهن جمالا، بالإضافة إلى كوني أكثرهن دهاء وذكاء، وأقلهن قابلية للتضليل، وأكثرهن غرورا.

يسأل: «وكيف تمكنت من الاحتيال حتى تحصلي لنفسك على منصب هنا؟».

تجيب كلوديا بحدّة: «بموهبتي الطبيعية». وتتمنى على الفور لو لم تفعل. كان ذلك تصرفا غير لائق من جانبها، فهذا أسلوب كلام رواد المقاهي الماكر، وهما ليسا في القاهرة الآن، بل في مكان ما في برقة، ويجلسان على صفائح البنزين يتناولان وجبة من لحم البقر المعلب والأرز بالحليب ومربى البرتقال. ينظر إليها توم سوذرن ثم يخفض عينيه لخريطته. يضع أحد الحاضرين بين يديها كوبا معدنيًا به شاي. تقول بتواضع: «أشكرك». فلقد تعلَّمَتْ في الاثنتي عشرة ساعة القصيرة التي قضتها هنا قيمة مثل هذا العرض.

الوقت حوالي منتصف الليل، والجو بارد للغاية. يجلسان خارج خيمة الصحافيين. في الداخل، يكتب النيوزيلندي على الآلة الكاتبة مقاله عن اللقاء مع القائد العام. حولهم في كل اتجاه، تتحرك أجساد سوداء على خلفية من الرمال الفضية، يتحركون جيئة وذهابا بين الأشكال الواضحة بالكاد للمركبات والخيام. السماء قبة سوداء ضخمة تتناثر خلالها نجوم براقة؛ والمؤشرات البيضاء الطويلة للأضواء الكاشفة تتجول عبرها؛ يشتعل الأفق بألسنة برتقالية؛ ترتفع الطلقات من مسدسات الاستغاثة حمراء وبيضاء وخضراء. في مكان ما بعدها، لا أحد يريد أن يخبرهم أين وعلى

أي مسافة تقع الجبهة، ذلك الهدف المراوغ المتغير، مفهوم من المفاهيم أكثر منه مكانا. يجلس الرجال منحنين وقد ارتدوا معاطف طويلة من الصوف أو فراء خراف رثة. ترتدي كلوديا سروالا وسترتين صوفيتين ومعطفا، ومع ذلك فهي ترتجف. جيم تشامبرز، الذي لحق بهما ثانية منذ ساعتين، يتثاءب ويعلن أنه سيخلد إلى النوم الآن. يبقى كل من كلوديا وتوم سوذرن وحدهما.

تقول: «الواقع أنني تمكنت من الوصول إلى هنا بإقناعهم بطريقة ما».

يطوي خريطته ويعيدها إلى جيبه.

يقول: «هذا هو ما توقعته». يبتسم. له تلك النظرة الثابتة من عينين محمرتين من قلة النوم مثل الآخرين كلهم. قبل بضع ساعات، استمعت كلوديا إلى رجل يتحدث بالنبرة المتأنية والحروف المتداخلة نفسها التي يتحدث بها، كما ظنت (وهي لا تكاد تصدق)، شخص ثمل. إلى أن أدركت أن ما تستمع إليه هو صوت الإرهاق. لم ينم كثير من هؤلاء الرجال طوال ليال بأكملها. كانت العملية الأخيرة التي قاموا بها منذ ثلاثة أيام مضت فقط.

يبدأ الحديث بينهما، لا عن التقدم، ولا عن الضربات، ولا عن العملية القادمة، ولكن عن زمان ومكان آخرَيْن. يقول توم سوذرن: «حينما كنت طفلا، كنت منبهرا بفكرة الصحارى. ومن ذا الذي يمكنه ألا يكون كذلك، وقد نشأ في أعماق ساسكس؟ نشأ الأمر كله من فكرة يوحنا المعمدان وهو يصرخ في البرِّية، والرسوم في إنجيل مدرسة الأحد، كل أولئك الأشخاص الذين يرتدون ملابس غريبة ومعهم الجِمال والحمير. أتذكر أننا صنعنا ذات مرة خريطة مجسّمة للأرض المقدسة من الطحين والماء، وكان البحر الأحمر ملونا بلون أزرق زاهٍ، وسيناء بلون أصفر فاقع. أحيانا وأنا أنظر إلى الخرائط في مقر القيادة أتذكر ذلك».

مضت على وجوده هنا ستة أشهر. كان يتدرب في الدلتا، والآن يقود فرقة دبابات. وشارك في عملية الأسبوع الماضي.

تقول كلوديا: «أقرب احتكاك لي بالصحراء هو شاطئ البحر في تشارموث. أنا وأخي كنا نجمع الحفريات هناك. نتشاجر بسبب الحفريات».

يقول توم سوذرن: «توجد حفريات هنا. لقد وجدت واحدة بالأمس. أتريدينها؟». يبحث في جيب زيه العسكري.

تقول كلوديا: «شكرا. إنها نجمة بحر، أليس كذلك؟ يا إلهي! لقد كان كل هذا المكان بحرا يوما ما آنذاك».

«أكيد أنه كان كذلك. وهذا يُشعِر المرء بضآلته بطريقة ما».

تقول كلوديا: «أجل. لا بد أنه كان كذلك بالفعل».

يجلسان وأيديهما تحيط بكوبَيِ الشاي. في داخل الخيمة ما زالت آلة النيوزيلندي الكاتبة تصدر ضجيجا؛ وما زال الأفق يزأر ويتلألأ؛ وأشكال آدمية غير واضحة المعالم تمر جيئة وذهابا عبر الرمال.

يقول توم: «أحتفظ بمذكرات مشفرة جيدا، بالطبع، في حال قُتِلت. لكن، يوما ما قد يرغب المرء في تذكُّر كيف كانت الأمور».

تسأل كلوديا بعد لحظة: «كيف هي الأمور؟».

يشعل سيجارة. يحملق فيها. وجهه، في ضوء القمر، ليس أسمر، لكن يميل للسواد. «هممم.. كيف هي الأمور؟ دعينا نرَ..». لكن قبل أن يكمل حديثه يظهر النيوزيلندي وهو يرتب أوراقه المكتوبة على الآلة الكاتبة، ويعرض عليهم زجاجة شراب. يقررون أن كلوديا (التي تعترض بالطبع) سوف تنام في الخيمة المخصصة للصحافيين، بينما ينام الباقون في الشاحنة. كان مقررا أن يذهب توم سوذرن ناحية الساحل في الغد ليجلب بعض الدبابات، وعرض عليهم أن يوصلهم.

ترقد كلوديا في كيس النوم داخل الخيمة. لا تتمكن من النوم جيدا.

رفعت فتحة الخيمة مرة، ونظرت للخارج عبر الرمال. هناك خيام أخرى حولها، صغيرة لدرجة أنه يمكنها رؤية أقدام شاغليها التي ترتدي البوط وهي ممددة خارج أطراف الخيام. في أماكن أخرى، ترقد أشكال آدمية وقد تدثرت بالأغطية وتستند إلى الشاحنات وسيارات الجيب. يصدر دخان هادئ من صفيحة بنزين تُستخدَم موقدا. تنقلب على جنبها، وتحتك نجمة البحر التي وضعتها في جيبها بوركها. تُخرجها، وترقد وهي تمسكها في كفها، وتتحسس بأصابعها من وقت لآخر الصخر الحبيبي، والأذرع الخمسة المتناظرة.

كلا، لم تعد بحوزتي. كنت أستخدمها ثقالة للورق في شقة القاهرة. كانت ترقد على الطاولة أمام النافذة المغطاة بالسلك التي كنت أكتب قبالتها، والتي كانت تطل على حديقة زاهرة بزهور الزينيا والجهنمية وزنابق القنا الحمراء. كان بستانيٌّ يعمل في الحديقة يكنس الممرات ببطء شديد طوال اليوم، أو يتجول بخرطوم ماء بين أحواض الزهور، بينما ترهقه صاحبة البيت الفرنسية. عندما رحلتُ، تركتُ لمدام شارلوت الأشياء الصغيرة التي كنت قد جمعتها، الصينية النحاسية التي اشتريتها من سوق من الموسكي، والمقعد الجلدي، وموقد الكيروسين. ربما كانت نجمة البحر في تلك الحديقة، تحدد أحد ممراتها.

كانت مدام شارلوت تشير إلى نفسها باعتبارها فرنسية. والواقع أن والدها كان لبنانيًا وكانت والدتها واحدة من تلك الشخصيات القاهرية ذات الأصول المعقدة مثل المدينة ذاتها. عجوز ضئيلة حمراء الشعر يبدو أن لغتها الأم هي الفرنسية، لكنها كانت تتحدث العربية والروسية أيضا، وشكلا غريبا من الإنجليزية. كانت هي وابنتها تقضيان أيامهما وهما تذبلان في غرفة مزدحمة بالأثاث قليلة التهوية، مليئة بالكراسي ذات الطراز الإمبراطوري والأرائك، وكانتا تخرجان لمضايقة الخدم، أو لإلقاء

نظرات فضولية على المستأجرين. كانت عينا مدام شارلوت الحادتان تنظران من وراء الشبك المعدني المصنوع من إطار خشبي قابل للطي الذي كان يعزل غُرَفهن الخاصة، بينما كان معجبو كاميلا يصعدون على الدرج وينزلون بصخب. وحينما كنا نستضيف الأصدقاء في شرفة شقتنا في المساء، كانت تتجول في الحديقة، تروي صفوف زهور الزينيا المتوهجة، وتختلس نظرات خفية للأعلى. كانت دائما ترتدي فساتين سوداء قبيحة، وفوقها سترة صوفية رمادية في الشتاء، وجوارب طويلة في صيف القاهرة الخانق. لم أسمعها أبدا تشير إلى الحرب أو إلى زوجها الذي لم يره أحد أو يسمع عنه شيئا. كان الاثنان، على ما أعتقد، مصدر إزعاج لها، تبقيهما بعيدا بتجاهل وجودهما. حينما عدتُ من تلك الرحلة إلى الصحراء أخبرتُها أين كنت، وواصلتْ هي الإشارة إليها على أنها «إجازتك الصغيرة». هل فكرت أبدا بما يمكن أن يحدث لها لو وصل الألمان إلى القاهرة؟ ستذوب هي ووالدتها بكل بساطة في مزيج الجنسيات المختلفة، على ما أعتقد. ستصيران شخصين آخرين، تغيِّران جلديهما لتلائما الخلفية مثل أولئك القاهريين القدامى الآخرين، الحرباوات التي تختبئ في أشجار الحديقة، بعيون منحرفة وذيول حلزونية، تزحف متخفية بين الأشجار بأيديها ذات الأصابع الثلاث، وتبدو وكأنها ترتدي القفازات.

لما عدتُ كنت مريضة. كنت أكتب على الآلة الكاتبة وحرارتي مرتفعة، ورشوت كاميلا بزجاجة عطر كي توصل الأوراق إلى مكتب الرقيب، ثم رقدتُ أرتعش في الفراش أسبوعا وأنا مصابة بالملاريا، وأتساءل عما إذا كان الأمر كله هلوسات من نسج خيالي بسبب الحمى.

ينشط المكان قبل الشروق بكثير؛ لكنه لم يكن نائما أبدا في الحقيقة. الوهج البرتقالي لنيران مواقد الطهي ينير ظلمة ما قبل الفجر. تتشارك كلوديا وجيم تشامبرز والنيوزيلندي ربع لتر من الماء للاغتسال. ومع

الشروق يظهر توم سوذرن من خيمة القيادة، حاملا حزمة من الخرائط والأوراق وهو يعلن أن عليهم أن يتحركوا. يصعدون إلى الشاحنة ويتولى توم القيادة، وكلوديا إلى جواره، والاثنان الآخران في الخلف. يرتدي جيم والنيوزيلندي الزي العسكري، الزي الروتيني المنتشر المتمثل في سراويل من القماش القطني السميك المضلع، وسترات عسكرية، ومعاطف. يطلب توم من كلوديا أن تثبِّت على نحو أوضح شارة المراسل الحربي ذات اللونين الأخضر والذهبي التي تضعها، «وإلا فستثيرين الشكوك أكثر مما تثيرينها بالفعل». يعتقد أنه قد يتمكَّن من الاحتيال حتى يحصل لهم على بضع دقائق مع الضابط قائد وحدة الدبابات التي قادت عملية الأسبوع الماضي. سينزلهم عند مهبط الطائرات بجوار الطريق الساحلي، حيث سيركبون للعودة إلى القاهرة. يتجادل جيم والنيوزيلندي فيما بينهما حول فرصهما في الحصول على شاحنة من مكان ما، ومحاولة الوصول إلى الجبهة. يقول جيم لكلوديا: «ليس أنت، يا فتاة، أخشى أنه سيتعين عليك أن تقنعي بالوصول إلى هذا الحد». لا تجيب كلوديا، وقد تشتت انتباهها بما تراه الآن، حشد من الرجال ذوي الهيئات الرثة يرتدون بزات عسكرية ممزقة، لونها أخضر يميل للزرقة، وهم يجلسون القرفصاء فوق الرمال، المئات منهم (تحاول أن تحصي عددهم سريعا، تقسمهم إلى مجموعات عشرية)؛ تسير الشاحنة وهي تتخبط وتتخطاهم، تنطلق مسرعة على طريق من الرمال الخشنة كالحصى، وفي مرورها ذاك يرقبهم الرجال بلا مبالاة، باستثناء القلة الذين ميزوا جنس كلوديا ويحملقون في دهشة. ينهض أحدهم واقفا، وبحركة صامتة متعمدة، يلقي إليها بقبلة. يضحك النيوزيلندي ويقول: «لا يمكنك أبدا أن تثقي بإيطالي لعين!».

إذا، فهذا هو العدو، تقول كلوديا لنفسها. هذا هو شكل العدو، الكثير من الشباب الإيطاليين الفقراء، متوسط أعمارهم حوالي واحد وعشرين

عاما. تقول: «لا تبدو عليهم مظاهر البؤس على وجه الخصوص». يقول توم: «هم ليسوا بائسين. إنهم سعداء للغاية لأنهم تخلصوا منه».

يتحركون طوال اليوم، ويعبرون خلال حطام العمليات السابقة الذي يتصاعد منه الدخان. هذه هي المنطقة التي تقدَّم فيها العدو الأسبوع الماضي، ثم تقهقر لاحقا. هذه المساحة الخالية الممتدة لألف ميل مربع قام من أجلها صراع لمدة خمسة أيام بلياليها؛ وتكلفت حياة بضع مئات من الرجال. وبقيت لم يمسها شيء، تقول كلوديا لنفسها. لقد بدأت الرمال بالفعل في ابتلاع بقايا المركبات المحطمة، وصفائح البنزين، ولفائف الأسلاك المتشابكة؛ بعد بضع عواصف أخرى سيغوص كل ذلك أسفل الرمال. وبعد بضع سنوات سيختفي كل ذلك تماما. تراقب توم سوذرن وهو منكب على خرائطه؛ هذه العلامات اعتباطية للغاية، الرمال لا حدود لها ولا تخوم ولا محيط.

تتحدث خلال اليوم مع عدد لا حصر له من الرجال. يتوقف توم سوذرن ليدير حديثا هنا، ويتبادل معلومات هناك؛ يضلّون طريقهم في هذه البقعة الخالية والمزدحمة من الرمال. عشرات المركبات تتحرك، يتخبط راكبو الدراجات النارية منفردين في طريقهم بإصرار عبر حطام الشاحنات والعربات المصفحة والشاحنات التي تحمل عشرات الأطنان في صفوف طويلة مهيبة، والدبابات المعطوبة التي تعاد إلى ورش الإصلاح في القاعدة، وسيارات الإسعاف وسيارات الجيب. أما الذين لا يتحركون فقد استقروا، وجثموا استعدادا للهجوم، في ترتيبات إقامة مؤقتة من أكواخ وملاجئ وحُفَر في الأرض. تجلس كلوديا القرفصاء فوق أحد الخنادق، وتتحدث إلى اثنين من الجنود كانا يصنعان الشاي في داخله. يناولانها كوبا. كانا من إحدى فرق المشاة، وأمضيا أسبوعين في الجبهة. كانا نحيلين وقويَّين مثل زوجين من كلاب الأوكار، وقد بدا أنهما يشعران بالراحة في

الأسفل هناك وسط الرمال (تعتقد كلوديا أن أسلافهما قد تغلبوا على نوع آخر من الطبيعة القاسية) ومع ذلك ينصحان كلوديا، بألا تنزل لتلقي نظرة، فقد «كان الإيطاليون الملاعين هنا، وهم لا يتذمرون كثيرا من ظروف معيشتهم». وبالفعل، تتصاعد رائحة المرحاض بينما تعيد كلوديا الكوب شاكرة، وتكتب ملحوظات ثم تنضم للآخرين مرة أخرى.

تتحدث إلى ضابط من إحدى فرق المشاة من اسكتلندا، وهو يحلق ذقنه بحرص بجوار خيمته، ويسألها عما إذا كانا التقيا من قبل في المدينة، يسأل: «هل هناك أي احتمال أنك تعرفين آل ويلوبي من بروك؟». تتحدث إلى أحد المهندسين العسكريين وهو يحذرهم كي يبتعدوا عما يُشتَبه أنه حقل ألغام في الوادي المجاور؛ يمكنها أن ترى على مبعدةٍ أشكالَ أشخاصٍ يفحصون الأرض بصبر، ياردة ياردة، ويضعون في الرمال علامات معقدة، مثل شباك العنكبوت، من الأشرطة والأعمدة. تتحدث إلى رجال يتكلمون باللهجات الريفية لجلوسترشير ووبنج وكنسينجتون. يقابلها من يبدو عليهم التحفظ، ومن يتدفق الكلام من أفواههم: جرى اجتياح مربض المدفعية الذي كان يرابط فيه هذا الرجل وكان الناجي الوحيد. يصف ما حدث باللغة الكئيبة المباشرة المميِّزة لتقارير الشرطة. وشخص آخر، جسده ملتهب من قروح الصحراء، لديه صديقة في القاهرة. هل يمكن أن تقوم كلوديا بإيصال رسالة إليها؟ تملأ دفتر ملحوظاتها بخربشات عَجلى. كانت الشمس قد أشرقت الآن، ويزحف الذباب بغضب على الأعناق والأذرع، والوجوه. وتستقر الرمال في الأنوف والأعين والآذان.

يتوقفون عند أحد مقرات القيادة. يمسك توم سوذرن بكاميرا كلوديا ويصرّ على تصويرها بها، وهي تستند إلى الشاحنة، تضحك وتحتج. يتناولون الغداء: لحم بقر معلبا وأكوابا من الشاي. المياه في القوارير التي يحملونها صارت الآن ساخنة سخونة الشاي. تجلس كلوديا في ظل

الشاحنة، وتكتب على الآلة الكاتبة بينما يتناقش توم ورائد حاد الطباع له شارب، يحملق نحوها بنظرات حذرة. تسمعه يقول: «مراسلون صحافيون؟ أخبرهم أن لديَّ الكثير من المشاغل الآن. آسف يا فتى». لكنه يذعن أخيرا، ويأتي ليقف بضع دقائق ليتبادل معهم الحديث وهو محرج. «أخشى أننا نعاني من وضع مقلق بعض الشيء الآن. لقد فقدت الاتصال اللاسلكي مع الضابط المسؤول عن قيادة الوحدة. لولا ذلك لتمكّنّا من تبادل الحديث». ينظر إلى كلوديا بشك. «هل يعتني رجالي بك بشكل لائق؟ لم أكن أعلم أنهم في القاهرة يسمحون للسيدات بالمجيء إلى هنا». يقول جيم تشامبرز: «إنهم لا يسمحون. الآنسة هامبتون لها طريقتها الخاصة». تبتسم كلوديا بابتهاج. يهز الرائد نفسه مثلما تفعل الكلاب، ويستدير ليعود إلى خيمته وهو يهرول.

يتركون هذا المركز الحضاري ويمضون قدما. يبتعدون الآن عن مكان التمركز الرئيس خلف خطوط الجبهة، وعن الطرق الأكثر وضوحا. يقل عدد المركبات التي يشاهدونها. يتوقّف توم سوذرن أحيانا كثيرة ليسترشد بخرائطه ويستخدم منظاره ويتفقد جهاز اللاسلكي. يتوجهون نحو الطريق الساحلي، ويمرون بمستودع إمدادات. يأخذهم الطريق عبر وادٍ ضيق؛ على الجانبين ترتفع الرمال على شكل تلال منحوتة يناهز ارتفاعها ثلاثين قدما، وتعيق الرؤية. بعض النتوءات الصخرية المتفرقة تترك أخدودا وخطوطا من الظلال السوداء، والبعض الآخر بياضا ساطعا قاسيا. تظهر نباتات صغيرة وطرية هنا وهناك؛ ذات مرة، عندما توقفوا ليحرروا الشاحنة من بقعة من الرمال الناعمة، رأوا آثار أقدام ثعلب صحراوي تتراقص لأعلى المنحدر.

عندما توقف توم في مرة لاحقة كي يسترشد بالخريطة استأذنت كلوديا، وذهبت تتسلق التل. يقول جيم تشامبرز: «التزمي بالتعليمات،

عزيزتي». تلوح بيدها، لا تبتعد أبدا عن مرأى مركبتك. عند قمة التل، تنتقي صخرة ملائمة، وتجلس القرفصاء على الرمال خلفها وتتبول. تنهض وترفع سروالها وتستسلم للغواية، وتسير بضع ياردات بعد التل إلى حيث يمكنها أن ترى الوادي التالي الذي يبدو أوسع وأعمق، وفيه ماء. على بعد مئة ياردة تقريبا يظهر حطام عربة مصفحة انقلبت على جانبها، وقد انخلع أحد محورَي عجلاتها. بجوارها ترقد جثة.

تتردد كلوديا. تسير بسرعة نحو الحطام. يرقد الرجل ووجهه للأسفل. شعره أشقر وخوذته المعدنية ترقد بجواره، جزء من رأسه متهتك ولونه أسود دموي، والرمال أيضا اصطبغت بالسواد، وإحدى ساقيه بلا قدم. يزحف الذباب في أسراب لامعة. وبينما هي تنظر إلى كل ذلك، تسمع صوتا من الجهة الأخرى للعربة المحطمة. تدور حول نفسها لترى، فتجد جسدا آخر مهشما، لكن هذا الجسد كان يتحرك. ترتفع يده فوق صدره ثم تسقط ثانية. يفتح فمه، ويصدر صوتا.

تنحني وتقول: «سأطلب المساعدة. هناك ثلاثة رجال معي، سأعود فورا. هل بإمكانك أن تسمعني؟ ستكون بخير الآن». لا تعتقد أنه يستطيع أن يسمعها على الإطلاق. إحدى عينيه مثل خليط عجيني بنفسجي، والرمال تحته سوداء داكنة، وقد تمزَّق نصف سرواله، وفي إحدى فخديه ثقب أحمر يمكنك أن تضع قبضتك بداخله، ويزحف منه صف من النمل.

تركض إلى قمة التل. تلوِّح وتصيح. يأتي الآخرون. يُخرج توم سوذرن منظاره. «لقد كنت هناك بالأسفل. أنت حمقاء لعينة. لقد اصطدموا بلغم. يمكن أن يكون هناك المزيد من الألغام». تقول كلوديا: «أنا آسفة. هناك رجل لم يزل على قيد الحياة». يرد توم: «ما زلت حمقاء لعينة. انتظري هنا.. تشامبرز، أحضر الضمادات من الشاحنة».

يتجه نحو الشاحنة، متتبعا آثار قدمَي كلوديا، وهو يحملق في

الرمال على كلا الجانبين. يتوقف مرة، يفحص شيئا ما، ثم ينهض ثانية. في نهاية المطاف يصل إلى العربة ويشير إلى جيم تشامبرز. يراقب كل من كلوديا والنيوزيلندي من التل.

يسألها النيوزيلندي: «هل أنت بخير؟».

ترد: «أنا بخير».

يعود الرجلان. يقول توم: «لقد بقي هناك يوما تقريبا، الفتى المسكين. لا بد أن دوريات البحث قد غفلت عنهم». ينظر إلى كلوديا. «من حسن حظه أنكِ اخترتِ تلك المنطقة بالتحديد. سوف أعود للشاحنة كي أستدعي وحدة الإسعاف باللاسلكي، وسننتظر حتى يصلوا. لقد فعلتُ كل ما بوسعي من أجله، إنه لا يستوعب الكثير، الفتى المسكين!».

تقول كلوديا: «آسفة لأني كنت حمقاء لعينة».

يتأملها: «حسنا، ما زلتِ بخير. لا تكرري فعل ذلك إذا كنت ترغبين أن تبقي هكذا».

الفصل الثامن

تقول الممرضة: «يا لها من نبتة جميلة! لقد جلبَتْها زوجة أخيك، أليس كذلك؟ لونها رائع. لا بد أنها إحدى تلك السلالات التي تعيش في بيوت زجاجية، على ما أعتقد. سأضعها بالقرب من جهاز التدفئة».

تدير كلوديا رأسها. تقول: «هذه نبتة بنت القنصل. إنها نباتات يصعب القضاء عليها. فهي تنمو في الرمال. يجب عليَّ أن أدعها لتغامر بحياتها مع بقيتنا».

تغرس الممرضة إصبعها في الأصيص وتهز رأسها: «لا يا عزيزتي؛ هذه مزروعة في نوع ما من الخث». ترفع الأصيص من إفريز النافذة: «هذا أفضل؛ لا نريدها أن تموت، أليس كذلك؟ سوف تنزعج السيدة هامبتون».

كلا، لن تنزعج. سوف تتهمني بأنني قتلتها. تقول ذلك بينها وبين نفسها، بالطبع، بصوت منخفض. لقد استمعت إلى الكثير من اتهامات سيلفيا الصامتة عبر السنين.

تصرُّف متوقع من سيلفيا أن تجلب نبتة بنت القنصل. وكأنها كانت تعرف. فالأشخاص عديمو الإحساس قادرون حتى على ارتكاب جرائم فظيعة غير مقصودة.

كان هذا المكان مستوطنة ساحلية صغيرة. صف من الحطام يشير إلى ما كان يوما فيلات صغيرة مكسوة بالجص الأبيض، ومقهى. تبقَّى جدار من جدران المقهى، وعليه إعلان شويبس، والبيوت المهدَّمة غطتها نباتات غزيرة، بقايا من زهور مجد الصباح الزرقاء الزاهية، وزهور بنت القنصل القرمزية المتداخلة مثل الدانتيلا. تقطف كلوديا واحدة منها، وعلى الفور

تصير أصابعها لزجة من العصارة البيضاء؛ تلقي بها على الرمال وتمسح أصابعها في سروالها. كانت الزهور تثير دهشتها. كانوا قد مروا للتوّ بمعسكر نبتت فيه أوراق زهور البَروَق وسيقان زهور المنتور بين الخيام؛ كان الجنود يسيرون بينها، وكان الجو عطرا.

يقول توم سوذرن: «لقد أمطرت في الأسبوع الماضي. لا بد أن البذور تبقى في طور السكون، على ما أعتقد».

تقول كلوديا لنفسها: تبقى شهورا أو سنوات، يا له من أمر غريب! والأغرب هو أن تقف هنا في هذا المكان وفي هذا الوقت تتحدث مع شخص ما عن علم النبات! كان الطريق الساحلي كنهر لا نهاية له من حركة مرور الآليات العسكرية المتدافعة والمدمدمة، قافلة وراء قافلة تتحرك غربا، تزحف بسرعة الجيش البطيئة التي لا ترحم، مدرعات وحاملات رشاشات، وشاحنات تزن عشرات الأطنان، وسيارات إسعاف، وعربات مصفحة. ووراءها كان البحر المتوسط يلتمع في منحنى أزرق كبير، وأشكال السفن الرمادية جاثمة في الأفق. كانت السماء تردد أصوات الطائرات.

يقول: «لقد سألت عن الوضع هنا. من أجل المقال الذي تكتبينه على ما أعتقد؟».

يجلسان الآن على الجدار المنخفض الذي كان يميز الباحة الأمامية للمقهى. رحل كل من جيم تشامبرز والنيوزيلندي إلى الجبهة، بعد أن احتالا للحصول على وسيلة مواصلات تُقِلُّهما. يسلم توم سوذرن كلوديا لرجل من القوات الجوية الملكية كان في طريقه إلى مهبط الطائرات، وعرض أن يُقِلّها على متن طائرة نقل في طريقها للعودة إلى القاهرة. كان الرجل قد قابل للتو أحد المسؤولين في مركز القيادة، ومن المنتظر أن يعود بعد قليل. وسوف يذهب توم، كي يتسلم دبابته، ويعاود الانضمام إلى

سريته، ويمضي قُدما مرة أخرى.

تقول: «كلا. كنت أريد أن أعرف بنفسي».

يتردد: «إنها أشياء كثيرة مختلفة مملة وغير مريحة ومرعبة ومثيرة. في تتابع سريع. يستحيل تقريبا وصف الأمر». ينظر إليها بتمعن: «آسف؛ أنا لست على ما يرام. يبدو الأمر وكأن الحياة كلها أصبحت كتلة مركّزة مريعة، تفعل أشياء مجنونة مع مرور الوقت. يمكن لساعة أن تبدو كيوم، ويمكن ليوم أن يبدو كساعة. حينما تنتقلين من حالة مزاجية إلى أخرى بهذه السرعة فإن العالم المادي يكتسب وضوحا مدهشا. لقد قضيت دقائق كاملة أتأمل تركيب صخرة أو سلوك حشرة». يصمت لوهلة: «قُتل سائقي في أول معركة لنا. كنا قد تدربنا معا. كان يوم ميلاده في الأسبوع السابق لمقتله. احتفلنا بعلبة من عصير الخوخ وزجاجة شراب. كان في الثالثة والعشرين. وفي اليوم نفسه، شاهدت أنا وهو سرابا فيه واحة كاملة، نخيل وأكواخ طينية وجِمال وأشخاص يتجولون. اعتقدت أنني أهلوس حتى قال: (رباه! سيدي انظر هناك! تقود سيارتك باتجاه تلك الأشياء وعندما تقترب تختفي، وتذوب أمام عينيك). لكن في مكان ما هناك، ثمة مكان يجسد رادعا وشيئا ينبغي تجنّبه، ويتابع سير أموره بتجرّد محكم وتام، ولا يتأثر بشيء. والآن أفكر في سائقي، العريف هايكرافت من نوتنجهام. وحينما ينال مني التعب، أتحرك مثل الميت الحي، الشيء الوحيد الذي يؤرقني هو أين ذهب؟ كيف لرجل أن يكون جالسا بجوارك في دبابة في يوم، ولا يكون موجودا على الإطلاق في اليوم التالي؟ كيف؟».

تغمغم كلوديا: «لا أعرف». تنظر إلى قدميه؛ إحدى قدميه التي اكتسى حذاؤها بطبقة من الرمال كانت تقف على زهرة بنت قنصل ضخمة زاهية، نجمة قرمزية لها زبد ذهبي في المنتصف.

«دفناه في ذلك المساء. أدى الكاهن عمله. ربما كان عليَّ أن أسأل

الكاهن أين ذهب العريف هايكرافت. سؤال لطيف محرج. لكن هل أنتِ ممن يواظبون على ارتياد الكنيسة؟».

تقول كلوديا: «كلا. لا أذهب إلى الكنيسة».

«لم أزعجك إذا. لا يمكنك أبدا أن تكوني على ثقة بالأمر. ثمة قدر مذهل من التقوى ينتشر هنا، قد يثير الأمر دهشتك. يُذكَر الرب كثيرا. وهو في صفنا نحن، بالمناسبة، سيسرك أن تعرفي ذلك، أو على الأقل، من الأمور المسلم بها أنه كذلك».

تسأل كلوديا: «هل سنفوز في الحرب؟».

«نعم. أعتقد ذلك. ليس لأن العدل سيسود، ولكن لأننا في نهاية المطاف نمتلك موارد أكبر. لا علاقة للحروب تقريبا بالعدالة ولا بالشجاعة، ولا بالتضحية أو الأشياء الأخرى التي ترتبط بها في العادة. هذا أمر لم أكن أعرفه. لقد أسيء تمثيل الحرب كثيرا، صدقيني. أُحسِنَت الدعاية لها بدرجة مخزية. أتمنى أنك أنت وأصدقاؤك تفعلون شيئا لتصحيح الوضع».

تقول كلوديا: «أنا أيضا أتمنى أن نفعل ذلك».

«رغم ذلك، أفكر في المؤرخين أكثر مما أفكر في المراسلين الصحافيين. أعتقد أنك لا تعتبرين نفسك مؤرخة. المؤرخون يركزون على العدالة والشجاعة والإحصائيات لأنهم لم يعيشوا في قلب الأحداث، وما إلى ذلك.. حينما تجدين نفسك مجرد بند إحصائي تبدو الأمور مختلفة تماما».

تقول كلوديا: «أجل. بدأت أرى هذا».

يسأل توم سوذرن: «ما الذي تفعلينه حينما لا تكونين مسافرة عبر العالم في خدمة الصحافة الحرة؟».

تفكر كلوديا في بضع إجابات. تشعر بالدهشة من موقفها. فليست الإجابات المحسوبة من خصالها. لا تريد أن تبدو متهورة أو حمقاء أو مراوغة أو مدعية. في النهاية، تقول: «لقد ألَّفت كتابين».

«أي نوع من الكتب؟».

تزدرد كلوديا لعابها، وترد: «حسنا.. أعتقد أنه يمكنك أن تسميها كتبا تاريخية».

يتأملها توم سوذرن. ويقول: «التاريخ. كنت كثير الاهتمام بالتاريخ فيما مضى. أعني أنني كنت أستمتع بقراءته. الواقع أنني كنت أتعمد البحث عنه. أعتقد أنني سأعود إليه في الوقت المناسب. أما في الوقت الحالي فلديَّ شعور مختلف. حينما يكون الزمان مليئا بالاضطرابات تدركين مع الأسف أن التاريخ حقيقي، وأنك جزء منه. من عادة المرء أن يعتبر نفسه محصَّنا من كل شيء. هذه واحدة من اللحظات التي تبدو فيها تلك الحصانة محض وهم. أود أن أعود إلى الأوهام».

لا تستطيع كلوديا أن تفكر في شيء تقوله. لا شيء على الإطلاق. تجلس على الجدار المتهدم لما كان يوما مقهى ساحليًا صغيرا. تمر القوافل أمامهم بضجيجها، ومن ورائهم يلتمع البحر؛ تتحرك أشكال قذرة بلون الكاكي جيئة وذهابا. ترى بطرف عينها أن أحد تلك الأشكال يقترب منهما. تفترض أنه رجل القوات الجوية الملكية الذي سيصحبها إلى مهبط الطائرات. تنظر إلى توم سوذرن؛ قبل ثمان وأربعين ساعة لم تكن قد رأت هذا الرجل. والآن تجد نفسها مهتمة على نحو مثير للقلق أن تكون فكرته عنها جيدة.

تقول: «لا أعرف ماذا أقول».

يضحك: «إذا، التزمي الصمت ودوني الملحوظات. أليس هذا ما جئت إلى هنا من أجله؟».

يصيح الرجل الذي يقترب منهما: «مرحبا».

ينهض توم سوذرن: «ها هو من سيوصلك، على ما أعتقد». يمد لها يده مصافحا. «أتمنى لك رحلة عودة طيبة إلى القاهرة».

يتصافحان. تقول كلوديا: «شكرا لك على كل ما فعلته».

يقول توم: «كله من مهام عملي». يسود الصمت.

تبدأ كلوديا: «ربما..».

لكنه يقاطعها: «ربما نلتقي. آخذ إجازة؟».

الحروب يخوضها الأولاد. يفكر فيها الكبار من الشياطين، ويخوضها الأولاد. أقول هذا الآن، وأنا أشعر بالاستغراب بسبب صغر سن الناس، ناسية أنهم ليسوا هم الصغار، لكنني أنا التي تقدمتُ في السن. مع ذلك، فإن الوجوه على الجبهة الروسية، الملايين من الألمان والأوكرانيين والجورجيين والتتار واللاتفيين والسيبيريين القتلى، هي كلها وجوه الشباب الممتلئة الغضة. وكذلك وجوه قتلى معركة السوم ومعركة باشنديل[42]. يتقدم الباقون منا في العمر، ويُخبر بعضنا بعضا بما حدث حقًا؛ وهم، بالطبع، لن يعرفوا أبدا، كما لم يعرفوا شيئا آنذاك. تمتلئ ملفات مكتبات الصحف بتلك الوجوه الطفولية، وهم يضحكون بمرح من فوق ظهر السفن التي تقل الجنود، ومن نوافذ القطارات، ومن النقالات. في رحلة البحث عن الحقيقة والوقائع، وفي ممارستي لمهنتي، تأملتُهم وفكرتُ في مدى تقلب الوقائع أو الحقيقة التي تجعل تلك الوجوه تتغير تبعا للعين التي تراهم. لم يكن أولئك الذين رأيتهم عام 1941 فتيانا.

ولا أرى اللون الرمادي لقصاصات الصحف القديمة. في عين العقل، أرى الألوان الملتهبة الزاهية لبلد حار، وكأنني ما زلت أراها وأنا أضيِّق عينَيَّ من الوهج، منبهرة من تلك الشمس القاسية، وأتحرك وسط طبيعة تلتمع تحت وهج الحرارة. السراب.. حسنا، العالم المنعكس في المرآة، والواحة المندثرة، إنها في رأسي أنا الآن، وليست في رأسه، وهو معها.

(42) معركة خاضها الحلفاء في الحرب العالمية الأولى من يوليو حتى نوفمبر 1917 ضد الإمبراطورية الألمانية للسيطرة على التلال الواقعة إلى الجنوب والشرق من مدينة إيبرس البلجيكية.

بعد أن عدت من الصحراء، كنت مريضة. تعافيت وخرجت مترنحة في القاهرة مرة أخرى، وقد فقدت حوالي ثلاثة كيلوجرامات من وزني، تُلاحقني الصيحات المتعجرفة من مدام شارلوت ووالدتها اللتين تنبأتا بموتي خلال شهر لو لم ألتزم بفترة النقاهة المتعارف عليها. لم يكن هناك وقت كافٍ كي أقضيه في المرض. وعلى أي حال، كان عدد كبير من الأوروبيين مرضى بدرجة خفيفة معظم الوقت. كتبتُ عن تجربتي في الصحراء (ثلاثة أيام، ثلاثة أيام تافهة لكنها كانت مع ذلك أكثر مما حققه بعض زملائي من الرجال)، وأزعجتُ مكتب الرقيب، وأمطرت على كل محرر كان يخطر على بالي وابلا من الأسئلة. وفي تلك الأثناء كانت الأسابيع تمر في السلسلة المعتادة من الإشاعات، والحديث عن هجوم جديد، وعن انسحاب آخر، وعن وصول هذا اللواء أو ذلك الدبلوماسي. كنت دائما أتسكع في الردهات، أنتظر الفرصة للحديث مع هذا أو ذاك، أو أجلس مصغية تماما في المقاهي والمطاعم، أو بجوار حمامات السباحة، أو في الملاهي الليلية. كانت لدي سيارة قديمة من طراز فورد، كنت أتنقل بها عبر الطرقات المغبرّة المليئة بالحفر، أقودها حتى هليوبوليس أو الأهرامات، أو إلى المعادي أو إلى المطار حتى أكتب عن تفاهات أكابر القادمين. كنت مشغولة لدرجة تمنعني من التفكير في شيء باستثناء ما كنت أفعله. لذا فوجئت إذ هاتَفَني توم سوذرن.

كان الدب القطبي، بخاصرته الصفراء الداكنة التي ترتفع وتنخفض، وبفرائه ذي الخصلات المعقدة مثل حشائش مقصوصة بصورة رديئة، يرقد في حوض من الماء القذر.

تقول كلوديا: «هذه قسوة». إنه شهر مايو؛ ودرجة الحرارة تصل إلى سبع وثلاثين مئوية.

يقول توم: «دائما ما يمكنك الحكم على درجة تحضر بلد ما من خلال أسلوب معاملة الحيوانات. والشرق الأوسط يقع في أدنى منزلة رأيتها حتى الآن».

تقول كلوديا: «لا يمكنني تحمُّل هذا.. هيا نذهب لنبحث عن بعض الأسود».

كانت حديقة الحيوان مصممة على طراز حديقة فرنسية؛ أزهار الزينيا والبيتونيا حبيسة في أحواض هندسية الشكل، والطرقات المفروشة بالحصى، المنظَّفة بعناية، تحدّها أقواس متداخلة من الأسلاك، وتوفر أكشاك صغيرة مزينة مقاعد ظليلة للمربيات اللاتي يثرثرن ويحبكن الصوف، واللاتي يرافقن الأطفال الأوروبيين الذين يركضون هنا وهناك وهم يتصايحون بالفرنسية أو بالإنجليزية. وضعت عربات الأطفال تحت أشجار النخيل والكازارينا. في مرورهما تحملق بهما فتاة لها عينان صغيرتان تلتمعان، وترتدي ثوبا أزرق، وشرائط شعر باللون نفسه، وجوارب بيضاء قصيرة. تصدر صيحات وأصوات، كأنها من الغابة، من الطيور والحيوانات الحبيسة بين الأشجار والشجيرات؛ كل شيء كتبت عليه بياناته بالإنجليزية والفرنسية والعربية. كان هناك فيل يمشي عبر الممرات مع حارسه؛ لو أعطيته عملة بقيمة خمسة قروش فسيحييك ثم يعطي العملة لحارسه الذي يضحك ويحييك أيضا. تتشارك حيوانات فرس النهر مع طيور الفلامنكو وأنواع مختلفة من البط بحيرة صغيرة؛ يقف إلى جوارها حارس يحمل دلوا مليئا بالبطاطا؛ مقابل خمسة قروش يمكنك شراء حبتي بطاطا، ثم تلقي بهما داخل فم فرس النهر الوردي. يسبح الكبار من حيوانات فرس النهر وأفواههم مفتوحة على الدوام، أما الصغيران اللذان لم يفهما الفكرة بعد، فيسبحان بعصبية جيئة وذهابا، وتصطدم بهما من حين لآخر حبات البطاطس التي أخطأت طريقها.

يقول توم: «هذا مثل شكل غريب من أشكال اللعبة التي تقومين خلالها بإلقاء حلقات حول جوائز للفوز بها. أتريدين أن تجربي؟».

تقول كلوديا: «هل تعلم أن البطاطا تُعَد من الكماليات هنا؟ لا أتذكر متى كانت آخر مرة أكلت فيها البطاطا. نحن نستخدم البطاطا الحلوة. بطاطا مهروسة، بطاطا مشوية، بطاطا مسلوقة. وتسعون في المئة من السكان لا يتوفر لهم حتى هذا!».

يقول توم: «يا للأسف! هل سيفسد الغضب يومك؟ على الأقل حيوانات فرس النهر تشعر بالسعادة، على ما أعتقد».

لكن كلوديا تعلم أن لا شيء يمكنه أن يفسد يومها، لا الحرارة ولا ألم لدغة الحشرة الملتهبة على ذراعها، ولا علمها أن اليوم سينتهي ويجيء بعده الغد. كانت تنتقل من دقيقة لأخرى؛ وكانت تشعر أنها في حالة من النعيم. تقول لنفسها: اهدئي. لمجرد أن هذا لم يحدث لك أبدا من قبل، ولمجرد أنك بلغت الحادية والثلاثين من العمر دون أن تختبري هذا النوع الغريب من الجنون. من المؤكد أنه جنون؛ فقط بالتحكم الصارم في نفسها كانت تستطيع الامتناع عن النظر إليه ولمسه.

يمران عبر حظائر فيها غزلان ووعول، وأقفاص قرود وطيور، حتى عرين الأسد الذي تفوح منه رائحة كريهة. تمشي طيور أبو مركوب الرمادية عبر الممرات، أو تقف كالتماثيل على ساق واحدة بجوار المربيات اللاتي يحبكن الصوف. يتفقد بستانيون معهم خراطيم مياه أحواض الزهور؛ وتفوح رائحة قوية للتربة الرطبة. يقول توم: «منذ ثلاثة أيام، كدت أتشاجر مع رجل بسبب آخر صفيحة مياه في أول عربة لجلب المياه نراها خلال يومين. لكن هذا كان في زمان ومكان آخرين. هنا بلد خيالي مجنون من نوع ما».

من حديقة الحيوان يستقلان عربة تجرها الخيل حتى النادي. وفي

النادي يوجد الأطفال الذين يراقَبون مراقبة أشد، ومساحة من الحشائش تكلفت كميات طائلة من المياه والعناية المكثفة، وفي كل مكان ترتفع الأصوات الإنجليزية المشرقة المليئة بالثقة. يبدلان ملابسهما، ويرتديان ملابس السباحة، ويجلسان بجوار حمام السباحة أسفل شمسية، وبين روائح كريم نيفيا الواقي من الشمس؛ يجلب لهم نادل مشروبات في أكواب طويلة تتصادم بها مكعبات الثلج. حمام السباحة له لون تركوازي زاهٍ، وموزاييك من الضوء المبهر المنعكس الذي يتكسر كل بضع دقائق إذ يقفز أحد السباحين من إحدى منصات الغطس. مع مرور الوقت تقفز كلوديا وتوم في الماء، حيث تحل رائحة الكلور محل رائحة النيفيا. تطفو كلوديا على ظهرها وتراقب توم وهو يصعد إلى أعلى منصة غطس. يقف، هيئة سوداء أمام سماء حادة الزرقة، واللوح ينثني تحت ثقله؛ لا يمكن التعرف عليه من هذه المسافة، هيئته مجرد هيئة إنسان؛ رأس، جسد، وساقان منفرجتان بالأسفل. تتمتم وهي تطفو هناك: «حيوان مسكين عارٍ ذو ساقين منفرجتين»، وتضحك وهي تعاني من السكر بعض الشيء من أثر الشراب وماء التونيك. يقول سباح عابر، ورأسه ذو الشعر الأملس مثل الفقمة مائل على أحد الجانبين: «عفوا؟»، ترد كلوديا: «لا شيء. لا شيء على الإطلاق». ثم يفرد توم قامته على منصة الغوص، ويقف على أطراف أصابعه، يرفع ذراعيه، ويتقوس للأسفل؛ يظهر على سطح الماء بجوارها بعدها بلحظة، وهو يبصق الماء، ولم يعد عالميًا، ولم يعد رمزا، بل مجرد هيئة أخرى محترقة من الشمس وسط المياه المتلألئة.

ومع الوقت تتحول فترة ما بعد الظهيرة الطويلة الحارة إلى المساء الطويل الحار. يسأل توم: «هل أنت منشغلة؟ كنت أتساءل عما إذا كان بإمكاننا أن نتناول العشاء». ولم تكن كلوديا منشغلة (ولن تكون مشغولة في المستقبل القريب، خلال الأيام الثلاثة أو الخمسة أو أيًا ما

كان عدد أيام إجازته). يتناولان العشاء. يسيران بحذاء النيل، حيث تسبح أشرعة مراكب الفلوكة البيضاء في الغسق، وتأتي طيور البلشون الأبيض من الدلتا لتجثم بجوار الجسر الإنجليزي، حتى تصير الأشجار بخضرتها المائلة إلى الرمادي مرقَّطة، وكأن الزينات معلقة فوقها. يتكسر اليوم كأشعة الضوء، واليوم التالي، والذي يليه، كلها تكسرت إلى مئات الأجزاء المختلطة، وكل جزء لامع ومستقل بذاته، بحيث لم تعد الساعات تسير بطريقة خطِّية، ولكنها باتت مختلطة مثل حبات حلوى زاهية في قارورة. في لحظة من اللحظات يستندان إلى سور القلعة، بينما تمتد تحتهما بالأسفل المدينة المترامية الأطراف ذات اللون البني الرمادي بمآذنها، والأهرامات تبدو مثل رقاقات رمادية في الأفق. في لحظة أخرى يقفان عند سفح الهرم الأكبر، تزاحمهما الجِمال والحمير المزينة بالشرَّابات والخرز والسروج المزخرفة باللونين الأحمر الداكن والبرتقالي؛ مقارنة بكسوة الحيوانات المزركشة. تبدو حشود السياح جموعا رتيبة. يرتدون الكاكي والكحلي والزي المعتاد للأوروبيين في الجو الحار، الأبيض أو البيج المائل للأصفر. كانت منطقة الأهرامات مزدهرة بالأعمال؛ كانت تشرف على منطقة تجارية صاخبة، بإمكانك أن تشتري البطاقات، ومِنشَّات الذباب، وأن تمتطي ظهر حمار اسمه تليفون أو شوكولاته أو صودا، أو أن تتسلق برفقة مرشد حتى قمة الهرم الذي تتناثر فوقه هيئات أشخاص يتحركون في دأب.

يقال إن الأمر يستغرق أربعين دقيقة لمن يتمتعون بلياقة بدنية جيدة. من المفترض أن أغلب المتسلقين هكذا بالفعل، وقد اشتدت أعوادهم بسبب حياة الصحراء. يبدو غريبا لكلوديا أن رجالا منشغلين بالمشاركة في أكبر الحروب على مر التاريخ يقضون أوقات فراغهم في تسلق جبل صناعي أثري.

تقول: «كلا، شكرا. أشك في أنني سأنجح في الصعود على أي حال. فلتذهب أنت».

يقول توم: «ليس أنا. سأصاب بالهلع وأسقط. يا لها من نهاية مخزية. ماذا ستقول وزارة الحربية لوالدي؟».

لذا يسيران نحو أبي الهول عوضا عن ذلك. يقول توم: «حسنا. ها هو. ليس مجرد قطعة أدبية ننغمس في متعة قراءتها. بل هو حجر صلد. حينما تنتهي الحرب هنا سوف أطلب تعييني في الهند. كل هذا التأمل في الماضي يساعد العقل على التركيز بصورة رائعة في أوقات مثل هذه».

تسأل كلوديا: «متى ستنتهي الحرب هنا؟».

يهز كتفيه، قائلا: «من يدري؟ لا أعرف أكثر مما تعرفين أنت».

وفجأة، يمسك بكلتا يديها. يقول: «ليس بعد. ليس بعد».

كان يرقد بجوارها نائما. في ضوء الغرفة الخافت، تستطيع بالكاد تمييز الأشكال المألوفة لخزانة الملابس ومنضدة الزينة، والكرسي، والآن هذا الجسد الطويل غير المألوف في فراشها. كانت الساعة الواحدة صباحا. خلف مصراع النافذة، كانت حدائق الجزيرة تضج بأصوات الحشرات، وقطة تموء. كان عليها أن توقظه بعد قليل، وكان عليه أن يعود إلى فندقه؛ لأن حواس مدام شارلوت الحادة بالتأكيد ستكتشف وجوده في الصباح؛ لذا، بطبيعة الحال، سيتوجب على توم وكلوديا التسلل ليهبطا الدرج الحجري، ويفتحا الباب الأمامي الثقيل بحرص. أما الآن، فتكتنز كلوديا الدقائق، وتتأمله.

كانت بشرته محترقة من الشمس؛ لدرجة أن الأجزاء التي لم تتعرض للشمس كانت تبدو شاحبة بصورة غير طبيعية. كانت تلتمع في الظلام، قدماه وإبطه وردفاه، وأكثر من أي شيء منفرَج ساقيه. كان اللون يتغير عند السرة. كان أعلاها بني اللون، وأسفلها رجل آخر، وكأنه إحدى

القشريات التي تؤوي صدفتها القاسية كائنا مختلفا، ناعما وضعيفا، يحتمي بها. بشرة بيضاء، وشعر أسود ملتف. تمد يدها وتضعها عليه؛ لا يستيقظ لكنه يرتعش لملمسها.

كان قد اقترب منها قبل ساعة مضت. وبعد أن أخطأ في تفسير ما بدا له على أنه هلع في عينيها، قال: «أنت لست.. كلوديا، أنا لست الأول؟». لم تستطع التحدث، فقط مدت له ذراعيها. لم تستطع أن تقول: «لست خائفة منك أنت، بل من مشاعري».

ترفع يدها عن جسده وتلمس ذراعه. وتناديه: «توم.. توم».

تعرض دور السينما الرئيسة أفلام «بياض الثلج - Snow White»، و«الطريق إلى ريو - Road to Rio»، وفيلما للممثلة سونيا هيني. ثمة حفل في حديقة لصالح جمعية خيرية تدعم الجنود وأسرهم، وكان الكورال يؤدي صلاة العصر في الكاتدرائية. كان جروبي يقدم شاي ما بعد الظهيرة، وفندق شيبرد يقدم غداء يوم الأحد على الطريقة البريطانية. وكان النادي يتيح حضور سباق أو مباراة بولو.

يقول توم: «لا. لا شيء من تلك الأشياء. اليوم أريد أن أرى بعضا من هذا المكان، لو كان أي شيء منه لا يزال ظاهرا تحت كل آثار الحرب».

وهكذا يتجولان في شوارع القاهرة المزدحمة الصاخبة، حيث رائحة الحيوانات والبشر والكيروسين والقهوة، والبالوعات والذرة المشوية وزيت التحمير، مثل رائحة أوراق الشجر المتعفنة. يسألها توم: «هل تريدين خاتما على شكل خنفساء؟ بساطا من السدو؟ جلابية؟ مقعدا جلديّا عليه رأس الملكة نفرتيتي؟ أريد أن أهديك شيئا. دعينا نجد شيئا تنظرين إليه بعينين مبللتين بالدموع حينما أرحل. لكنك لست من ذلك الطراز من الفتيات، أليس كذلك؟ لست متأكدا على الإطلاق أي طراز من الفتيات أنت. تبدين مستقلة بذاتك. مكتفية بذاتك؟».

تغمغم كلوديا، وهي تنظر داخل المغارة السوداء الصغيرة لأحد المتاجر، التي يشير إليها المالك من أعماقها وهو يعرض عليها عددا قليلا من النعال الجلدية: «إلى حد ما».

يقول: «آه! حتى لو كانت العينان المبللتان بالدموع غير مطروحتين للنقاش، فهل يمكنني التلميح إلى نفسي بطريقة ما، إذا؟». كان بائع النعال قد خرج من مخبئه وكان يحاول الإمساك بقدم كلوديا ومعه شريط قياس. تقول: «لا. لا، شكرا». «إنه رخيص. رخيص جدّا. أنا أعطي سعرا جيدا». «نعم، أنا متأكدة، لكن بالرغم من ذلك لا أريد». كان قد أمسك بكاحلها الآن. يقول توم: «هذا يكفي. لا نريدها. امشِ..». وبعدها: «رباه! لماذا نتحدث إلى أولئك الناس بهذه الطريقة؟ الكلمات العربية الوحيدة التي أعرفها هي كلمات الأوامر والشتائم». تقول كلوديا: «كان الناس يحدثونهم بهذه الطريقة طوال قرون. أعتقد أنهم اعتادوا الأمر». يقول: «على الرغم من ذلك، سيكون شيئا مثيرا للرضى أن يبتعد المرء عما هو مألوف». تقول كلوديا: «لقد اعتدنا نحن أيضا على ذلك الأمر». يرد: «بعضنا أقل اعتيادا من الآخرين، أو نتمنى أن نكون كذلك».

يسألها: «مشبك للزينة؟ مشبك زينة من الفضة المفرغة؟ زجاجة من عطر يدعى سر الشرق؟ ثقالة ورق من النحاس على شكل هرم؟ لا بد أن هناك شيئا ما أنت بحاجة إليه. فلتحققي لي رغبتي. تقديم الهدايا هو واحد من أكثر الأمور التي نفعلها بدافع التملُّك، هل تعرفين ذلك؟ إنها طريقة نُحكِم بها قبضتنا على الآخرين. نزرع أنفسنا في حياتهم».

تقول كلوديا: «أريد واحدا من هؤلاء». لذا، يشتري لها خاتما. خاتما معقدا تعلوه علبة صغيرة لها غطاء مخروطي الشكل يفتح بمفصلة. يقول البائع: «يسمَّى خاتم السم لأعدائك». ويعلق توم: «وكأنه خرج مباشرة من ألف ليلة وليلة! هل أنت متأكدة أن هذا هو ما تريدين؟ أي أعداء

لديك؟». لكن كلوديا تجيب بنعم، هذا هو ما تريد. يجثم الخاتم بثقله على إصبعها. ولاحقا، في ذلك اليوم - أو ربما اليوم الذي يليه - ملأ توم الصندوق الصغير بالرمال من هضبة المقطم التي قادوا سيارة الفورد نحوها. كان الوقت مساء، الوقت الذي تبدو فيه هضبة المقطم، لمن ينظر إليها من القاهرة، بلون أرجواني فاتح. تقول كلوديا إن الرمال يجب أن تكون زرقاء، لكنها ليست كذلك، بل كانت باللون الأصفر البرتقالي الباهت الذي للرمال في كل مكان.

يبدو النيل ليلا وكأنه مرصع بالمجوهرات. تتحلى الجسور بعقود من الأنوار الملونة؛ وعلى طول الشاطئ تشتعل البيوت العائمة بالأنوار وقد تكلَّلت بالذهب، وتتألق على صفحة الماء الداكن المتراقص بتموجاته. كان أحد هذه البيوت العائمة ملهى ليليّا؛ كان يضج بالموسيقى حتى الساعات الأولى من الصباح.

يقول توم: «يقول إنه لا توجد لديهم طاولات خالية».

تقول كلوديا: «أعطه خمسين قرشا؛ حينئذ، ستكون هناك طاولة بمعجزة».

يجلسان وقد انحشرا بين مجموعة من ضباط سلاح الفرسان (لا يسمح بدخول أصحاب الرتب الأخرى)، وممرضات من مستشفى هليوبوليس؛ كان الضباط يتبادلون إلقاء أرغفة صغيرة مستديرة على بعضهم، وفي لحظة ما يرتفع صوت بعضهم وهم يرددون أغنيتهم المدرسية القديمة. كان البرنامج الترفيهي للملهى يشمل راقصة منهكة متقدمة في السن؛ ضجَّت الممرضات بالضحك. هناك أيضا مطربة ملأت الليل بصوت قوي بالأغاني العربية الحزينة الشائعة. قام أحد الضباط، وهو ثمل يترنح، باختطاف الميكروفون بعد أن انتهت من الغناء وقدَّم محاكاة ساخرة وهو يمسك ببطنه ويقلّب عينيه في محجريهما. ووقف مقدم الفقرات جانبا وهو يبتسم بإحراج بينما كان باقي الضباط يضجون بالضحك.

يقول توم: «أعتقد أنني نلت كفايتي من كل هذا. واضح أنني أقل منك تأقلما مع الأمر».

تلوِّح لهما كاميلا، واحدة من المجموعة المبتهجة التي تتفاوض الآن لدخول المكان.

يسأل: «من هذه؟».

تجيب: «فتاة أتشارك معها شقة. دعنا نذهب، إذا. يمكنهم أن يأخذوا طاولتنا».

يتوقفان على الجسر، ويستندان إلى السور لينظرا إلى النهر بالأسفل. هناك القليل من حركة المرور في تلك الساعة، فقط صوت ترام متأخر من وقت إلى آخر، وبضع سيارات، وأصوات حوافر الأحصنة التي تجر العربات. استمر صوت الملهى الليلي، الذي كان على مسافة مئتي ياردة في اتجاه مجرى النهر، في التردد. يقول توم: «هناك لحظات تبدو لي فيها هذه المدينة أكثر غرابة من الصحراء». تقول كلوديا: «لا أعتقد أنني قد استوعبتها بعد. ربما كان ذلك شيئا يحدث في مرحلة متأخرة لاحقا».

يقول: «أعتقد أنك ستؤلفين كتابا عن كل هذا حينما ينتهي الأمر».

تجيبه كلوديا قائلة: «كلا».

«كيف يمكنك أن تكوني متأكدة من الأمر لهذا الحد؟ معظم زملائك من مجموعة الصحافيين يحتفظون بما يلزمهم لذلك الآن، يمكنك رؤية ذلك».

لماذا هي متأكدة لهذه الدرجة؟ لا تعرف. فقط تعرف أنها متأكدة.

تقول: «لو لم تنشب الحرب لألفّتُ كتابا ضخما عن دزرائيلي».[43]

«آه! عوضا عن ذلك فإنك تتعرضين لجرعة مكثفة من الحياة الواقعية.

(43) بنيامين دزرائيلي (1804 - 1881): رجل دولة بريطاني من حزب المحافظين. شغل منصب رئيس الوزراء مرتين ولعب دورا رئيسا في تشكيل حزب المحافظين الجديد.

حسنا، سيظل دزرائيلي موجودا دائما بعد أن تنتهي الحرب».

بعد قليل، تقول كلوديا: «ماذا ستفعل أنت بعد أن تنتهي الحرب؟».

ينظر إليها، ثم إلى صفحة الماء، ويقول: «هذا يعتمد على أمور كثيرة».

يمسك يدها، ويتابع: «دعينا نتحدث عنها في وقت ما. لكن ليس الآن».

الفصل التاسع

لم يعد بمقدورك أن تتسلق الهرم الأكبر. هناك لافتة تحذيرية بالإنجليزية والعربية، تقول: «لا تتسلق الأهرامات». تساءل الرجل القادم من تكساس: «هل هم مصابون بالجنون؟ من عساه يفكر في شيء كهذا في مثل هذه الحرارة؟». هززت كتفيَّ وأخبرته بأن الأمر كان رياضة لها شعبية في القرن التاسع عشر. قام جوستاف فلوبير[44]، من بين آخرين، بالتسلق. «حقًا؟ بالملابس التي كانوا يرتدونها آنذاك؟». تسللت نبرة من عدم الرضى إلى صوته؛ حملق في سطح الهرم المائل الشاسع بدرجاته. كان يشعر، كما عرفت، بأنه خُدِع بطريقة غامضة؛ لو أن تسلُّق الهرم كان متاحا في وقت ما، فما كان عليه أن يُحرَم هو منه. كان سيبذل جهدا للتسلق، كما فعل من قبل، من نصف ساعة مضت، حين رفع نفسه بصعوبة وحذر على ظهر جمل. كان دائمًا مستعدًا لخوض تجارب جديدة؛ كان يعجبني ذلك فيه.

ولم تعد هناك بيوت عائمة راسية على شاطئ النيل. ولم تعد طيور البلشون الأبيض تحط بجوار الجسر الإنجليزي، واختفت ملاعب البولو. شعرت بأنني حيادية تماما حيال كل هذه الأمور. لا أعتقد أنني كنت أتمنى أن أجدها. تماما مثلما لا يمكننا الوصول إلى شخوصنا السابقة، يجب ألا نتمكن من الوصول إلى ما كان يحيط بتلك الشخوص. على أي حال، كان وجهي سيمتقع من فكرة محاولة شرح لعبة البولو لذلك القادم من تكساس.

---

(44) جوستاف فلوبير (1821 - 1880): روائي فرنسي درس الحقوق لكنه اشتغل بالتأليف الأدبي واشتهر بروعة الأسلوب والموضوعية. من أشهر رواياته (مدام بوفاري).

كانت هناك يوما مدينة في مصر اسمها ممفيس. سوف أخصص مساحة كبيرة لممفيس، في تاريخ العالم الذي أكتبه؛ إن المصير الذي آلت إليه ممفيس حكاية مفيدة، وتوضح بدقة مدى هشاشة الأماكن. في العصور الفرعونية، كانت ممفيس مساحة شاسعة من البيوت والمعابد والورش، كانت مركزا إداريًا ودينيًا ومقرا للحكومة، تجذب الفنانين والصناع.. كانت واشنطن وباريس وروما كلها مجتمعة على ضفاف النيل. كانت السدود تحميها من فيضان النهر. تبدو كأنها فردوس، مدينة من النخيل والخضرة التي تنبت على أغنى أنواع الطمي خصوبة حيث تلتقي مصر العليا (الصعيد) ومصر السفلى (الدلتا)، بمعابد رائعة وطرقات تحدها تماثيل أبي الهول. مركز لمجتمع ذكي معقد يسبق باقي العالم بمراحل، يشيّد مباني من الحجارة المنحوتة بينما كانت أوروبا تعيش داخل الكهوف، يسجل أحداثه بأكثر نظم الكتابة التي عرفها الإنسان زخرفة، ويمارس واحدة من أكثر الديانات خيالا وغموضا وابتكارا على مدى العصور.

وما حال ممفيس الآن؟ سلسلة من المناطق غير المنتظمة التي لا تكاد تُلحظ وسط الزراعات، وتمثال ضخم ممدد على الأرض لرمسيس الثاني. هكذا ينتهي الحال بالعظماء. اهتز الاستقرار السياسي لمصر القديمة، أُهملت صيانة السدود، وتولى النيل أمر البقية. لم يعد هناك أدنى أثر لحياة سكان ممفيس، لكن هناك الكثير من الآثار الدالة على موتهم. أهرامات ومصاطب ومقابر وتوابيت وآثار جنائزية تملأ الطبيعة، شعب مهووس بالخلود. كل معتقداتهم تركزت حول الهروب من فكرة الفناء. حسنا، ليسوا وحدهم في ذلك الأمر، لكنهم كانوا أكثر ابتكارا وحسب في البحث عن حلول. الناس يموتون والأجساد تتحلل. لكن الموت لا يطاق. لذا تفترض، ببراعة، أن الجسد إذا تم حفظه، بصورة فعلية أو رمزيّة، لو

تم إخفاؤه وتوفر له ما يلزم من متطلبات الحياة اليومية، فلن يكون الموت حينئذ قد وقع. شيء ما؛ الروح، الكا[45]، الذاكرة، سمِّه ما شئت، سوف يحيا إلى الأبد. يمنح المرء هذا الشبح كل ما كان يتمتع به في حياته المادية، أثاثه، مجوهراته، خدمه، طعامه وشرابه، ومن وقت إلى آخر سوف يعود من الخلود الذي يحيا به ليتزود بما يحتاجه من قوت مما تبقى من هيكله. تبدو هذه فكرة معقدة مثيرة للاهتمام. تُبقي الأموات معك إلى الأبد، وتنكر أي احتمال لفنائك أنت.

في زمننا هذا بالطبع لا نصدق أي كلمة من كل هذا. أو، على الأقل، لا نصدق أي كلمة من تفسيرنا نحن لمعتقداتهم. بيد أن الصعوبة لا تكمن في سهولة الانخداع، بل في الخبرة. لا أستطيع أن أزيل من عقلي بعض المفاهيم مثل مركزية الشمس بالنسبة إلى الكون، والدورة الدموية، وقوة الجاذبية، وكروية الأرض، وعديد الأفكار الأخرى الرائدة. لا يمكن أن نستعيد تصورات الأسرة الفرعونية الرابعة[46] تماما كما لا يمكن للمرء استعادة تصورات طفولته.

تفرض النصرانية مشكلات مشابهة، بالطبع. لقد تسبب لها العلم بضرر بليغ. العلم والعقل. ليسا في فترة مراهقتها، مرت بمرحلة من مراحل التدين المشحونة بطاقة محمومة، وهي مرحلة تتعامل معها الكنيسة الكاثوليكية على نحو أفضل كثيرا مما تتعامل به معها كنيسة إنجلترا المملة. في فرنسا أو إسبانيا، كان يمكن أن تنتاب ليسا الرؤى أو التشنجات؛ لكنها اضطُرت بطبيعة الحال إلى الاكتفاء بدروس التثبيت الدينية وبالصلوات في صباح الأحد بكنيسة أبرشية سوتليه.

---

(45) الكا: كيان روحي، إحدى صفات ومظاهر الفرد التي يعتقد أنها تعيش داخل الجسد أثناء الحياة وتبقى حية بعد موته.

(46) الأسرة الفرعونية الرابعة حكمت بين 2613 و2494 قبل الميلاد وتميز عهدها بكونه العصر الذهبي لمملكة مصر القديمة حيث عم السلام والازدهار على كل صعيد.

يحرم على المسلمين تناول الطعام بين الفجر والمغرب في رمضان. كما يجب عليهم أيضا أن يصلُّوا ست مرات في اليوم[47] وهم يتوجهون نحو مكة. كانت حدائق نادي الجزيرة تعجّ بالبستانيين الراكعين، الذين يتجاهلهم أرباب عملهم الإنجليز عن عمد؛ حيث لا يليق أن يُظهر المرء فضولا خفيّا تجاه ممارسات الآخرين الدينية. كان الفرنسيون أقل حساسية؛ كانت مدام شارلوت ووالدتها تقضيان رمضان وهما تزعجان الطاهية والصبي الذي يعمل في المطبخ، اللذين كانا يعانيان من اعتلال صحتهما بسبب قلة الطعام، وكانتا تتذمران بصوت مرتفع في كل مرة يجثو فيها البستاني على ركبتيه. كان يريحنا بعض الشيء دائما أن نرى أن كراهية الفرنسيين للأجانب تعادل عنصرية البريطانيين، بل وتتفوق عليها. الاحتقار الذي كانت مدام شارلوت وصديقاتها تسبغانه على كلمة «عربي» كان لاذعا أكثر حتى من كلمة «غجري» التي ينطقها الإنجليز دونما اكتراث، أو الاستخدام الغريب لكلمة «السكان المحليين» على سبيل التحقير. كان الأمر يجعلنا نبدو أصحاب تفكير ليبرالي للغاية. كانت مدام شارلوت تصمم بكل عظمة على موقفها من نقاء العرق الغالي[48]؛ حقيقة أنها كانت متزوجة من لبناني وأنها قضت حياتها كلها في القاهرة لم تكن تشكل أدنى فارق: كانت تمثل وحدها روح شارلمان[49] وتفوُّق فرنسا الذي لا يرقى إليه الشك. كانت تتقبل الأوروبيين الآخرين بازدراء مهذب. أما المصريون فكانوا يشكلون فئة وحدهم.

لم تكن في العالم الذي كنت أتحرك فيه علاقات اجتماعية بين الإنجليز والمصريين. كان معروفا عن بعض أصحاب الطباع الغريبة في المجلس الثقافي البريطاني أو في أوساط الجامعة اختلاطهم في بعض الأحيان مع

(47) هكذا، ولعل المؤلفة أضافت صلاة التراويح في رمضان إلى الصلوات الخمس المفروضة. المترجمة

(48) نسبة إلى بلاد الغال القديمة التي أصبحت فرنسا المعاصرة.

(49) حكم شارلمان الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين عامي 768 و814 وهو أعظم ملوكها.

مثقفي الطبقة الوسطى المصرية، طبقة محدودة على أي حال في بلد يتألف من ملايين الفلاحين، وطبقة من التجار الأرستقراطيين الأثرياء، ولا شيء تقريبا فيما بينهما. كان الملك يحظى باهتمام خاص، فقد كان ملكا في نهاية الأمر، لكنه كان أضحوكة ومثار سخرية، وثريّا مستهترا غير أهل للمسؤولية بقصوره وسياراته الرياضية الحمراء، وإن كانت زوجته الجميلة، الملكة فريدة، تُعد، لسبب ما، قديسة ومخدوعة ومستغَلّة، وكأنها تقريبا تحظى بجنسية أوروبية شرفية. لم يكن مسموحا للمصريين الانضمام لنادي الجزيرة أو نادي التورف[50] (نادي السادة). وكان المصريون الذين لديهم معلومات كافية ووقت فراغ واهتمام بالأمر يتابعون تطور الحرب في الصحراء بلا تحيز. وحين بدا أن رومل لا يمكن أن يُهزم ظهرت لافتات في نوافذ المحال تقول: «الضباط الألمان مرحب بهم هنا».

غيرت الثورة وسد أسوان العالي كل ذلك. ما زال الفلاحون هناك، لكن أكواخهم المصنوعة من الطين تنعم بالكهرباء الآن، ولم تعد نسبة وفيات المواليد أربعين في المئة. رحل الملك وكذلك الإنجليز؛ صار ذلك المجتمع متحفّظا تماما مثل مجتمعات ممفيس وطيبة. حينما يتحدث المصريون عن الحرب فإنهم يعنون الحرب ضد إسرائيل، لا حربنا نحن، التي لم تكن تعنيهم بأي حال.

تقول كاميلا: «ليتك كنت هنا مساء الأمس. كان مع بيب ليذرز شيء له دخان أخضر، سرقه من المستودع. إشارة من نوع ما. أطلقها في الحديقة خلف أحمد مباشرة، فصرخ أحمد. كان الأمر قاتلا؛ فقد ظن أنه عفريت. السكان المحليون يؤمنون بالخرافات إلى حد يفوق الوصف، فهم يؤمنون حقًا بالأرواح والأشباح وما إلى ذلك. جلسنا في الشرفة نراقبه وهو

(50) تأسس النادي في العام 1861 وكان يضم في عضويته علية القوم في لندن. العضوية فيه حصرية ومقيدة على عكس النوادي الأخرى. ويشار إلى أن الأميرين وليام وهاري ابني الأمير تشارلز والأميرة الراحلة ديانا انضما لعضوية النادي في العام 2008.

يركض ويصيح، حقًا كدت أموت». تجلس على حافة فراشها وهي تطلي أظفار قدميها. «أتريدين أن تجربي هذا، كلوديا؟ إنه رائع، اللون الوردي الزاهي من إليزابيث أردين». أقول: «ما الخطب؟ تبدين متعبة وضجرة للغاية هذه الأيام».

تقول كلوديا: «لا شيء هناك».

تقول كاميلا دونما اكتراث: «مجرد إسهال، على ما أعتقد. كنت أقول؛ سأخرج برفقة أسترالي الليلة! سيغضب هذا أمي بشدة! بالطبع، فلكنتهم شنيعة، لكنه لطيف للغاية، وأسرته ذات مكانة رفيعة في سيدني. هل ستكونين في النادي لاحقا؟».

تذهب كلوديا إلى الغرفة الأخرى. تخرج إلى الشرفة، وتحملق خارجا نحو الجزيرة التي بدأت تتلألأ في الغسق. لقد رحل منذ ثلاثة أسابيع، ولم تبلغها أي أخبار عنه حتى الآن. كانت هناك شائعات بأن الأوضاع ستزداد خطورة خلال الشهر أو الشهرين المقبلين، وأن رومل سيتقدم، وأنه ستكون هناك مواجهة ضخمة. أين توم؟ ينساب أمام عينيها مردم النفايات الصلبة، تلك الأرض المليئة بمخلفات المعركة: هياكل المركبات مثل جثث الحيوانات، وبقايا حيوات الناس، فرشاة أسنان، خطاب ممزق؛ والرجال يسيرون بخطوات متثاقلة وسط الرمال. تتخيل كل هذا، وتفكر فيه بعمق، وقبضة ثقيلة تعتصر أعماق معدتها. ليس إسهالا كما قالت كاميلا، لسوء الحظ. تردد أن الحرب صارت شيئا مختلفا تماما. لم تعد تتسلل إلى الحدود، مثل حيوان ضخم لا يمكن توقع تصرفاته، وتراقبه هي من بعيد وهي آمنة، بينما تهتم بسلوكه لأغراض علمية. لقد اقتربت تماما وصارت تعوي بباب غرفة نومها؛ الرجفة التي تثيرها فيها هي الرجفة البدائية ذاتها التي كانت تنتابها أيام الطفولة. تخاف، لكن خوفها ليس على نفسها، وإنما هو ذلك الخوف الكوني القديم

المبهم. هكذا تتذكر كيف أقنعت نفسها ذات ليلة مظلمة في طفولتها بأن الشمس لن تشرق ثانية أبدا.

بالداخل، في الشقة، تصيح كاميلا في النادل أن يأتيهم بصينية المشروبات. وبالأسفل، في الحديقة، تلقي مدام شارلوت محاضرة على إحدى الجارات حول أسعار اللحوم.

كان الصمت يسود طوال أسابيع، ثم يأتيها خطاب. واحد من تلك الخطابات غير المهمة في زمن الحرب، الخالية من أي معلومات أو عواطف بسبب شبح الرقيب. ثم فجأة، كان يظهر، بلا مقدمات، صوته على الهاتف، ثلاثة أيام إجازة، خمسة أيام إجازة.. ذهبنا إلى الأقصر، إلى الإسكندرية. ليست لدي فكرة عن عدد الأيام في المجمل. يميز تلك الأيام في الذاكرة الآن ما كان يحيط بها، الهدوء الكامل للنيل في الأقصر، الصمت المجدب في وادي الملوك، الحشود والثرثرة في الفنادق والبارات، الأمواج الضخمة الكسولة التي ترغي بالزبد على الشاطئ الضحل في سيدي بشر. وفي كل مرة، كان يغادر فيها مجددا يزأر الأسد في الأفق، وكانت عمليات تدقيقي في البيانات الرسمية ومحاولاتي لخطب ود الملحقين الصحافيين تكتسب أهمية أكبر. حاولت مرارا وتكرارا أن أحظى برحلة أخرى للصحراء، ليس لأن ذلك سيتيح لي أن أكون في مكان قريب منه، بل لأنني كنت أريد أن أختبر بنفسي ما الذي كان يراه ويسمعه ويشعر به. لم أستطع أبدا أن أصل ثانية لأبعد من معسكرات التدريب في مرسى مطروح. كان الأمر سهلا نسبيًا للرجال في مجموعة الصحافيين، لكن أنا، أو أي مراسلة أمريكية عابرة أو مراسلة من دول الكومنولث تمر بالمكان، كانت تقابل بالعبوس والتجهم من مقر قيادة الجيش الثامن، فالصحراء ليست مكانا مناسبا للنساء.

سألت كلوديا: «لم لا؟».

«يا فتاتي العزيزة، إنه غير مقبول، هذا كل ما في الأمر. ستكون هناك مشكلات كبيرة. لقد اصطحب راندولف تشرشل فتاة أمريكية إلى هناك، وتعرضنا للكثير من الانتقادات بسبب ذلك لاحقا. إنهم فقط غير متحمسين لوجود الإناث».

تقول كلوديا: «أنا فقط أؤدي عملي. مثل العاملات في المستشفى الميداني، والسيدات العاملات في الجيش البريطاني اللاتي يقدن السيارات، وعديد العاملات الأخريات في الجيش اللاتي يذهبن إلى الصحراء».

هز السكرتير الصحافي الجديد في مقر القيادة العامة كتفيه، وقال: «آسف للغاية، عزيزتي، لكن هذا هو الوضع. سأقوم بكل ما في وسعي من أجلك بالطبع. لو كان الأمر بيدي لحجزنا لك مكانا في إحدى طائرات النقل غدا. بالمناسبة، ما رأيك في تناول مشروب هذا المساء، إن لم تكوني مشغولة؟».

تبتسم كلوديا بلطف، لتنال غرضها.

كانت تمرّ أسابيع وشهور لا يحدث فيها أي شيء. كل ما كنا نعرفه هو أن هناك جيشين يقبعان بلا حراك في مكان ما غرب طبرق، وكل منهما ينتظر ما سيفعله الطرف الآخر. كان هناك القليل من المعلومات لأنه لم يكن هناك شيء يمكن التصريح به. وكان هذا هو الوقت الذي أخذت فيه أسطورة رومل تتشكل: الخصم الماكر، الذي لا يمكن التنبؤ بتصرفاته، له هالة من العظمة، نابليون الصحراء، ويتفوق على الأساطير البالية المألوفة لجنرالاتنا نحن. حتى مونتجمري لم يكن له أبدا ذلك الغموض الذي كان لرومل. لا بد أن هناك بعض الواقعيين في القاهرة الذين كانوا يتوقعون الأسوأ، لكن، حتى لاحقا، وفي أسوأ لحظات الاضطراب، حينما كانت مدرعات الجيش الألماني على أهبة الاستعداد عند العلمين، وحينما كانت السماء تمطر برماد الوثائق المحترقة، لا أتذكر أنني شممت رائحة الخوف. كانت هناك أزمة، نعم؛ لكن لم يَسُد شعور بالخوف. قام الأشخاص الذين لهم زوجات وأطفال بإرسالهم

إلى فلسطين؛ واستقلت بعض الأسر السفن المتوجهة نحو جنوب أفريقيا أو الهند. كان هناك الكثير من المناطق المتبقية في العالم التي يمكن الذهاب إليها، وعلى أي حال كان ذلك مجرد إجراء مؤقت، حتى تستقر الأوضاع مرة أخرى. لا أعتقد أن أحدا قد تخيل بالفعل ضباط رومل وهم يجلسون حول حمام السباحة في نادي الجزيرة الرياضي. كانت المشروبات تُقدَّم عند الغروب، كما كان الوضع دوما من قبل؛ وكانت الجماهير تجتمع لسباقات الخيل أيام السبت؛ قدم فريق مسرح الهواة عرضا لأوبرا الميكادو[51]. وكتبت أمي رسالة من دورسيت التي كانت تعاني من الحرب، وقالت إنها تشعر بالارتياح لأنني في مكان آمن، لكنها كانت تعتقد أن الطقس متعب. تساءلتُ: ألا تطالع الأطلس؟ كانت لديها مشكلاتها؛ كان التحمل بصبر هو موضوع رسائلها، نقص المؤن والحديقة المهملة إهمالا محزنا، وأواني الطهي الجيدة التي كانت لديها وضحّت بها في نبل لتصير أسلحة للحرب. كانت الرسائل ذات الورق الخفيف بخطها المنمق بليغة في رزانتها. هل تخيلت أبدا القوات الألمانية وهي تندفع في بلدة سترمنستر نيوتن؟

لكن الحرب في تلك الشهور الساكنة من أوائل عام 1942 كانت تبدو كأنها وضع دائم. مرض مزمن لا يهدد الحياة، ولكنه يعيق أي تقدم من أي نوع. ذهبت إلى القدس كي أحاول الحصول على لقاء مع ديجول[52] الذي سرت شائعات بأنه كان هناك، وفشلتُ في الاقتراب منه، وكتبتُ عن عصابة شتيرن[53] عوضا عن ذلك. سافر زميل أو اثنان من زملائي وقد ملّا الخمول إلى مناطق أخرى أكثر إثارة، واضطرا إلى العودة مسرعَين عندما دبت الحياة

(51) أطلق عليها أيضا «مدينة نينيبو» وهي أوبرا كوميدية من فصلين بدأت عروضها يوم 14 مارس 1885 في لندن وقدمت 672 مرة.

(52) شارل ديغول (1890 - 1970): جنرال ورجل دولة فرنسي. قاوم الاحتلال النازي وترأس حكومة فرنسا الحرة. أصبح رئيس الجمهورية الخامسة وتنحى عام 1969 بعد المظاهرات الطلابية المناوئة له عام 1968.

(53) منظمة إرهابية صهيونية أسسها البولندي أبراهام شتيرن. وقد انشقت عن عصابة أرغون التي شاركتها في مذبحة دير ياسين بحق الفلسطينيين.

في الصحراء من جديد في نهاية المطاف. بدا الوقت، حتى وأحداثه تدور، كأنه مستمر للأبد. صار الشتاء ربيعا، وارتفعت درجات الحرارة؛ وفي وقت ما، لا أدري متى ولا لأي فترة من الوقت، عاد مرة أخرى.

يقول توم: «دعيني أخبرك شيئا بالغ الغرابة. لم أشعر أنني بخير إلى هذا الحد في أي وقت في حياتي من قبل».

تتأمله. كان نحيلا؛ كانت عضلاته مفتولة مثل الحبال؛ وكان لشعره الداكن بريق ذهبي، يتباين معه من أثر الشمس. «إنك تبدو بصحة جيدة، بكل تأكيد».

«ليست الصحة هي ما أتحدث عنه، في الواقع. إنما أفكر في الروح. أنا سعيد جدّا وسط كل هذا. أعتقد أنك ساحرة، كلوديا. ساحرة طيبة، بالطبع. ساحرة بيضاء».

لا تستطيع الرد. تقول لنفسها، ما من أحد تحدث إليّ بهذه الطريقة من قبل على ما أظن. لم أجعل أي أحد يشعر بالسعادة من قبل. جعلت الناس يشعرون بالغضب والقلق والغيرة والرغبة.. لكن ليس بالسعادة أبدا، على ما أعتقد.

يسأل توم: «وأنت؟».

ترد: «وأنا أيضا».

يقول توم: «أنا ومن بعدي الطوفان. هذا هو شعوري غير اللائق في هذه الأيام».

تقول: «حسنا، قد يكون الأمر هكذا. لكن ليس باليد حيلة. لطالما اعتقدت أنه شعور معقول للغاية».

«قبليني».

تعترض قائلة: «نحن في المسجد. سنثير مشكلات».

لكن حتى مسجد ابن طولون به أماكن بعيدة منعزلة.

يقول توم بعد قليل: «هذا أكثر مما يمكنني تحمله. يجب علينا أن نعود لشقتك».

«لم لا نصعد إلى أعلى المئذنة؟».

«لا أريد أن أصعد إلى أعلى المئذنة. أريد أن أعود إلى شقتك».

«قد لا نعود هنا ثانية أبدا».

يقول: «أنت إما أن تكوني امرأة عنيدة للغاية، وإما أنك تضعينني في اختبار من نوع ما. حسنا، سنصعد إلى أعلى المئذنة ثم سنعود إلى شقتك».

وبعد قليل، بينما هي تنظر للأسفل تجاه متاهة البشر والحيوانات والغسيل في الشرفات، تقول كلوديا: «ما الذي تنوي أن تفعله بعد الحرب؟».

«آه! لقد كنت أتساءل متى سنتطرق إلى هذا». يحيطها بذراعه. «كنت أفكر في إثارة الموضوع بنفسي. حسنا.. أولا، دعيني أخبرك ما الذي كنت أنوي فعله بعد الحرب. كنت أنوي العودة إلى الوطن مليئا بالحماسة والأفكار السامية والآراء الواضحة عن كيفية إصلاح المجتمع، وأنوي الترشُّح للبرلمان في دائرة انتخابية شديدة العدائية، وأنهزم لكن دون أن تنطفئ حماستي. أو ربما أقنع بالعمل الصحافي الجاد في واحدة من أرقى الصحف».

تغمغم كلوديا: «لكنك لن تفعل هذا الآن؟». بينما تتأمل طيور الحدأ التي تحلق عاليا فوق رأسها في دوائر واسعة مدروسة في السماء الزرقاء الشديدة الشحوب.

«لا. أشعر بأنني أصبحت أقل حماسة، وأكثر تشاؤما، وأهم من كل ذلك أن لدي أمورا أخرى تشغل تفكيري».

تسأل كلوديا: «مثل ماذا؟». تحاول أن تتخيل المنظر بعيني حدأة على ذلك الارتفاع؛ هل تستطيع طيور الحدأ رؤية انحناء الكرة الأرضية؟ البحر الأحمر؟ البحر المتوسط؟

«أريد أشياء لم أكن أهتم بها كثيرا. أريد الاستقرار. أريد أن أعيش في مكان واحد. أريد أن أضع الخطط للعام المقبل، والذي يليه، والذي يليه. أريد.. «يضع يده على ذراعها».. أريد أن أتزوج. هل تستمعين لكلمة مما أقوله؟».

تجيبه: «أسمعك».

«أريد أن أتزوج. أريد أن أتزوجك أنت، لو لم يكن كلامي واضحا تماما».

تقول كلوديا بعد لحظة: «يمكننا أن نتبنى القضايا وندافع عنها بحماس معا. أنا هكذا بطبيعتي إلى حد كبير. ليست لديك أدنى فكرة».

«حسنا، إذا، لو كان هناك ما يكفي من الوقت. لكنني سيتوجب علي أن أعمل لكسب قوتي، وهذا أمر لم أهتم به كثيرا حتى الآن. لا أرى سببا لجعلك تتضورين جوعا في حجرة صغيرة حقيرة؛ أنا متأكد أنك لم تعتادي هذا الأمر».

«حسنا، كلا. لكنني حقًا أجيد الاعتناء بنفسي إلى حد كبير».

يقول توم، وذراعه تحيط بها بقوة: «يمكنك أن تساهمي. يمكنك أن تقومي بكتابة كتب التاريخ تلك. أما أنا فسوف أصبح مواطنا متزنا. سأعمل بجد. أريد أن تتسخ يداي. ربما أصبحت مزارعا. أريد أن أعيش في مكان به الكثير من الأمطار، وتنمو فيه الأشياء بضراوة. أريد أن أشاهد ثمار الأرض وهي تتكاثر وما إلى ذلك من تلك الأشياء. أريد أن أدخر للمستقبل. أريد أن أكوِّن ثروة على الأرض بما أنني غير مؤمن. ليست ثروات مالية، أريد حقولا خضراء وأبقارا سمينة وأشجار بلوط. أوه! وهناك شيء آخر أريده. أريد طفلا». تقول كلوديا: «طفل.. رباه! طفل..». تتطلع مجددا تجاه طيور الحدأ المحلِّقة في دوائر؛ بدت إحداها الآن أضخم كثيرا من الأخريات وقد بدأت هبوطها البطيء تجاه هدفها الذي اختارته.

الفصل العاشر

«آه! ها أنت، سيدة جيمسون. حسنا، لقد مررنا بأزمة إلى حدٍّ ما، لكن الحق يقال إنها تعافت بطريقة مدهشة هذا الصباح. لكن الأمر كان خطيرا بعض الوقت. على أي حال، لا يعتقد الطبيب أنه ستكون هناك مشكلات أخرى في الوقت الحالي. إنها نائمة الآن، لو أردت أن تجلسي معها بعض الوقت. كانت تتحدث عنك الليلة الماضية، لكنها في الحقيقة لم تكن بكامل قواها العقلية، العزيزة المسكينة».

تنظر ليسا من النافذة الزجاجية المستديرة. تنام كلوديا على ظهرها، وعيناها مغمضتان؛ تنبت من إحدى ذراعيها أنابيب وأكياس بلاستيكية ملونة بألوان زاهية. «ماذا قالت؟».

«كانت تعتقد أنها تمر بحالة مخاض مرة أخرى، ليرحمها الرب. ظلت تقول: هل هو ولد أم بنت؟». تضحك الممرضة بابتهاج. تواصل: «إنه أمر غريب، أليس كذلك؟ عادة ما تعود النساء لتلك اللحظة، عندما يقتربن من النهاية. الكثير من السيدات المسنات هنا يصررن على الحديث عن هذا الموضوع. كانت في حالة من الهياج، ظلت تجذب ذراعي قائلة: أخبريني: أهو ولد أم بنت؟... لذا قلت: أنت ابنتها الوحيدة، أليس كذلك، سيدة جيمسون؟. قلت: إنها بنت، آنسة.. آنسة هامبتون، لكن ذلك كان منذ زمن بعيد». تتنحنح بحدة: «بالطبع لقب آنسة هو لقب مهني، فأنا أعرف أن العديد من السيدات العاملات يحتفظن بلقب آنسة، وأنا أتفق لدرجة كبيرة أن استخدام لقب مبهم لا يوضح الحالة الاجتماعية كما هو شائع بين الكثيرات في هذه الأيام أمر سخيف. حسنا، ها أنت ذي سيدة

جيمسون، فلتدخلي، رغم أنني أشك أنها ستستجيب كثيرا اليوم. لكنها ربما تشعر بوجودك».

كلا، إنها لا تشعر، تقول ليسا لنفسها، ليست لديها أدنى فكرة. أيًا ما كان المكان الذي هي موجودة فيه، فهو ليس هنا، ليس في هذه الغرفة. فهي في مكان بعيد للغاية.

تجلس ليسا. تفتح الصحيفة التي أحضرتها، وتبدأ في القراءة. ستبقى حوالي ربع ساعة، تحسُّبا. تنظر نحو كلوديا من وقت لآخر. في مرة من المرات تنهض، وتعبر الغرفة لتنخس بإصبعها التربة المحيطة بزهور بنت القنصل المجاورة للمدفأة؛ كانت التربة رطبة بدرجة ملائمة، لكن بنت القنصل كانت تبدو ذابلة.

تقول لنفسها إنه أمر حقيقي بالفعل، فالمرء لا ينسى أبدا ولادة أطفاله. أتذكر كل دقيقة من ولادة كلا الولدين. تقف بجوار السرير؛ ذراعا كلوديا الضعيفان، ووجهها الذي غارت ملامحه، وهيئتها الواهنة أسفل أغطية الفراش كلها تملأ ليسا بإحساس يجمع بين النفور وشفقة مشوبة بالإحساس بالذنب. تفكر في حبيبها الذي ستقابله لاحقا ذلك اليوم. تستمتع للحظة بالتفكير في مشاعرها تجاه حبيبها. تفكر، وتمتلئ أفكارها بالرضى عن النفس، إن كلوديا في الغالب، لم تعرف هذا الشعور أبدا من قبل. فهي لم تحب جاسبر، بالطبع. على الأقل ليس بهذه الطريقة؛ والأغلب أنها لم تحب أحدا أبدا.

كانوا قد خلعوا خواتمها وسوارها الذهبي ووضعوها على الطاولة المجاورة لفراشها. ترفع ليسا المجوهرات وتتأملها، الزمردة الضخمة التي تفترض أن جاسبر هو من قدمها لها، الخاتم ذو دائرة أحجار الأوبال، والخاتم الذي به مجموعة من أحجار الماس (من أين أتى هذان الاثنان، وحدها كلوديا تعلم ذلك). وبعدئذ تضعها بسرعة. كانت كلوديا دوما غريبة الأطوار فيما يتعلق

بممتلكاتها، لا، ليست غريبة الأطوار، بل بغيضة للغاية.

تسأل ليسا: «هل يمكنني أن آخذ هذا؟».

تقول كلوديا وهي مستمرة في الكتابة على الآلة الكاتبة: «تأخذين ماذا؟».

«هذا.. هذا الصندوق الصغير».

تلتفت كلوديا برأسها. تنظر إلى الخاتم الذي في راحة يد ليسا، الخاتم ذي العلبة الصغيرة التي تفتح بمفصلة. تشتعل عيناها. ترد بعنف: «كلا. أعيديه إلى حيث وجدته، ليسا. لقد قلت لك من قبل ألا تلمسي ما في صندوق مجوهراتي».

تتمتم ليسا: «لكنني أريده». وهي تريده بالفعل، تريده بشدة أكثر مما رغبت في أي شيء من قبل؛ الخاتم المثير ذو العلبة التي لها غطاء فضي منقوش يُصدر طقطقة، وله قفل صغير. كان كبيرا على إصبعها، كبيرا للغاية، لكن لم يكن هذا الأمر مهمًا. كانت ستحتفظ بالأشياء بداخله؛ أشياء صغيرة للغاية وقيمة.

«أعيديه إلى مكانه».

تفتح ليسا الخاتم. تقول: «إنه متسخ من الداخل. به أجزاء صغيرة من الأتربة. سأنظفه».

تستدير كلوديا في مقعدها. تمد يدها وتخطف الخاتم. تقول: «اتركيه وشأنه. ولا تلمسيه مجددا، أتفهمين؟».

من الناحية الإحصائية، لا بد أن أغلب من يسكنون عوالم ما بعد الحياة، سواء أكان العالم النصراني أم الإغريقي أم الفرعوني، هم من الأطفال. رضع وأطفال. مساحة شاسعة من الأجسام الملفوفة بأقمطة، من الكائنات الصغيرة ذات الأطراف النحيفة والبطون المنتفخة، من الأقزام الذاوين المشوَّهين. ومعهم، ويتسلل بينهم، بعض البطاركة الملتحين، وقليل من العجائز، وحشد ممن هم في سن الأربعين. أرى المشهد وكأنه صورة من

إحدى لوحات هيرونيموس بوش[54]. تحوي لوحاته تنانين أيضا، وشياطين معها مذراوات وكائنات مجنَّحة ضخمة.. لا ملائكة ولا جوقة.

لا يسع المرء سوى أن يشعر بالراحة لأنه لن يذهب إلى مكان كهذا، ولكن إلى الاندثار وحسب. وبالطبع ليس حتى إلى الاندثار وحسب، حيث إننا جميعا نبقى في عقول الآخرين. سوف أبقى، بصورة مشوهة إلى حد مروِّع، في عقول ليسا وسيلفيا وجاسبر، وفي عقول أحفادي (لو كان فيها مكان يكفي بجوار لاعبي كرة القدم ونجوم البوب) وفي عقول أعدائي. وبصفتي عالمة تاريخ، أعرف جيدا أنه لا يسعني أن أفعل شيئا بشأن عمق التشويه ومداه؛ لذا فإنني لا أهتم. ربما كان الأمر في نظر مَن يهتمون، من يقاومون ضده، هو الصورة الدنيوية للجحيم، أن نبقى في صور لا نحبها في ذاكرة الآخرين.

كلوديا الساخرة. كلوديا المليئة بالتشاؤم. وكلوديا المحظوظة، بالطبع، لأنها نالت الظروف التي تسمح لها بتأمل الطريقة التي سوف يحفظ بها الآخرون ذكراها. قد يعتبر الكثيرون هذا نوعا من الرفاهية. الحشد الضخم الثاني ممن يسكنون العالم الآخر، بالطبع، هم من الجنود، تلك الأعداد التي لا حصر لها من وجوه الصبية أسفل قبعاتهم المصنوعة من الصفيح والخوذات والعمائم والقبعات المصنوعة من جلد الدببة.

تقول كاميلا: «مرحبا.. أقول: ألم يكن الجو حارًا للغاية اليوم؟ تعطلت المروحة في المكتب وكدنا نموت. يجب أن أستحم. بالمناسبة، هل حقًا دارت معركة كبيرة؟ إنك دائما ما تسمعين كل شيء، أخبريني. ثمة شائعات كثيرة تدور في السفارة، لكن لا أحد يقول شيئا بالفعل. هيا.. لن أخبر أحدا بشيء، أقسم على ذلك».

---

(54) هيرونيموس بوش (1450 - 1516): رسام هولندي يعتبره النقاد أبرز ممثلي مدرسة الرسم الهولندية. اشتهرت لوحاته بالرسوم الخيالية للمفاهيم والروايات الدينية.

كان الأمر في نشرة الأخبار. بلغة محطة «بي بي سي» الكئيبة والموجزة ومجهولة الهوية: «وقع عدد من الاشتباكات في الصحراء الغربية التي وقعت خلالها خسائر كبيرة في صفوف العدو». قتال عنيف، كما يقول الصوت الخالي من المشاعر، وقع على عدد من الجبهات.

تسأل كاميلا: «أليس الأمر مثيرا؟ لقد عادوا إلى القتال حقّا في الصحراء الآن، أليس كذلك؟ الجميع متحمسون للغاية في السفارة. على ما يبدو فإن بوبي فيلوز المسكين تعرّض لإصابة بالغة، لسوء حظ سالي، لكنها تتصرف بشجاعة بالغة. يقول الجميع إننا نسحق رومل بعنف».

تعمل أجهزة الهاتف والتلكس في مقر القيادة العامة أربعا وعشرين ساعة يوميًا. الجميع مبهورون ونافدو الصبر. لا، آسف، ليس الآن يا عزيزتي، هناك وضع متأزم للغاية الآن.. سوف أرى ما يمكنني أن أقوم به من أجلك لاحقا.. فلْتبقي، فقد يكون هناك بيان رسمي في السادسة.. عودي لاحقا.. انتظري.. سوف نبلغك حالَما نستطيع ذلك.

تعنِّف مدام شارلوت الطاهية، في مناجاة للنفس تستمر خمس دقائق، خليط من الفرنسية والعربية المستخدمة في المطبخ، تتكرر فيه كلمات بعينها باستمرار، «بقشيش، قروش، شرير، مفيش، مش كويس». يرن الهاتف. يصدر نعلها صوتا وهو يضرب الأرضية الحجرية للردهة. «آنسة كلوديا.. مكالمة هاتفية من أجلك..». تعود للمطبخ؛ يسري صوتها وهي تتهم لاباس البقال، وتشكك في عدم وجود دقيق أبيض، وتستفسر عن صرف ورقة من فئة خمسين قرشا، موازيا لصوت رجل يعلن أخبارا غير مؤكدة عن معركة دبابات في منطقة سيدي رزيق، وعن انسحاب..

تكتب كلوديا على الآلة الكاتبة في حرارة النهار القائظ. تنام كاميلا في الغرفة المجاورة، وقد عادت من السفارة كي تأخذ قيلولتها الضرورية. في الحديقة، ينام البستاني أيضا في ظل شجرة التين البنغالي، وقد انحنى على

هيئة حزمة من الخرق القديمة. تنقر طيور الهدهد بخفة في الحديقة؛ تتألق زهور البيتونيا والقطيفة.

هناك تقدُّم. هناك انسحاب. خسرنا هذا العدد من الدبابات، هذا العدد من الطائرات، وأُسِر هذا العدد من الرجال. خسر الألمان هذا العدد وذاك العدد. تتراقص الأرقام على صفحات الورق، واهية الصلة بالمعدات واللحم والدم. هناك في مكان ما، حيث يفترض أن تحدث هذه الأمور، أو أمور تشبهها، وهنا، حيث يجلجل صوت مكعبات الثلج في الكؤوس الزجاجية في الساعة السادسة، وتتراقص خراطيم المياه في حدائق نادي الجزيرة.

يقول السكرتير الصحافي: «أخشى أن لا شيء من أجلك الآن، يا عزيزتي. فلتلقِي نظرة على أحدث قوائم المصابين، لو شئت».

تقول كاميلا: «سنقوم بنزهة إلى الفيوم يوم السبت. رائع. سوف يأتي إيدي ماسترز وبيب وجامبو. أقول، كلوديا هل هناك خطب ما؟ تبدين متوعكة للغاية، هل تريدين قرص أسبرين؟».

في البداية هناك عدم تصديق، رفض حاسم للتصديق. كلا، هذا غير ممكن. ليس هو. ربما آخرون، لكن ليس هو. ثم هناك أمل، لأن مفقودا لا تعني بالضرورة أنه قُتِل، فالرجال المفقودون يظهرون جرحى وأسرى. أو يعودون مشيا من الصحراء بعدها بأيام سالمين؛ القاهرة مليئة بالحكايات المشابهة.

يصير الأمل قوة تحمل، يمر بك اليوم، والذي يليه، والذي يليه؛ وترقد مسهدا في الليل، بهذا الوجع الأجوف في داخلك، هذا السقوط على هاوية الخوف في كل مرة تسلم نفسك للتفكير وللذكرى.

تصلي.. تصلي بخجل في الكاتدرائية.

«آنسة كلوديا، مكالمة هاتفية من أجلك..».

«كلوديا؟ أنا دراموند؛ المكتب الصحافي. لقد طلبتِ مني أن أخبرك لو توفرت أي معلومات بخصوص سوذرن. النقيب ت. ج. سوذرن الذي قيل إنه في عداد المفقودين. أليس كذلك؟ توجد إشارة هنا، يبدو أنهم عثروا عليه الآن. أخشى أنه قُتِل، الشاب المسكين. هل كان صديقا لك؟».

الليالي هي الأسوأ. الأيام تمر بطريقة ما، لأن هناك بعض المهام التي يجب إنجازها. لكن الليالي لا تبلغ سبع ساعات أو ثماني، بل أربعا وعشرين ساعة. فهي أيام كاملة في حد ذاتها، أيام حارة سوداء ترقد فيها عارية على غطاء الفراش وهي تحملق في السقف، ساعة وراء ساعة.

تقول كاميلا: «أرسلت عبدول ليشتري لي المزيد من الحليب. الحليب الذي في الإبريق كان فاسدا، أنا متأكدة أنه كان يكمل ملأه من ماء النيل. هل أيقظناك من نومك مساء أمس؟ لقد عاد بي إيدي من حفل آل موفات، وأصر أن يصعد لتناول مشروب. ألن تتناولي إفطارك؟».

كيف؟ أين؟ فورا؟ أم ببطء، وهو يرقد وحيدا وينزف في الرمال؟ ضعيفا لدرجة تمنعه من أن يطلق مسدس الاستغاثة.. أن يجد قنينة الماء.. يرقد وينتظر وحسب.

أرجو أن يكون الأمر قد تم على الفور.

تنقض مدام شارلوت من مخبئها: «لحظة، آنسة كلوديا..». سيل من حديثها الذي هو مزيج من الفرنسية والإنجليزية، حديث حماسي عن زيادة الأسعار وخداع أصحاب المحلات، ونقص المؤن في الوقت الحالي: «فترة الحرب البشعة هذه التي تفرض عليها زيادة الإيجار، ولكن زيادة بقدر ضئيل جدّا، هل تفهمين؟ بقدر ضئيل فقط، أنا التي سأعاني في النهاية..». تضطر كلوديا إلى الوقوف وهي تمسك بسور الدرج حتى تصاب بالغثيان في نهاية الأمر وتستأذن، وتركض للأعلى.

لا تفكري في الأمر. أيّا يكن ما حدث فقد انتهى الآن. أيّا كان وأينما

كان. فهو لم يعد راقدا هناك. لم يعد في أي مكان الآن. أي مكان على الإطلاق. لا تفكري في الأمر.

تقول كاميلا: «لقد وصلت أقمشة جديدة رائعة في محل شيكوريل. هناك قماش كريب دي شين وردي وأزرق لا أستطيع مقاومته. فكرت أنه يصلح لثوب من قطعتين، لحفلات الحدائق. السيدة اليونانية الضئيلة سوف تفصله لي، من نموذج في مجلة فوج».

هل يعتبر الغثيان دوما أحد مظاهر الحزن؟ من أنا حتى أعرف؟ لم أكن في حالة مشابهة لهذه أبدا من قبل. هدني الحزن. مهدودة هي الكلمة المناسبة؛ يبدو الأمر وكأنك قُطِعتَ مثل شجرة. وكأنك أُطِحتَ أرضا؛ قُذِفتَ خارج محيط الحياة إلى مكان آخر.

تهب رياح الخماسين. يجب إبقاء النوافذ مغلقة. تهز الرياح الساخنة مصاريع النوافذ، ويكنس الصبي الذي يعمل في المطبخ أرضية الردهة ثلاث مرات يوميًا.

الخريطة على جدار الغرفة المخصصة لاستخدام الصحافيين تزينها الأعلام الصغيرة: أحمر وأخضر وأصفر وأزرق وبني وأبيض. ترسم الألوية والفرق العسكرية أشكالا متفائلة متعددة على حدود الخريطة. تتحرك عصا الإشارة التي يستخدمها السكرتير الصحافي بينها، ويختزل كل شيء بنظام وأناقة. يختفي الضجيج والدخان والتراب واللحم والدم والمعدن؛ الموضوع كله في الحقيقة غاية في البساطة، يمكن لطفل أن يفهمه، مسألة ترتيبات ومناورات، أجنحة وحركات كماشة، خطوط ومربعات.

«ثمة دار نعيم.. وراء أرض الآلام هذه».

تغني جماعة المصلين في الكاتدرائية. تغني السيدات بصوت أعلى، بالأصوات الواضحة المحدِّدة لعِرْقهن وطبقتهن الاجتماعية؛ تتردد بعض أصوات الرجال عالية وصادحة، وأصوات جهيرة أخرى أيضا، تتردّد واثقة لكنها لا تفرض نفسها.

«حيث لا تأتي الابتلاءات.. لا تنهمر دموع الحزن».

وحينما ينتهون من الغناء، يؤدون الصلاة، للإله رب الجنود. بأيديهم التي تكسوها القفازات على جباههم، وبركبة واحدة على الأرضية الحجرية، يتضرعون إليه بتواضع أن يوهن كبرياء أعدائهم، وأن يكسر حدّة شرهم، وأن يربك مكائدهم. وحينما ينتهون ينهضون ويفردون تجاعيد سراويلهم بهدوء، ويعدلون وضع الفساتين الحريرية على الركب، ليستأنفوا الغناء.

«تقدموا أيها الجنود النصارى.. تزحفون وكأنكم ماضون للحرب».

تقول كاميلا: «يجب أن تأخذي إجازة لبعض الوقت. اذهبي إلى الإسكندرية بضعة أيام. لا بد أنك منهكة، لأنك مريضة طيلة الوقت. هناك بنسيون لطيف بجوار الكورنيش أستطيع أن أعطيك عنوانه».

الأمر أشبه السفر. تنتقل من الحدث، وكلما صار أبعد ضعف تأثيره وازداد إثارة للمشاعر، مثل بيت نتذكره. وبمرور الأسابيع يتغير الألم.

وهناك شيء آخر يشغل التفكير الآن. مع الدهشة في البداية، ثم مع القلق، مع التعجب والرهبة.

تقول كاميلا: «يا إلهي!.. حسنا أعني أنني كنت أتساءل، حيث إنك كنت تبدين.. ممم، حسنا كان وزنك يزداد نوعا ما، وبالطبع كنت تبدين منهكة للغاية، أستطيع أن أفهم الوضع الآن.. لكن، بطريقة ما، فأنت آخر شخص يمكن للمرء أن يتوقع.. أعني لست مثل لوسي باورز أو فتاة آل هاميلتون؛ بصراحة لم يفاجأ المرء بشأنهن، لكن أنت، كلوديا.. يا له من حظ سيئ للغاية. يا له من وضع كريه للغاية بالنسبة إليك. لكن لماذا لم.. أعني، ألم يكن في مقدورك أن.. هل ستحتفظين به؟ حسنا، رباه! أعتقد أنك شجاعة للغاية». تحملق، دون أن تصدق؛ كان هذا أغرب شيء سمعته منذ أسابيع.

كانت هناك حديقة كبيرة ظليلة تحيط بالمستشفى الخاص. كانت الممرات المفروشة بالحصى تخترق الطريق بين أشجار النخيل، النوع المحلي ذي الجذوع القصيرة السميكة والخشنة، وأشجار الكازارينا[55]. كان المرضى القادرون على السير يتجولون أيضا، بينما اتكأ آخرون على كراسي الخيزران في الحديقة وعلى الشرفة وكانوا تحت مراقبة الممرضات.

كانت ملابس الممرضات منشّاة للغاية، ويعتمرن قلسنوات بيضاء ناصعة وكأنهن راهبات في طائفة دينية سرية. وكن أيضا مبتهجات طوال الوقت. تستقبل كلوديا ممرضةٌ أيرلندية لها وجه منمش ويعلو حفيف زيها وهي تسير في الممرات وتدلف إلى المصاعد. «المسافة المتبقية ليست بعيدة، عزيزتي»، تظل تكرر: «سندسّك في الفراش فورا. هل أنت متعبة للغاية؟ كيف الألم الآن؟».

تقول كلوديا: «أنا بخير»، ولم تكن بخير. الواقع أن الألم كان شديدا؛ تشد عضلات بطنها محاوِلة إيقافه.

يعلو صوت بكاء طفل. تمران بباب ذي نافذة زجاجية واسعة يمكن من خلالها رؤية صفوف من أسرّة الأطفال. تتوقف كلوديا.

تقول الممرضة: «حسنا إذا، لن أفعل ذلك لو كنت مكانك، عزيزتي.. الأفضل أن تأوي إلى الفراش». تضطرب نبرتها المبتهجة؛ كانت هذه عقبة غير متوقعة. «كل شيء سيكون على ما يرام، سيدة هامبتون، في خلال بضعة أشهر سنضع طفلك أنت أيضا بالداخل هناك».

تقول كلوديا: «أنا آنسة ولست سيدة». تحملق خلال النافذة الزجاجية. لا يظهر سوى رؤوس الأطفال، بعضها يغطيها الشعر، وبعضها بلا شعر، تظهر وكأنها محض قطع صغيرة من اللحم الأحمر في الجزء

(55) شجرة إبرية موطنها الأصلي أستراليا وجنوب شرق آسيا وإندونيسيا حيث يسمونها (جيمارا أو سيمارا)، تمتاز بطول إبرها، وهي عالية ويصل طولها حتى 34 مترا. (المدقق)

العلوي من مجموعة من الأغطية الملفوفة. «لماذا جميع أرجل الأسرَّة موضوعة في علب بها ماء؟».

«هذا بسبب النمل. لو لم نفعل ذلك لوصل النمل إلى الأطفال. هذا بلد فظيع. المناخ والحشرات، لم أر شيئا مثل هذا أبدا».

تضع يدها على ذراع كلوديا، وهي تداري توترها بخلق جو من الخصوصية. «لن تصدقي الأمر، لكن قيل لي، كان هذا قبل أن أحضر أنا هنا، كما ترين، منذ بضع سنوات، إنه كانت هناك فتاة لم تملأ العلب بالماء، فوجدوا أحد الأطفال ميتا. كان النمل قد وصل إليه. أكل عيون الصغير. وجدوه ميتا وقد اختفت عيناه والنمل يغطيه».

تبتعد كلوديا. تقف لحظة وكأنها تفكر ثم تستدير نحو الطبق المليء بالرمال الذي يطفئ فيه الناس سجائرهم؛ تتقيأ فيه بعنف، في نوبات تستمر بضع دقائق.

تقول رئيسة الممرضات: «إنك تعانين حالة إجهاض يا عزيزتي. أعتقد أنك تعرفين ذلك. سنحاول أن نريحك بقدر استطاعتنا». تنظر إلى كلوديا. تعبير وجهها خالٍ من المشاعر ومحايد، إنها خبيرة تتمتع بمهارة عالية. تستمر في الحديث: «أعتقد أنك، في ظل هذه الظروف، قد تشعرين بأن هذا هو الوضع الأمثل. سيأتي الطبيب لمعاينتك ثانية خلال دقائق».

ترقد كلوديا ممددة وساقاها مضمومتان بشدة. هناك حيوان ما ينهش أحشاءها من الداخل. تحدق في المرأة ثم ترفع نفسها في الفراش. تهمس: «كلا». كانت تنوي الصياح لكن صوتها يخرج نفَسا أجش. «أنا لن أجهض. هذا ليس الوضع الأمثل، وليس من حقك أنت أن تقرري هذا. يجب عليك أن تفعلي شيئا».

ارتفع حاجبا رئيسة الممرضات حتى بلغا حافة قلنسوتها تقريبا.

لم تعد نبرتها خالية تماما من المشاعر. تقول: «أخشى أن الطبيعة تأخذ مجراها في مثل هذه الحالات».

تصرخ كلوديا: «إذا، فلتفعلي شيئا! أريد هذا الطفل. لو لم تنقذي هذا الطفل فسوف.. سوف..». تنام في الفراش مرة أخرى والدموع تلسع عينيها. تغمغم: «سوف أقتلك! سوف أقتلك، أيتها البقرة!».

وبعد ذلك بساعات عدة، حينما كانوا منشغلين بالأطباق المليئة بالمياه وبالدلاء والأغطية، كانت تعي أنها تصرخ ثانية، تصرخ فيهم، وتسبهم. تقول الممرضة الأيرلندية: «لم يكن فتاة ولا صبيًا. لقد انتهى الأمر الآن. أفضل ما يمكنك فعله هو أن تنسي الأمر برمته».

الفصل الحادي عشر

تظل الفوضى متلازمة مع الآثار التالية للحرب. وهذه العبارة، بالمناسبة، هي مثال لسوء استخدام اللغة؛ عبارة «الآثار التالية» هي مصطلح زراعي لطيف، له معنى محدد. فالآثار التالية هي المحصول الثاني من الحشائش التي تظهر بعد حصاد الأول. لذا فالآثار التالية للحرب يفترض أن تكون، لو تحرّينا الدقة، هي حربا أخرى؛ وعادة يكون الأثر هكذا. لكن الآثار التالية التقليدية هي الصراع لإعادة ترتيب كل الأمور التي اضطربت. وهذا يشمل التفكير وإعادة تقييم الأمور، وإحصاء عدد الأحياء والأموات، وعودة النازحين إلى بلادهم، وتوزيع اللوم، واستخلاص العقوبات، وأخيرا، كتابة التاريخ. حينما يُكتَب التاريخ في نهاية المطاف، نعرف ما قد حدث حقًا.

زرت معسكرا للنازحين في أواخر عام 1945. كنت أرتب لكتابة مقال عنهم لمجلة «نيو ستيتسمان». كان المعسكر في مكان ما على الحدود الألمانية - البولندية، في منطقة من أوروبا؛ حيث لا معنى للحدود القومية، ولا ملامح للطبيعة، فكلها على شاكلة واحدة تجعلها بلا قيمة. أنت في وسط بقعة من الأرض: لا توجد حدود، بل مجرد سماء وأفق. ظلت هذه البقعة محل نزاع مئات السنين، تتصادم الجيوش بسببها مرارا وتكرارا. يفترض أنه كانت هناك من قبل حقول تبن، ومزارع صغيرة، وأبقار ودجاج وأطفال. والآن، بعد خمس سنوات من سوء الاستغلال صارت أرضا بورا؛ وفي وسطها، كان المعسكر، صف وراء صف من البيوت الإسمنتية الصغيرة التي كان الناس يتجولون بينها في تعاسة، أو يقفون في الصف للقاء آخر

مع مسؤول مرهق آخر تحيطه الصناديق المليئة ببطاقات الفهرسة. حضرت بعضا من هذه اللقاءات. كان معظم الناس كبارا في السن، أو هكذا بدوا، وملامحهم تكذب الأرقام المسجلة في بطاقاتهم؛ لكن بعضهم، على الرغم من ذلك، كانوا صغارا. قرويات صغيرات نُقِلن على سبيل السخرة، وقد صارت وجوههن الريفية التي كانت سمينة رمادية وهزيلة، فبَدَوْن في الأربعين من العمر بدلا من السابعة عشرة. وكنَّ يتحدثن بلغات مختلفة، فلم تكن تعرف أبدا أي لغة ستسمعها في المرة التالية: الليتوانية، الصربو - كرواتية، الأوكرانية، البولندية، الفرنسية.. كان المترجمون يتحركون بسرعة جيئة وذهابا. تحدثتُ مع سيدة عجوز جنسيتها المسجلة هي البولندية، لكنها كانت تتحدث الفرنسية، لهجة فرنسية أنيقة تنتمي للصالونات. كانت ترتدي معطفا رماديّا رثّا، وتلف وشاحا حول رأسها، وكانت رائحتها كريهة بعض الشيء؛ لكن حديثها كان يشي بأنها من عائلة مترفة، كان حديث امرأة فصيحة من الطبقة الأرستقراطية، شبيها بأصوات معلمات الموسيقى. كان زوجها قد توفي بمرض التيفوئيد، وقتل النازيون أحد ابنيها رميا بالرصاص، والآخر مات في معسكر اعتقال، واختفت زوجة ابنها وأحفادها. قالت وهي تنظر إليَّ: «أنا وحدي في العالم. وحدي في العالم..». وحولنا في كل مكان كان الناس يمرون وهم يمشون متثاقلين أو يقفون بصبر في طوابير بلا نهاية.

كتبت مقالي لمجلة «نيو ستيتسمان»، على ما أعتقد؛ ربما أكون أتيت على ذكر السيدة البولندية العجوز. من المفترض أنهم أعادوها إلى مكان ملائم؛ أرسلوها إلى بلد ملائم، ووضعوا علامة على بطاقة الفهرسة الخاصة بها. لن تصير واحدة من تلك المسائل المعلقة التي تتسبب في مشكلات طوال سنوات، تلك الأمور المتكررة التي تتسبب

في انتقادات من جانب المؤسسات الدولية: ألمانية من منطقة الفولجا، أو من تتار القرم. على الأقل، كانوا يعرفون من هي وأين كانت.

يكون الأمر مريحا جدّا للأمة من الناحية التاريخية عندما تكون لها حدود. الجزر تفي بهذا الأمر بصورة متكافئة. أذكر أنني كنت أفكر في هذا الأمر عندما رأيت الجروف الصخرية المنحدرة في دوفر ثانية في عام 1945. كانت تلك الجروف، هناك، تستدعي ذكريات شكسبير، الصرير المملّ للطباشير على السبورة المدرسية، وتلك الأغنية التي تدور حول العصافير الزرقاء. كانت هناك أسلاك شائكة عند سفوحها، وأبراج مراقبة على قممها. كان هناك في كل مكان جنود مسرحون من الجيش، يسهل تمييزهم في بزاتهم الجديدة التي لا تناسبهم مقاساتها؛ وكان الجميع يتذمرون من شيء ما. لو كان هذا هو النصر، فقد بدا وكأنه بالكاد يستحق كل هذا العناء. جلست في قطار أخذ يتهادى ببطء في طريقه عبر حقول كنت؛ النوافذ لما تزل محجوبة جزئيّا، وقد خُدِش الطلاء على شكل ممرات واسعة بحيث كانت المناظر الطبيعية تومض خلسة. جلست أفكر في تلك الجروف الهائلة.

كان غوردون في محطة فيكتوريا ليستقبلني. كان بزيٍّ التسريح من الجيش، وقد قصَّر شعره للغاية، وبتلك العلامة على وجنته التي لم يكن أحد غيري ليلحظ وجودها.

يمكنها أن تراه من منتصف الطريق إلى رصيف المحطة، يبدو الأمر وكأنه لم يكن هناك أحد سواه. تتوقف على مسافة ستة أقدام منه؛ إنه هو نفسه، وليس هو نفسه، هذا هو الوجه الذي تعرفه بصورة أفضل من أي وجه آخر، لكنه كان في الوقت نفسه وجه شخص غريب. صارت له طبقات جديدة؛ كانت هناك تراكمات وتعديلات. كانت المسافة التي بينهما تشهد على ذلك، الأقدام الستة من رصيف المحطة الرمادي؛ لم

تتمكن من عبورها. لو أنها فعلت هذا لكان معناه أخذ خطوة للوراء. للوراء نحو شخوص كلوديا الآخرين، ونحو شخوص غوردون الآخرين. لكن هذه الشخوص لم يعد لها وجود؛ لقد مُحوا تماما مثلما مُحِي ذلك الوجه المعروف وأُحِل آخر محله. تشعر بالانبهار والخوف. تبحث داخل ذاتها عن بعض الإشارات المألوفة. ثم تخطو عبر الأقدام الستة من الرصيف، تلمسه، فتومض الإشارات فجأة. لكنها بعيدة الآن، بعيدة وقد غشيتها أمور أخرى كثيرة.

يرى أنها قد صارت أضأل حجما وأنحف كثيرا، وأن شعرها أحمر. لم تكن ملابسها التي ترتديها داكنة ورخيصة مثل ملابس كل المحيطين بهم؛ كان معطفها برتقاليًا زاهيا، يبدو بوضوح أنه يختلف عن الذوق الإنجليزي، وكانت تعتمر قبعة صغيرة مزينة بالريش. كان ينظر إليها قبل أن يدرك أن هذه هي كلوديا (كان الآخرون أيضا يختلسون النظرات، أو يحملقون بوضوح). تتقدم منه، دون أن تبتسم أو تلوِّح بيدها، ثم تتوقف. لو لم تكن عيناها مثبتتين عليه لظن أنها لم تتعرف عليه.

ثم دنت منه، وقبّلته. كانت لها رائحة عطر أجنبي ثمين، ولكن تحت رائحة شانيل تلك أو أيّا ما كان عطرها كانت هناك رائحة أخرى، رائحة غنية مثيرة للعواطف، تذكِّر بلحظات لم يعد من الممكن استعادتها. شيء ما بداخله تحرك، رفع رأسه وأخذ يتشممها. وكانت كلوديا تتحدث عن العلامة التي بوجهه.

«هذا هو الجرح الذي أُصِبت به في الحرب. مرض جلدي كريه في الهند. هل هو واضح لهذه الدرجة؟ لكنك أنت، كما يسعدني أن أرى، لم تصابي بسوء».

تقول: «هل أبدو كذلك بالفعل؟ هذا جيد».

«لكن شعرك أحمر. كنت أظنه بنيّا».

«كان شعري دوما أحمر. كان هذا من الأمور التي كانت والدتي مستاءة مني بسببها منذ الطفولة. كيف حالها؟».

ذهبنا إلى مقهى، وشربنا شايا له قوام كثيف وتفوح منه رائحة كريهة من تلك الأكواب التي يبلغ سمكها نصف بوصة. ظللت أحملق حولي. كانت للندن والمباني والناس والحافلات وسيارات الأجرة، الطبيعة المصطنَعة نفسها على غرار غوردون نفسه، وكأنه منظر طبيعي خيالي تجسّد فجأة. وعندما رأيت المواقع التي أصابتها القنابل، وبيتا خرجت أحشاؤه حتى ظهرت مداخن المدافئ دونما اكتراث، وظهرت آثار بدت كأنها طيف أدراج، أدركت أن الزمن قد مر هنا أيضا. لكنني كنت أشعر كأنني زائرة، لا مواطنة عائدة إلى بلدها.

تبادلنا الحديث. أخبر بعضنا بعضا كل ما كنا سنحكيه عمّا شاهدناه وما فعلناه، وأين كنا ومع من. ركّزتُ في المساحات الخالية في رواية غوردون، وعلى ما أعتقد، استمع هو إلى اللحظات الصامتة في روايتي. بعد حوالي ساعة كنا قد عدنا للوراء خمس سنوات، كنا نتناوش ونتنافس، ويبذل كلانا جهدا ليلفت انتباه الآخر. كان غوردون، حسب ما فهمت، قد دخل في علاقة مع فتاة أمريكية في دلهي. سألت: «لماذا لم تتزوجا؟». ضحك، وقال إنه لم يكن لديه الوقت حتى يتزوج. كان يرتب للعودة إلى مشروع البحث الذي كان يعمل عليه قبل الحرب، وكانت لديه عروض عمل من جهات عديدة، وكان يرتب للقيام بدور مهم.

بعدها بعام، التقى سيلفيا. لم أشعر أبدا بالغيرة من سيلفيا. لو فعلت ذلك لكان أمرا سخيفا. لكن تلك الفتاة الأمريكية المجهولة، كانت تتسبب لي بالشعور بوخزة كريهة، ولحوالي عام كنت أحاول أن أتخيلها.

لم أعرف رجلا استطاع أن يثير اهتمامي مثلما فعل غوردون حتى بلغت أواخر العشرينيات من العمر. لهذا بقي الحال بيننا كما كان عليه.

كنت أقارن كل رجل ألتقيه به، وكانوا جميعا يفشلون في الوصول إلى مستواه؛ كانوا أقل ذكاء وأقل ظرفا وأقل جاذبية. كنت أختبر نفسي باحثة عن تلك الرعشة التي كان يثيرها غوردون، ولم أكن أجدها. بدا من سوء الحظ أنه ليس ثمة شخص آخر في هذا العالم يقارَن بي سوى أخي.

كنا أنا وغوردون في أقصى حالات وعينا بذاتنا، مشتعلَيْن بالمشاعر وبغرور المراهقة المتأخرة. كنا ننظر إلى بعضنا ويرى كلٌّ منا ذاته منعكسة في الآخر. كنت أرى في غوردون بصيصا من انعكاس لصورتي أنا؛ ولما كان ينظر إليَّ، كنت أرى في عينيه أنه كان أيضا يرى صورة منعكسة تناديه. كنا نتواجه كالمرايا، نعكس الصور في تتابع لا نهائي. كنا نتبادل الحديث معا باستخدام الشفرات. صار بقية الناس، لفترة من الزمن، لعامين ازدرينا فيهما الآخرين، من طبقة العمال، وصرنا نحن طبقة أرستقراطية مؤلَّفة من اثنين.

تحولت غرفة الدرس إلى صالة للرقص. الأريكة والمقاعد دُفِعت تجاه الحوائط، ولُفَّت قطع السجاد، وكان الجراموفون (الحاكي) يقبع فوق الطاولة القديمة المغطاة بقماش الجوخ.

كان لغوردون الآن شذى رجل. بينما هي ملتصقة به، وشعرها يداعب وجنته، كانت هناك في أنفها رائحة ذكر تام النضج، مجهولة تقريبا، وكأنها لم تعد رائحة غوردون لكن شيء آخر. كانت لذيذة، وسرى في جسد كلوديا شعور غريب ومثير للاهتمام.

«بطيء، سريع، سريع، بطيء.. القدم الأخرى، أيتها الغبية.. لنبدأ ثانية».

قال غوردون إن كل الناس في كامبريدج الآن يرقصون على موسيقى الراجتايم. لكن ذلك ممل. وكذلك رقصة التشارلستون. يتقافزون كالمجانين، كما يقول غوردون. كلا. الرقصة الوحيدة الآن التي تستحق

أن يؤدوها هي فوكستروت بطيئة. ورقصة الكويك ستيب. ويجب أن تتفوقي فيها على الجميع، هذا هو الهدف. يجب أن تكوني خبيرة لدرجة تجعل جميع من بالغرفة يتوقفون، وتبقين وحدك في حلبة الرقص. هذا ما يخططان لتحقيقه في حفل آل مولزورث الأسبوع المقبل.

«عندما أضغط على ظهرك سنعكس الخطوات. الآن».

بحزم، وبدفء، تتلاعب يد غوردون بها وينحرفان جانبا بمهارة. بطيء، سريع، سريع، بطيء. «هذا أنيق للغاية.. مرة ثانية..». بطيء، سريع، سريع، بطيء. يقطعان الغرفة، مرارا وتكرارا، ويزدادان مهارة في كل مرة، يتحركان كشخص واحد.. يندفعان نحو الجراموفون عندما يبدأ في التوقف.. ثم يلتصقان ثانية. أوه! هذا رائع.. فلنستمر إلى الأبد، نحن نزداد تحسنا، دعنا لا نتوقف أبدا..

وهكذا لا يتوقفان لفترة طويلة. يتسلل الغسق إلى الغرفة؛ يبتعدان فقط لتغيير الأسطوانة، أو لإطفاء جهاز الجراموفون؛ لا ينبس أحدهما بكلمة. يا للنعيم! تقول كلوديا لنفسها.. يا إلهي! يا للنعيم!.. تتلذذ بهذا الشعور الرائع.. لم تشعر هكذا أبدا من قبل. ماذا كان هذا الشعور؟

يتوقفان، في نهاية الأمر، بجوار النافذة، في ضوء الشفق الأزرق البارد، وينظران إلى بعضهما. كان وجهاهما متقاربين. تعلَق إبرة الجراموفون في الأخدود، وتظل النغمة نفسها تُعاد، مرارا وتكرارا.

تقول أمي: «وهناك شيء آخر. على ما يبدو أنك رقصت مع غوردون طوال المساء عند آل مولزورث يوم الخميس. تقول السيدة مولزورث إن هذا لم يكن بسبب أنه لم يكن لك شركاء آخرون. تقول إن نيكولاس طلب منك الرقص على الأقل مرتين، وروجر سترونغ أيضا. هذا تصرف فظ للغاية. وعلى ما يبدو فإن غوردون لم يطلب من سينثيا مولزورث الرقص ولو مرة واحدة. لقد كبرتما على التصرف بهذه الطريقة الآن».

تقول أمي: «كلاكما صامتان للغاية هذا الصباح. ناولني مربى البرتقال من فضلك يا غوردون. وكلوديا عزيزتي، لا أعتقد أن هذا الفستان الذي كنت ترتدينه الليلة الماضية مناسب على الإطلاق للمكان هنا. ارتديه وأنت في المدينة لو كان عليك ذلك، لكنه ليس مناسبا أبدا للريف. كان الناس ينظرون إليك».

يقول غوردون: «ضربة جيدة. أربعون - صفر». عندما يمرّ أحدهما بجوار الآخر، يغمغم: «اضربي الكرة تجاهها بعنف، بضربة خلفية هذه المرة».

كانوا قد هزموا الجميع هزيمة ساحقة. جلس باقي مجموعة لاعبي التنس وسط أحواض الزهور وهم يراقبونهما بكراهية. تمشي كلوديا الهوينى إلى خلف الملعب، بينما هي تتأمل بإعجاب ساقيها العاريتين اللتين اكتسبتا سمرة من الشمس. تستدير؛ تأخذ وقتها قبل أن تضرب الكرة، وتستمتع للحظة بمنظر ظهر غوردون، وشعره الذي يسترسل على طوق قميصه، وهيئته.

تقول أمي: «سيذهب الأولاد إلى باريس بضعة أيام. الحقيقة أنني أشعر بأن كلوديا لم تزل أصغر من أن تفعل هذا، لكن غوردون سيكون معها ليعتني بها».

يقول غوردون: «هذا بيرنود. ويستحسن أن تحبيه. لا يمكنك أن تأتي هنا ولا تشربي البيرنود». وفي النهاية، حينما ينهضان ويتحركان تدرك أنها تطفو، لا تسير، بل تطفو عبر الطريق بلطف وهي تمسك بذراعه. تقول: «يجب أن نأتي إلى هنا كثيرا». يقول غوردون: «بالطبع. كل الناس المتحضرين يقضون الكثير من الوقت في باريس». كان يوم ميلاده؛ بلغ العشرين من العمر حينئذ.

تقول أمي: «سوف تذهب كلوديا إلى أوكسفورد. بالطبع، تذهب فتيات كثيرات إلى هناك الآن، ولطالما كانت تحصل على ما تريد».

على مدى صيف. صيفين، ربما، وشتاء. منذ زمن قديم تاه من الذاكرة، أو على الأقل لم يتُه بل اختُزل إلى سلسلة من اللحظات التي فعلنا فيها هذا أو ذاك، قلنا فيها هذا أو ذاك، أو كنا هنا أو هناك. عندما كنا في المنزل، ممدَّدَيْن في غرفة الدرس، مستغرقَيْن في بعضنا، بينما أمي في الأسفل تغني لنفسها وهي تعتني بالزهور. أو في غرفة غوردون في كامبريدج، أو في مسرح في لندن، أو نتجول وسط الطبيعة في دورسيت، ونحن ندعي الملل بغطرسة. لا أشعر بالاستغراب من أن الناس كانوا ينظرون إلينا بكراهية. عام، ربما عامان.. ثم بدأ كل منا ينظر أبعد من الآخر، نبتعد، نهتم بطبقة العمال المحتقَرة التي كانت وراءنا. لقد مر هذا الزمن؛ وهو في الوقت نفسه مقيم إلى الأبد، ويحدد الطريقة التي نتعامل بها. وبسبب ذلك لا يزال باقي الناس مستبعدين. معظمهم لم يعلم هذا أبدا؛ فقط سيلفيا، المسكينة الغبية سيلفيا، التي اشتمَّت الأمر، لكنها لم تعرف أبدا كنه الرائحة التي اشتمَّتها إلا بعدها، بعدها بكثير.

كان هناك دجاج مشوي لغداء يوم الأحد، وصلصة الخبز، ولفائف لحم الخنزير المملح، وكل الأطباق الجانبية.. قامت أمي بعمل كل شيء بنفسها، بكل شجاعة، مع تعليقات صغيرة متواضعة. كانت قد تعلمت الطهي بنفسها، أمي الشجاعة، منذ هروب آخر الخدم من القرية. أهدتها كلوديا بمناسبة عيد الميلاد كتاب إليزابيث ديفيد «فن الطبخ الريفي الفرنسي» الذي تقبلته بتهذيب، لكن بلا حماس؛ ولم تظهر أي أطباق من الدجاج بالنبيذ الأحمر أو الفطائر المحشوة بالجبن ولحم الخنزير المملح على مائدة الطعام في سترمنستر نيوتن.

تقول سيلفيا بحماس وهي تقوم بدور زوجة الابن الطيبة: «إنه رائع، سيدة هامبتون. لذيذ للغاية. أعتقد أنك ماهرة».

تجلس أمي على طرف المائدة، وسيلفيا عن يمينها. كلوديا في الجهة المقابلة، وغوردون في الطرف الآخر. تستمر كل من أمي وسيلفيا في النقاش حول صلصة الخبز والجزارين، وبنبرة صوت أكثر انخفاضا، حول التطورات المثيرة للاهتمام لحمل سيلفيا الأول.

تسمع كلوديا كل هذا وكأنه مجرد ضجيج في الخلفية، طنين ذباب، أو صوت جزّازة العشب. لم تكن قد رأت غوردون منذ شهرين. كان هناك جدال لم يُحسَم بعد، عليهما استئنافه، وبعض النكات البذيئة عليها أن تحكيها، وقد جعلت واحدة منها غوردون يضج بالضحك. تقطع سيلفيا حديثها مع أمي وتلتفت. كانت عيناها تعكسان قلقا. تصيح: «أوه، ما هي النكتة؟ أخبرني!». ويقول غوردون وهو ينهض ليجلب لنفسه المزيد من الدجاج: «إنه مجرد شيء يخص شخصا كنا نعرفه، وليس مضحكا لهذا الحد في الواقع. هل يريد أحدكم المزيد من الدجاج؟». تتجهم سيلفيا، وتقول: «شرير! كلوديا، أخبريني أنت..». وتنتبه كلوديا لأول مرة لزوجة أخيها التي ترتدي ما يبدو وكأنه كيس وسادة واسع، منتفخ، منقوش بالزهور، وقد نبت منه وجهها الوردي الجميل وشعرها الذهبي. في الواقع، لم تكن سيلفيا تثير في كلوديا أية مشاعر على الإطلاق، بخلاف شعور بعدم التصديق. كانت تتساءل من وقت إلى آخر عما كان غوردون يحادثها بشأنه.

تقول: «أوه! مجرد نميمة. لا شيء حقًا..».

تستدير سيلفيا لتواجه حماتها: «هل كانا دوما هكذا، سيدة هامبتون؟ متعصبين لبعضهما لهذا الحد؟».

تقول أمي بهدوء: «أوه! لا. كانا يتشاجران لدرجة فظيعة».

تصيح سيلفيا: «ونحن أيضا! أنا وديسموند. كنا نكره بعضنا. كنا طبيعيين للغاية. وما زلنا كذلك. أعني، إنني أحب ديسموند، لكننا، في الحقيقة، لا يوجد بيننا أي شيء مشترك».

يجلس غوردون ثانية ومعه طبق مليء بالطعام: «سوف أفعل ما بوسعي أنا وكلوديا حتى نمارس غرابة أطوارنا على انفراد في المستقبل. اتفقنا، كلوديا؟ يمكننا أن نرتب أمر مشاجرة خاصة لأجلك الآن، لو أردت ذلك».

تشعر سيلفيا بالاضطراب. ترفع يدها لذراعه وتعصرها، ويصير وجهها ورديًا بدرجة أكبر: «يا إلهي! لم أكن أعني أنكما غريبا الأطوار، لكنه مجرد أمر غريب أن يكون أخ وأخته متقاربين إلى هذا الحد! إنه أمر رائع، حقًا».

طوال حديثها مع السيدة هامبتون، كان بإمكانها أن تسمعهما، أو، بالأحرى، لا تسمعهما بوضوح، بطريقة تثير جنونها. كان غوردون يتحدث بنبرة الصوت تلك التي لا يستخدمها مع أي شخص آخر. وصوت كلوديا العميق، الذي بإمكانه أن يقطر بالسخرية، ويجعل المرء يفقد ثقته بنفسه، كان يكتسب خصوصية مميزة مع غوردون. وحينما كانت تحاول المشاركة في الحديث كانا يرفضان التحدث، يصمتان، يغير غوردون موضوع الحديث، ويعرض عليها المزيد من الطعام.

كانت كلوديا ترتدي ثوبا أحمر، ضيقا للغاية حول وسطها ووركيها. كانت بالغة النحول في هذه الأيام. تقول سيلفيا بإصرار: «يعجبني ثوبك. أتمنى لو كان بإمكاني ارتداء أشياء مشابهة». تربت على بطنها، وتنظر إلى كلوديا. كلوديا غير المتزوجة، التي لن تنجب طفلا. تشعر بوهج مريح من الرضى عن الذات. بعد أن استعادت ثقتها بنفسها هكذا، تتمكن من استعادة مرحها، ومن المزاح، لتسأل السيدة هامبتون التي كانت لطيفة، ولا تثير معها أي مشكلات أبدا عن طفولة كلوديا وغوردون، ولتثرثر بطريقة مسلية عن نفسها هي وديسموند. ثم يقول غوردون شيئا بنبرته التي تقصيها؛ نبرته الباردة، وكأنه يحادث شخصا يعرفه معرفة عابرة، ولا تعود تشعر بالثقة بالنفس، وينطفئ توهجها.

تصيح: «لم أكن أعني أنكما غريبا الأطوار. إنه أمر رائع، حقًا». لم تحسن التعبير. كان كلاهما ينظران تجاهها الآن، غوردون وكلوديا؛ كانت قد استحوذت على انتباههما بالفعل، لكن ليس بالطريقة التي كانت تتمناها. هل كانا يضحكان عليها؟ هل كانت هذه انحناءة ابتسامات صغيرة على أركان شفاههما؟

تقول كلوديا: «يا إلهي! تجعليننا نبدو وكأننا من بلد غريب بعيد. لا أعتقد أننا شعرنا أبدا وكأننا من بلد غريب، أليس كذلك؟».

يقول غوردون، وهو يتناول الدجاج المشوي: «عندما أفكر بالأمر أعتقد أن له علاقة ببلاد بعيدة غريبة بالفعل. لكنها بلاد كلاسيكية. راقية للغاية. انظري إلى الإغريق».

تقول كلوديا: «وانظر إلى نيللي فروبيشر في القرية. كان الدكتور كراب يقول إن بإمكانه أن يخمِّن من أية قرية جاء الناس في وسط دورسيت من خلال أشكال رؤوسهم».

تهتف السيدة هامبتون: «كلوديا، حقًا..».

ولا تستطيع سيلفيا أن تتحمل أكثر من ذلك. فجأة، تشعر بتوعك. تدفع كرسيها للخلف، تضع يدها على بطنها، وتقول بكبرياء إنها ستذهب لتستلقي قليلا، وهي على ثقة بأن الجميع سيتفهمون الأمر.

وبينما تصعد السلم، تستطيع أن تسمع السيدة هامبتون وهي تعنفهما.

الفصل الثاني عشر

تقول كلوديا: «شكرا. تبدو جميلة وثمينة. أرى أنها من محلات فورتنام. ضعها على الطاولة، رجاء. سوف تتولى أمرها الممرضة المسؤولة عن العناية بالزهور».

كانت مستندة إلى الوسادات في وضع قائم. وكان أمامها لوح مائل بزاوية، ومعها ورق وقلم.

يقول جاسبر: «تكتبين شيئا». يجلس في الكرسي المجاور للفراش، فيصدر صريرا فاضحا. أصبح جاسبر شخصية كبيرة هذه الأيام من جميع النواحي.

«ما الذي تكتبينه؟».

«كتاب».

يبتسم. ويسألها متساهلا أو غير مصدِّق: «عن ماذا؟».

تجيب كلوديا: «تاريخ العالم». وترمقه بنظرة. «الأمر فيه تباهٍ، أليس كذلك؟».

يقول جاسبر: «لا، على الإطلاق. وإني أتطلع لقراءته».

تضحك كلوديا: «أشك في ذلك، لأسباب متعددة». يسود الصمت. تضيف: «أفضِّل أن أبقى منشغلة، حتى وأنا أموت كما يزعمون».

يلوح جاسبر بيده رافضا. «هذا هراء يا كلوديا».

«حسنا، سوف نرى. أو بالأحرى، سوف ترى أنت. إذا.. ما زلت تنتج حلقات مكلفة تحرّف الواقع، حسب ما فهمت. حياة المسيح في ست حلقات، أليس كذلك؟ تتخللها فواصل إعلانية».

يبدأ جاسبر في الحديث، يلتقط أنفاسه، ويتوقف. ثم يبدأ ثانية: «ليس هذا هو الزمان ولا المكان المناسب لمثل هذا الجدال، كلوديا. فلنأخذ هدنة، اتفقنا؟ لقد جئت لزيارتك، لا للجدال».

تقول كلوديا: «كما تحب. اعتقدتُ أنه ربما يكون علاجا فعالا. فاليوم واحد من الأيام التي أتمتع فيها بوعيي بصورة أفضل، حسب ما أخبروني. لطالما استمتعت بجدالاتنا، ألم تستمتع بها أنت؟».

يبتسم ابتسامة ساحرة على نحو يوحي بمحاولة استرضائها: «لم أندم على شيء أبدا، يا عزيزتي، وخصوصا أوقاتي التي أمضيتها معك».

تنظر كلوديا نحوه بحدة، وهي تقول: «آه! حسنا، أتفق معك في ذلك. فلا فائدة من الندم، حيث لا يمكن تغيير ما حدث. فقط من يدَّعون الورع هم من يجلدون أنفسهم. أتريد فنجانا من الشاي؟ اضرب ذلك الجرس لو كنت تريد».

أعتقد أنني كنت منبهرة بمن استغلوا الظروف التاريخية؛ لأنني كنت أشعر بالتوافق معهم. المغامرون السياسيون - تيتو، نابليون. أساقفة القرون الوسطى؛ الصليبيون؛ والمستعمرون. هؤلاء لا أحبهم، لكن لا لا يسعني سوى أن أراقبهم. لطالما أسرني التجار والمستوطنون، أولئك الانتهازيون الجسورون القساة الذين يقحمون أنفسهم في الشقوق والفجوات والقنوات التي تخلقها السياسة والدبلوماسية. لا يمكنني إلا أن أهتم اهتماما نقديًا بتجارة التوابل، وتجارة الفراء، وشركة الهند الشرقية. بكل هؤلاء الرجال من القرنين السابع عشر والثامن عشر الذين يصعب تدميرهم، الذين يملأ الجشع أعينهم، المراوغين الذين يفتقرون لأي حس أخلاقي، الذين غامروا بحياتهم وكونوا ثروات إبان الأحداث العامة.

الجشع صفة مثيرة للاهتمام. كان جاسبر جشعا؛ كان يحب الحصول على المال في سبيل المال ذاته، ليس لما يمكنه أن يشتريه وحسب، بل

بسبب حب التملك نفسه: أرقام مسجلة على الأوراق. الطمع المركَّز على كشوف الحساب البنكية والأسهم عصي على الفهم أكثر من طمع تاجر من العصر الإليزابيثي ومعه غنيمته من القرفة والقرنفل والتوابل وجوز الطيب، وفي الغالب سبائك الذهب المخبأة أسفل ألواح خشب الأرضية. وحيث إنه لا أحد في زمننا هذا يقترب من الثروات الواضحة الملموسة أكثر من اقترابه من كشف حسابهم البنكي، أو البطاقات الائتمانية المستطيلة في مَحافظهم، فمن المرجح أن حكايات الصحف عن الكنوز هي التي تثير مشاعر بدائية من هذا النوع. كنوز من العملات تم اكتشافها بالمحراث، وصناديق من العملات الذهبية تحت أعماق مضيق السولنت. يسيل لعابنا جميعا بعض الشيء عند التفكير في الذهب والفضة، ونضفي الاحترام على الجشع بإلقاء الخطب حول الاهتمام بالماضي. هذا مجرد هراء. لا يهتم الناس بالأنجلوساكسونيين ولا ببحارة القرون الوسطى، ولكن بالنقود والأوراق المالية والجنيهات الذهبية والعملات الفضية والعملات الذهبية والسبائك المعدنية، أشياء يمكنك أن تمسكها بيديك وتَعُدها، وتشعر بثقلها وتخبئها أسفل الفراش.

أفاد جاسبر من الحرب ليحولها لمصلحته. كان حريصا على ألا يتعرض أبدا لأي خطر حقيقي ولا لأي إزعاج كبير، وأخذ يعزز مستقبله المهني. ارتقى درجات السلم الاجتماعي وتفوق على زملائه، ويمكنني القول إنه أسهم بدرجة صغيرة في تحقيق النصر. كان جاسبر وطنيًا، بالطبع، لكن على طريقته.

ربما يثور السؤال، لماذا وقد ارتبطتُ بجاسبر وبقيت على علاقة به، رغم أنني أتحدث عنه بهذه الطريقة. منذ متى كانت الخيارات الجنسية عقلانية أو مبرَّرة؟ كان جاسبر رائعا في الحب، ومسليا خارجه. وعندما صار أبا لليزا، بتنا مرتبطين في السراء والضراء.

قال جاسبر: «سأترك وزارة الخارجية».

كانا يستقلان السيارة ويقطعان نورماندي. تفكر كلوديا في أن الطبيعة خيالية بالتأكيد، مثل حلم فرنسي جمعي بالمزارع والأبقار والتفاح، بالماضي وبما يجب أن يكون عليه العالم رغم أنه ليس هكذا. من المؤكد أنه مجرد وهم، لكن بالرغم من ذلك ها أنا ذي أجلس في سيارة جاسبر الجاغوار التي ليست جديدة تماما، بينما تسرع متجاوزة النوافذ، تبدو المنطقة من القرون الوسطى، لها رائحة فواحة، وبها قصور ومحطات وقود وجرارات زراعية وسيارات سيتروين قديمة متماسكة بالكاد. «هل ستترك وزارة الخارجية بالفعل؟ لماذا؟».

«سبق أن اقترحوا عليّ أن أذهب إلى جاكرتا».

«حقّا؟ سفيرا، على ما أعتقد؟».

«ليس سفيرا». يقولها جاسبر وهو يتجاوز عربة مَزارع وشاحنة بسرعة، ويوجه الجاغوار ناحية طريق تحدّه أشجار الحور. تمر عن يمينهم كنيسة لها باب على الطراز الرومانسكي، وعن يسارهم لوحة إعلانية ضخمة عن مشروب البيرنود.

تضحك كلوديا: «أرى أن منصب الملحق التجاري في جاكرتا غير ملائم. من الذي أثرت حنقه في وزارة الخارجية، إذا؟».

«يا فتاتي العزيزة، الأمور لا تسير هكذا. هناك تدرّج. تدرّج شاق لست مستعدّا للانتظار حتى يتم».

«فهمت. إذا ما الذي ستفعله؟».

«أبحث في مجالات عدة. يجدر بالمرء أن يفكر في مجال العمل التلفزيوني. قد أكتب عمودا لصحيفة التايمز. حلف الناتو احتمال آخر».

تقول كلوديا: «آه! حلف الناتو. لهذا نحن هنا».

«إلى حد ما». يرفع يده عن عجلة القيادة ويضغط ركبتها: «إنها أيضا

فرصة للقيام برحلة قصيرة معك، حيث إنني لا أحظى بهذا بدرجة كافية. لقد وصلنا، على ما أعتقد».

ينحرف بالسيارة عن الطريق الرئيسة، ويدخل من بوابات واسعة إلى ممر بين الحدائق تحدّه الأشجار. يتطاير الحصى تحت العجلات. ثمّة لافتة عند البوابة، غير ظاهرة، مكتوبة بصورة جمالية حتى إن كلوديا لمحتها بالكاد، وكانت تذكر شيئا ما عن قاعة مؤتمرات قصر ما بالفرنسية والإنجليزية والألمانية.

«ما الذي ستقوم به، تحديدا، عندما نصل؟».

«أنا مجرد مراقب. سأكتب مقالا لمجلة سبيكتاتور».

«وما دوري أنا؟».

«أنت سكرتيرتي».

تقول كلوديا: «لست كذلك. يمكنك أن توقف السيارة حالا». تفتح الباب. تنحرف الجاغوار، وتبطئ من سرعتها.

يمد جاسبر ذراعه فوقها: «لا تكوني غبية. أغلقي الباب. أنا أمزح. حسنا، لقد اضطررت لأن أسجلك باعتبارك شيئا ما، أليس كذلك؟ صديقة؟ حبيبة؟».

توقفت السيارة الآن، وجسد كلوديا نصفه في الداخل والنصف الآخر في الخارج. كان يمسك بذراعها.

ترد كلوديا بعنف: «لي اسم، أليس كذلك؟ اتركني».

هو يشد وهي تشد، وفجأة يلمح في مرآة السيارة وجهي السائق وراكب السيارة التي خلفهما وهما يتابعانهما. يجذب كلوديا لمقعدها، ويغلق الباب بعنف، ويتحرك بالسيارة، فترتجّ لدرجة تدفعها للخلف: «عزيزتي، إنك تتصرفين بطريقة لا عقلانية. ما الذي يهم في الأمر؟ نحن هنا لنتسلى، هذا كل ما في الأمر».

تقول كلوديا: «في اللحظة الحالية لست مستمتعة على الإطلاق». لكنه يرى أنها بدأت تهدأ، بعد أن ألقى نظرة سريعة، وهي تمر بإحدى تلك الحالات المزاجية المتقلبة التي تميز كلوديا. الواقع أنها صمتت تماما، وقد لفت انتباهها، على ما يبدو، القصر الذي ظهر مع منعطف الطريق. كان فائق الجمال، يحيط به خندق مائي وزنابق الماء والبجع وكثير من السيارات الرسمية اللامعة التي كانت تقف في المساحة الواسعة أمامه المغطاة بالحصى. يشعر جاسبر بالبهجة؛ منظر السائقين والبزات النظامية والسيارات غير المتاحة للأشخاص العاديين وأعلام الدول ومظاهر السلطة، كلها تعود به إلى سنوات الحرب، حين كان يعمل وسط كل ذلك. ربما كانت الوظيفة في الناتو هي فعلا ما يجب عليه السعي وراءه. تبعا لما يقال، كانت هناك مناصب عليا غير محددة بطريقة ملائمة، يمكن للمرء أن يعمل بها ويخلق منها شيئا جديرا بالاهتمام. وكان يمكنه الفوز بواحدة منها، ولا شك، لو بذل الجهد المطلوب. بدأ يعد في عقله قائمة بأسماء الأشخاص الذين كان عليه أن يحادثهم بعد أن يعود إلى لندن. وكانت هذه مناسبة رائعة كي يجعل نفسه معروفا بين أوساط مهمة أخرى. أن يستعرض خبراته بحصافة، ويتحدث بدراية، بطريقة مسلية وبثقة، بأربع لغات مختلفة. انتابته رعشة أمام الاحتمالات القائمة. سوف يكون منشغلا. ربما لم يكن إحضار كلوديا معه فكرة جيدة. لكن كلوديا، إن لم تتمرد عليه، كانت ميزة. كان الناس يلاحظون وجود كلوديا. وكانوا يلاحظون من برفقتها؛ الرجال يشعرون بالغيرة، والنساء يشعرن بالإعجاب.

بدا القصر وكأنه خارج من عالم ديزني، لا من عالم لويس الثالث عشر. تفحصته كلوديا وهما يقتربان منه، بأبراجه السخيفة وجدرانه النظيفة ذات اللون الفاتح، والخندق المائي الذي به زنابق الماء، وظلت تتفحصه وهما يصعدان السلالم الحجرية ليبحثا عن غرفتيهما. في القصر صالونات

واسعة، مفروشة بالسجاد الوثير، وصالة طعام فسيحة تزين جدرانها الأسلحة القديمة، وكانت كل غرفة لها حمام رشاش ومرحاض. ألقت حقيبة ملابسها على الفراش وذهبت لتطل من النافذة التي تقسمها أعمدة صغيرة من الحجارة؛ كانت هناك إوزة تسبح في الخندق المائي يتبعها صغارها.

يقول جاسبر: «هل كل شيء على ما يرام، عزيزتي؟ المكان جيد، أليس كذلك؟ سأذهب لتفقُّد بعض الأمور، قابليني بالأسفل حينما تكونين مستعدة».

تلتقط كلوديا النشرة الموضوعة على طاولة الزينة، وتقرأ أن القصر الذي كان سكنا لدوقات روكفيل طوال أربعمئة عام، تم تحويله (بالحد الأدنى من التغييرات لمظهره التاريخي) إلى مركز روكفيل للمؤتمرات. تقرأ أن روكفيل مركز دراسات لمشكلات عالم ما بعد الحرب، ومتخصص في المؤتمرات التي يحضرها الخبراء في المجالات الأكاديمية والعسكرية والدبلوماسية والسياسية. صياغة كلمات النشرة رنانة ومراوغة في الوقت ذاته. تلمِّح إلى دعم دولي قوي، وتعمد إلى إثارة الخوف بعض الشيء من خلال استخدام المصطلحات الاقتصادية، وتسهب في الحديث عن السلام والتفاهم وآمال البشرية. كان من الزوار المميزين لروكفيل منذ افتتاحه في عام 1948 ونستون تشرشل، وجون فوستر دالاس[56]، والجنرال ديجول، والبروفيسير جون كينيث غالبرايث[57]، وداغ همرشولد[58].

(56) جون فوستر دالاس (1888 - 1959): تولى منصب وزير الخارجية في عهد الرئيس دوايت أيزنهاور 1953 حتى 1959. كان دالاس شخصية تحظى بأهمية خاصة في أوائل الحرب الباردة، واتخذ موقفا عدائيا ضد الشيوعية في جميع أنحاء العالم.

(57) جون كينيث غالبرايث (1908 - 2006): خبير اقتصاد كندي من أصل أمريكي. كان من أبرز مؤيدي الليبرالية الأمريكية في القرن العشرين وألف عشرات الكتب أشهرها «الرأسمالية الأمريكية» و«مجتمع الوفرة».

(58) داغ همرشولد (1905 - 1961): كان نائبا لوزير الخارجية السويدي، وانتُخب كثاني أمين عام للأمم المتحدة بعد استقالة الأمين العام الأول تريجفي لي عام 1953، وأعيد انتخابه عام 1958 وبقي في منصبه حتى مقتله عام 1961 عندما لقي مصرعه في حادث تحطم طائرته في الكونغو.

غيرت كلوديا ملابسها، وهبطت على الدرج الحجري. كان خبراء هذا الأسبوع من المجالات المختلفة قد تجمعوا في غرفة الاستقبال الرئيسة وهم يتناولون مشروبات ما قبل الغداء تحت ثريات الكريستال، ولوحة جصية ضخمة مرسومة على السقف تصور الحي السادس عشر بباريس، وتسحب فيها مخلوقات صغيرة سيدات شبه عاريات على سحب منتفخة. تقف في المدخل لحظات، وهي تتأمل أولا السقف والأثاث المذهب ذا الأرجل النحيفة، ثم الخبراء. كانت هناك بزات عسكرية (بزات لرتب عالية للغاية، لدرجة أنها لم تكن تزينها سوى أقل القليل من الأشرطة أو الشارات البسيطة)، بزات من التويد للأكاديميين، وبزات مخططة خطوطا رفيعة لسياسيين ودبلوماسيين. لم يكن هناك الكثير من النساء، بعض الشخصيات الأكاديمية يرتدين ملابس محتشمة، وكثير من الفتيات اللاتي يبدو عليهن أنهن سكرتيرات، ويحُمْن حول أطراف الغرفة وهن يتجنبن جذب الانتباه، وسياسية إيطالية معروفة، وشخصية إدارية تتقدم منها الآن، وعلى شفتيها ابتسامة امرأة مضيفة. تتجنبها كلوديا برشاقة، وتتحرك وسط الحشد، للجانب الآخر من الغرفة نحو جاسبر الذي تراه واقفا مع بعض الأمريكيين الذين يرتدون بزات نظامية. تتقدم نحو النافذة بتصميم وتقف بجوار رجل وحيد يتأمل السقف.

تقول كلوديا وهي تأخذ كأسا من صينية ممدودة تجاهها: «تبدو غير ملائمة».

يقول الرجل: «على العكس. نحن غير الملائمين. كانت اللوحة هنا قبلنا».

تتأمله كلوديا عن كثب. كان رجلا غير مميز، قصيرا وأنيقا وله شنب يشبه فرشاة الأسنان، كان من الصنف الذي لا يلاحظه أحد وسط حشد من الناس، وربما لهذا السبب لم يكن هناك من يتبادل الحديث معه. «أنت محق. كان علي أن أقول متنافرة».

يتناول الرجل مشروبه، ويمد يده ليأخذ واحدا آخر من الصينية التي تبتعد. «ومن أنت؟».

تبدأ كلوديا في اتخاذ موقف عدائي. لكن كان ثمة شيء بخصوصه جعلها تستجيب له؛ كان سؤاله مباشرا، لا فظًا، وكانت كلوديا تحبذ الأساليب المباشرة. تخبره باسمها.

«لقد قرأتُ كتابك؛ كتابك عن تيتو».

تشعر كلوديا بالزهو. كانت مغرورة بما يكفي (أوه! بما يكفي بالفعل)، وكانت الشهرة البسيطة أمرا جديدا عليها، بحيث كانت تسعد بتعرّف الناس إليها. خصّت الرجل بكامل اهتمامها، وتجاهلت الغرفة المليئة بالثرثرة والمخلوقات الصغيرة والسيدات شبه العاريات. تدرك الآن أن مظهره كان خادعا؛ كان يوحي بأن لديه عزيمة لا تتزعزع. وكان أيضا رجلا معتادا على إلقاء الأسئلة، وتلقّي الإجابات، وإلقاء الأوامر. سألته عن اسمه.

تبادل جاسبر الحديث حتى وقت متأخر في غرف مِلْؤها الدخان. تشارك زجاجة ويسكي مع أمريكيين وإنجليزي وإيطالي وبلجيكي، جميعهم رجال لهم نفوذ ومعارف كثر. كان يدرك أنه قد ترك انطباعا جيدا. ولما نهضوا في نهاية المطاف وتركوا الكؤوس الخالية، ومنافض السجائر المليئة، والكراسي الجلدية العميقة، كان يشعر بالسعادة؛ السعادة البالغة. كان يريد كلوديا التي اختفت في وقت سابق. رآها وقت الغداء وهي تتبادل حديثا مفعما بالحيوية مع رجل ما (رجل ليست له أي جاذبية جنسية بحيث يشكل تهديدا، مما يمكّن المرء من الابتسام بلطف)، لكنه لما لحق بها فيما بعد تمتمت بشيء ما عن رغبتها في أن تأوي إلى الفراش مبكرا.

يسير جاسبر وهو يترنح بعض الشيء، وقد أنهى عمله لليوم، عبر ممرات القصر الواسعة.

تستلقي كلوديا في فراشها والنور مضاء وفي يدها كتاب. كان الكتاب محاولة فاشلة للتظاهر، وبعد قليل تركته يسقط من يدها. كانت ترقد في هذه الغرفة الغريبة وتشعر بالألم. كان عقلها وجسدها يصرخان. كل ما كانت تنجح عادة في كبته عاد للحياة مجددا. كانت تشعر بالألم وتصرخ من أجل توم. فهي لم تنس أبدا، لكن في الغالب كانت المشاعر تبقى ساكنة؛ كانت ترقد في هدوء، تنتظر الوقت المناسب. ثم بين حين وآخر، يعيدها شيء ما إلى الحياة، فتعود بالزمن عشر سنوات للوراء، تعود لذلك الصيف في القاهرة، تعود لحقيقة الأمر القاسية.

ما كان عليها أن تسمح لنفسها بالحديث عن الحرب. ما كان عليها أن تترك نفسها حتى تفقد حذرها تحت تأثير النبيذ، وإطراء الاهتمام، والأسئلة وغواية التمادي في الحديث عن إنجازاتها.

والآن هناك طرق على الباب لا يمكن أن يكون إلا من جاسبر. يتصلب جسدها. جسد جاسبر، الليلة، سيكون إهانة. جسد أي رجل سيكون إهانة. أي رجل غير توم. وقد مات توم. مات منذ عشر سنوات.

يدخل جاسبر. كان بملابس النوم: «كنت أخشى أن تكوني قد نمت. كنت أتبادل الحديث مع بعض الأشخاص. آسف على أنني تركتك، عزيزتي، لكنني انشغلت بالحديث مع ذلك الجنرال من الناتو على الغداء. مَن كان صديقك ذاك؟».

تقول كلوديا، وهي تحملق في السقف: «رجل ما».

كان جاسبر الآن قد خلع ملابس نومه، وجذب أغطية الفراش.

تقول كلوديا: «لا. آسفة، جاسبر. ليس الليلة».

يستعد جاسبر للاحتجاج، لكنه يستسلم فجأة؛ كان رأسه يترنّح من أثر الويسكي على أي حال، وكانت رغبته قد أخذت في الانحسار. يتثاءب: «حسنا، عزيزتي، يمكنني أن أتفهم الأمر. سألقاك في الصباح.

يجب أن أقول، إن الأمر كان يستحق المجيء. أعتقد أنني ربما أكون قد فزت بشيء أو اثنين».

تقول كلوديا، دون أن تنظر إليه: «حقًّا؟».

لكنني كنت أنا، حسب ما سارت الأمور، التي فازت بشيء ما. وتقريبا، دون أن أسعى لذلك. كان هاميلتون - هاميلتون المجهول الذي استهان به جاسبر من نظرة، ولم يتبادل معه الحديث أبدا طوال نهاية الأسبوع، مالك صحيفة. لم يكن واحدا من شخصيات شارع الصحافة التي تخطف الأبصار في ذلك الحين، كان أكثر تحفظا، ولكنه، بالرغم من ذلك، كان ذا شخصية قوية، وكان يتمتع بهيئة غير مثيرة للاهتمام تسمح له بالتحرك دون أن يتعرف عليه أحد. لذا فشل جاسبر في أن يتودّد إليه.

قال هاميلتون: «وما الذي ستفعلينه الآن؟». كنت قد تحدثت عن مصر؛ واتضح أنه سبق أن قرأ بعض رسائلي الإخبارية. قلت إنني سأكتب كتب التاريخ. قال: «ألن تجدي لنفسك حروبا أخرى؟ سيكون هناك عدد لا بأس به منها في السنوات القليلة المقبلة». قلت إنني لا أريد أن أشهد حربا أخرى أبدا؛ وقلت أيضا إنني لا أريد أن أعمل بالصحافة. قال هاميلتون: «يا للخسارة! كنت أنوي أن أعرض عليك وظيفة».

قال لي: «اكتبي لي من وقت إلى آخر. اكتبي لي حين تشعرين بالرغبة في ذلك. اكتبي وقت تشائين عن أي شيء تشائين، واجعليه استفزازيًا بالدرجة التي تريدينها. أثيري الناس. حاولي استكشاف آراء الناس. ناقشي موضوعات جديدة. يمكنك القيام بهذا، أنا أعرف ذلك».

حينما نشر أول مقال لي، وهو هجوم على أحدث أعمال مؤرخ أكاديمي كبير، أصيب جاسبر بالدهشة. شعر أيضا بأنني سرقت منه الأضواء. كان اسمي مكتوبا بأحرف كبيرة في الصفحة الوسطى لواحدة من الصحف القومية الرفيعة. سأل: «كيف تمكنتِ من ذلك؟». كان جاسبر نفسه يقوم

ببعض العمل الصحافي في ذلك الوقت. أجبتُ: «طلب مني هاميلتون ذلك». سأل: «كيف، تعرفت إلى هاميلتون؟!». قلت بخفة: «أوه! التقيته في نهاية الأسبوع تلك في روكفيل. الرجل الذي كنت أبادله الحديث على الغداء، هل تذكره؟».

لم يحصل جاسبر أبدا على وظيفة في الناتو. خطر له حينذاك أنه بينما قد يكون هذا هو الطريق إلى القوة، فإنه لم يكن الطريق إلى الثروة. اتخذ خطوة انتهازية، وانشغل بالعمل التلفزيوني، وعُيِّن في مجلس إدارة بنك تجاري، وبصفة عامة بدأ في توسيع علاقاته. كان يشعر بالغيرة من نجاحاتي. لم يكن الرجال من صنف جاسبر في الواقع يفضلون النساء من صنفي؛ كانوا يشعرون بالانبهار بهن ويضطرون إلى مصاحبتهن، لكن ذوقهم الحقيقي كان يفضل الطاعة والخنوع. كان يجدر بجاسبر أن يحصل على واحدة مثل سيلفيا.

يكفي هذا عن جاسبر. لكن من المثير للسخرية بطريقة مرضية أن جاسبر هو من زودني بلا قصد بمنبر عام، وبهذا كان مسؤولا بطريقة غير مباشرة عن الكثير من الأمور الأخرى. في ذلك الحين، لم يكن جاسبر ولا هاميلتون هما الشخصين الرئيسين في تلك الزيارة الغريبة، لكنه كان شيئا آخر تماما، المكان نفسه، والطريقة التي بدا بها، في تلك اللحظة المحددة، تجسيدا ماديًا للتاريخ بوصفه وهما. شعرت هناك بغضب عارم. كنت أرقد في الفراش حزينة على فراق توم، لكن خلال ساعات النهار، الساعات التي كنت أستمع فيها إلى سيدات ورجال يشعرون بالشبع وبالرضى عن الذات بينما يخططون للمستقبل ويعيدون ترتيب الماضي، كنت أشعر بالحنق. الآن، يمكن لذلك أن يشعرني بالتسلية بطريقة ساخرة. لكن حينها، وأنا صغيرة، صغيرة نسبيًا، كنت أشعر بالرغبة في الهجوم عليهم بمخططاتهم وإحصاءاتهم وتقديراتهم. وكان القصر نفسه زائفا مثل موقع

تصوير فيلم، يبدو وكأنه يسخر من ماضيه، عابثا مثل المخلوقات الصغيرة والسيدات شبه العاريات على سقف الصالون. التاريخ فوضى، كنت أريد أن أصرخ فيهم، موت وتشوش وخراب. وها أنتم تجلسون هنا تحاولون استغلاله وترسمون الخطط.

الفصل الثالث عشر

تسأل الممرضة: «كيف نمت؟».

تقول كلوديا: «نمت بلا أي قدر من المبالاة. شاهدتُ كابوسا. أدرك الآن أنني كنت موجودة فيه في واحدة من أبشع اللحظات في أوائل القرن السادس عشر. أثناء هروب الإسبان من عاصمة الآزتيك تلاكوبان».

تغمغم الممرضة، وهي تهز الوسائد: «يا إلهي! سأرفع لك مسند الظهر. أتودين ذلك؟».

«عبر الجسر، حوافر الخيل تصدر أصوات قعقعة على أحجار الطريق. كانت هناك سهام وصراخ. دماء وصلب وبنادق تطلق النيران. دخان وصيحات. والقوارب تتكاثر وتحتشد وتمتلئ بها المياه، والهنود يخرجون من القوارب من جانبي الجسر، موجة وراء موجة من الأجساد. كان الرجال يُجذَبون من فوق صهوات الخيول، ليتدحرجوا في الماء، ويهاجمهم الهنود. سهام كالمطر وضجيج».

تقول الممرضة: «يبدو كأنه فيلم سينمائي بالطريقة التي ترويه بها».

تقول كلوديا: «قولك هذا مثير للاهتمام؛ لأكثر من سبب. لكنني أؤكد لك أنه كان واقعيًا أكثر من هذا بكثير. كنت أنا أيضا أتعرَّق وأصرخ. والشيء الغريب بخصوص هذا الكابوس، الطريقة الغامضة التي من الواضح أن العقل الباطن يعمل بها، أنه قد بدأ كرؤيا لنهر التيمز ولكوبري لندن. بدأ بالمباني، تلك البيوت الصغيرة المعلقة المتداعية، وحشد من البوارج وقوارب أخرى بالأسفل، تغطي الماء تقريبا. واضح أنها صورة للوحة ما شاهدتُها ونسيتُها، لكنها بقيت في الذاكرة».

تقول الممرضة: «الأحلام أمرها غريب. ذات مرة..».

«وبينما كنت متفرجة في مشهد لندن، عينا محايدة تدرك كل شيء نوعا ما، أصبحتُ مشاركة في المكسيك. كنت أنا التي سأُجرَح وأفجّر ويُشَق جسدي وأُطعن، وأوضع على الخازوق في أي لحظة. كنت أقاتل للحفاظ على حياتي. لكن هل كنت إسبانية أم من الآزتيك؟».

ترفع الممرضة، التي كانت قد نالت كفايتها، الفراش للأعلى بضع بوصات، وتجمع بعض الأغطية وأكياس الوسائد، وتغادر الغرفة.

ألّفتُ كتابي عن المكسيك بدافع من عدم التصديق. لا يمكن أن يكون إرنان كورتيس[59] حقيقيّا. لا يمكن أن يكون هناك إنسان بهذه الشجاعة والجاذبية والعناد، ويبدو أنه لا يمكن القضاء عليه. كيف يمكن لأي شخص أن يكون جشعا ومتعصبا ويفتقر للخيال إلى الحد الذي يدفعه إلى قيادة بضع مئات من الرجال إلى قارة غريبة يجهل تضاريسها، مزدحمة بجنس كرّس نفسه لذبح الغرباء وتقديمهم أضاحي، حتى يأسر زعيمهم في قلب عاصمته؟ وينجح في ذلك. وبعد ذلك، عندما تتغير الأحوال ويُطرد، يشرع في بناء ثلاث عشرة سفينة حربية ويحملها عائدا بها مسافة مئة وأربعين ميلا عبر الجبال؛ لأن الطريقة الوحيدة التي يمكنك التعامل بها مع مدينة تقع في وسط بحيرة هي من خلال أسطول متفوق. وينجح للمرة الثانية. هل الرجل الذي يشعر بأنه مدفوع للقيام بمثل هذه الأشياء بطل أم مجنون؟

كان بريسكوت، وهو ينظر إلى الماضي من بوسطن في عام 1843، يعتقد أنه مرآة لعصره. وألف كتابا تاريخيّا عظيما عنه. وكان هذا التاريخ، بالطبع، مرآة لعقلية رجل أمريكي متنوّر مولع بالتأمّل ولد عام 1843.

(59) إرنان كورتيس (1547 - 1485): مغامر إسباني فتح إمبراطورية الآزتيك في المكسيك. لكنهُ دمّر الحضارة المكسيكية القديمة والمعروفة بحضارة الآزتيك، وتصرّف رجاله بقسوة بالغة مع الهنود الحمر، كما اكتشف شبه جزيرة كاليفورنيا.

تماما كما كانت وجهة نظري تعكس رؤية امرأة إنجليزية مولعة بالجدل، عنيدة ومستقلة ولدت في عام 1954.

لا عجب أن كل هذا قريبا في العقل الباطن، ويعاود الظهور في الأحلام. ها هي واحدة من أكثر المواجهات الاستثنائية التي وقعت على الإطلاق بين الشعوب والثقافات. كانت أيضا إشارة مظلمة عن العالم القادم: انتصارات التكنولوجيا. كان كورتيس يواجه عددا فائقا من الرجال، خمسين أو مئة أو ألفا مقابل واحد، لكنه كان يمتلك الدروع، ولديه البارود والسفن والمدافع. والأكثر من ذلك، أنه كان يعلم طبيعة ما كان بحوزته، بينما لم يكن الآزتيك يعلمون. اعتقدوا في البداية، وهم لم يروا خيولا من قبل أن الإسبان الذين يعتلون صهوة الجياد هم كائنات سحرية غريبة مثل القنطور. واعتقدوا أيضا أنهم خالدون؛ وحتى يغذوا هذا الاعتقاد، كان الإسبان يدفنون جثث قتلاهم سرّا في الليل. كان كورتيز يملك التكنولوجيا، وكان يملك أيضا ما أسماه بريسكوت ضوء العقل الشاحب. شاحب بسبب ضعف قوة العقل في عام 1520؟ أم شاحب بسبب ما كان يواجهه؟ على أي حال، كان الأمر يفوق قدرة الآزتيك على المواجهة. كان من شأنهم أنهم انهاروا أمام بضع مئات من المغامرين المتعصبين الجشعين، جيوشهم ومدنهم والنسيج القديم الهش لمجتمعهم بأكمله. وصلت الحضارة إلى المكسيك.

كان النصر، بطريقة ما، انتصارا لأسطورة على أخرى. كان يجب على الآزتيكي، «البربري الجاهل» كما وصفه بريسكوت، أن يتعامل مع آلهة تتطلب الاسترضاء الدائم حتى تتوالى الأيام وتستمر الشمس في الشروق. كان إله الإسبان يطلب الأضاحي هو الآخر: إمبراطورية متسعة من الأشخاص الذين يتحولون لدينه، إضافة إلى حسن السلوك على الأرض بوصفه جواز مرور إلى الحياة الأبدية. كان كل منهما يفزع الآخر. من

المثير للاهتمام أن نشير إلى أن الآزتيك، الذين كانوا يقدمون الأسرى أضاحي لآلهتهم بانتزاع قلوبهم من صدورهم وهم أحياء، كانوا يشعرون بالصدمة الشديدة تجاه عادة الإسبان بحرق المذنبين وهم أحياء على الخازوق. القسوة، على ما يبدو، تكمن في عين الرائي.

كان كتابي ناجحا، ووصل إلى قوائم أفضل المبيعات. أجرى الصحافيون معي لقاءات. هاجمني باحث معروف في الملحق الأدبي لجريدة «التايمز»، فأفادني هذا كثيرا. وبعدها بعامين، اتصل بي منتج للأفلام. أنصتُّ له بقدر من عدم التصديق يضاهي تقريبا عدم التصديق الذي شعرت به حينما قرأت عن كورتيس لأول مرة. ولما وضعت سماعة الهاتف أخذت أضحك.

تقول كلوديا: «لدي شك كبير بخصوص الريش. بعضه يبدو لي وكأنه ريش نعام. لا يوجد نعام في أمريكا الوسطى».

يقول المنتج لأحد المساعدين: «تفقَّد أمر ذلك الريش. لكن ماذا عن الانطباع العام؟ إنه قوي، أليس كذلك؟».

«الانطباع العام.. رائع».

كان كذلك بالفعل. كانت الجيوش المعادية لكل من مونتيزوما(60) وكورتيس مجتمعة هنا في هذا الوادي الإسباني. في الخلفية كانت هناك الجبال، وأسقف بيوت القرية الإسبانية الصغيرة التي ستظل بالطبع خارج الصورة، إضافة إلى أعمدة التلغراف على جانب الطريق، ومجموعة السيارات المصفوفة، والشاحنات الثلاث الضخمة المخصصة لتقديم الطعام. في المقدمة، كانت قوات كورتيس، ودروعهم تلتمع، ويَسِمون حدوات خيلهم وهي تضرب بحوافرها الأرض، وكانت قوات الآزتيك، متألقة بقبعاتهم التي يكسوها الريش، بستراتهم القصيرة المبطنة، وأحذيتهم المرصعة بالذهب، وعباءاتهم المزينة بالريش

(60) مونتيزوما (1460 - 1520): الإمبراطور التاسع للأزتيك. قتل خلال الغزو الإسباني للمكسيك، بعد أن أسره إرمان كورتيز.

المشكوك في أمره. يجب الاعتراف بأنه تم التوفير ضغطا للنفقات فيما يتعلق بالحشود؛ الأربعين ألفا الذين ذكرهم الباحثون كان يمثلهم هنا بضع مئات من الكومبارس الذين كانوا، حيث كانت هذه واحدة من الاستراحات الكثيرة أثناء التصوير، يجلسون وهم يدخنون ويشربون الكوكاكولا. كان مونتيزوما نفسه يجلس في المنزل المتنقل المعد له حتى يتم إصلاح ماكياجه. كانت كلوديا قد تناولت الغداء معه بالأمس في مطعم في توليدو؛ كان ممثلا من أصل فنزويلي، ورجلا له جاذبية جنسية عارمة، وغباء لا يصدق. في لحظة من لحظات الغداء، بينما هي تعاني في محاولة للتواصل معه فكريًا على أي مستوى من المستويات، توصلت إلى اقتناع بأن شخصا كهذا يجب عدم النظر إليه باعتباره بشرا، ولكن باعتباره حيوانا رائعا له قدرات محدودة على الحديث والتفكير.

كان اسم كلوديا سيظهر على قائمة أسماء الممثلين في الفيلم باعتبارها مستشارا تاريخيًا. كانت قد فكرت لفترة طويلة وبعمق، حسنا، حوالي عشر دقائق، فيما لو كان عليها الموافقة على هذا الأمر. تغلب الجشع في النهاية، إضافة إلى الفضول. لم يكن بمقدورها رفض المبالغ الكبيرة من المال التي كانت تعرضها شركة الإنتاج مقابل استغلال اسمها الذي كان له احترامه (إضافة لبعض النصائح الرمزية المحترمة منها)؛ وإلى جانب ذلك، فقد يكون الأمر مسليا، كان شيئا مختلفا على الأقل. كانت كلوديا في سن السادسة والأربعين تشعر بالقلق. أكثر قلقا حتى مما كانت من قبل.

كان المخرج يصيح الآن في الكومبارس من خلال مكبر الصوت. أُطفئت السجائر؛ وعُدِّل وضع الريش. خرج مونتيزوما من منزله المتنقل، وخرج كورتيس من منزله المتنقل هو الآخر.

يقول المنتج: «سيقومون بأداء مشهد المواجهة مرة أخرى. كانت هناك مشكلات مع الخيل في المرة السابقة».

تقول كلوديا: «أنت تدرك على ما أعتقد أنهما لم يلتقيا بالفعل في المعركة؟».

ينظر إليها المنتج: «حسنا، نحن نغير من الحقائق بعض الشيء، أليس كذلك؟ وإضافة إلى ذلك، فلقد ألقيتِ عليَّ محاضرة طويلة بنفسك عن التضارب في الأدلة. هذا جزء من الأدلة المتضاربة. يبدو جيدا، أليس كذلك؟».

يمتطي كورتيس، الذي كان مكتنزا وله وجه يتعرَّف إليه المرء على الفور، جواده في أرض المعركة في الوادي المجدب الذي تنمو فيه الشجيرات والحشائش كريهة الرائحة. لقد رآه المشاهدون في أدوار من قبل وهو ينظر من أسفل قماش مشمع أمام عجلة قيادة مدمرة، يتخفّى تحت أعمدة الإنارة مرتديا قبعة من الجوخ ومعطف مطر له حزام، ويتبادل إطلاق النار عند المدن الحدودية، كان مثل شخصية سرية عالمية، معروفا للجميع، ولا يعرفه أحد. انتاب كلوديا شعور غريب، عندما التقته الآن، بأن يده الممدودة قد تكون مصنوعة من الورق المقوّى؛ كان شعورا مربكا عندما لمست لحما طبيعيّا دافئا.

تم نشر الجيشين؛ اجتمعا والتفَّا وانقضَّ بعضهما على بعض؛ كانت هناك فوضى وصياح؛ سقط كورتيس المكتنز ثم نهض مرة أخرى؛ هرب مونتيزوما؛ كانت الشاحنات التي تحمل الكاميرات والمصورين المضطربين تدور وتدور. كانت كلوديا، والهواء يلعب بشعرها والشمس تلتمع في عينيها، تراقب باهتمام ونوع من عدم التصديق. لم يكن لعدم التصديق علاقة بمدى واقعية ريش الآزتيك، أو بمدى نظافة المتحاربين، أو بصوت المكبرات ومحركات السيارات، لكن بشيء آخر مختلف تماما؛ لم تكن تصدق وجودها هي نفسها وسط هذه التمثيلية المكلفة. كانت مستمتعة، لكنها كانت تشعر أيضا بالاشمئزاز بعض الشيء. تفكر في أولئك المكسيكيين الحقيقيين التعساء وفي الإسبان، الذين نشروا الحكاية وأثروا جيوب العديدين حتى جيبها هي بدرجة صغيرة.

كان من شأن جاسبر أن يلقي بوجهة النظر هذه في وجهي، بعدها بسنوات، على مائدة الإفطار في ميدنهيد، عندما هاجمت انتهاكه هو للتاريخ. دافعت عن نفسي بصفتي مشاهدة، لا أكثر. حسنا، أجل؛ كان محقًا إلى حد ما. ضربة موفقة، جاسبر.

كان كتابي عن المكسيك نصّا رصينا، وإن كان مثيرا للجدل، من التاريخ المروي. كان يروي الحكاية. في تاريخ العالم الذي أكتبه، سينظر إلى سقوط تيزكيوكو بطريقة مختلفة.

أو ربما لا ينظر إليه، بل يُسمع، يُروى بلهجة إسبانية فقدناها، وبلغات هندية لا ندري عنها شيئا، على خلفية من ترانيم الصلوات اللاتينية والطقوس التي لا يمكن استعادتها لتلك العقيدة الشنيعة الأخرى، التي كانت تتطلب سفك الدماء البشرية يوما بعد يوم بعد يوم. أجل، هكذا يجب أن يتم الأمر. يمكن المرءَ أن يتخيل المشاهد في عقله؛ الأصوات مراوغة بدرجة أكبر. عند هذه النقطة، سينصت قرائي، سيصبحون مستمعين. سوف يسمعون وقع أقدام مسيرة كورتيس الطويلة إلى داخل البلاد، والمطر والريح والسباب والتذمر، وسيسمعون الهسيس الرهيب لبركان بوبوكاتبتبيل الذي يهبط الإسبان إلى فوهته التي يتصاعد منها الدخان، بعد أن نفد منهم الكبريت اللازم للبارود لسوء الحظ. سوف يسمعون أصوات مذبحة تشولولا، عندما فقد الإسبان أعصابهم، وقتلوا ثلاثة آلاف هندي أو ربما ستة آلاف، أو ربما أكثر، مرة أخرى لدينا مشكلة بسيطة مع تناقض الأدلة، لكن الضجيج لم يكن ليختلف كثيرا. سيسمعون حدائق مدينة أزتابالابا الآزتيكية، أصوات طيور الغابة في أقفاصها، أصوات العصافير الطنانة والنحل وهي تتغذى على الشجيرات العطرية والنباتات المتسلقة التي تغطي العرائش، وحفيف مكانس البستانيين وهم يكنسون الممرات. سوف يسمعون ترحيب مونتيزوما بكورتيس،

وتأكيد كورتيس على الصداقة والاحترام. سوف يسمعون رنين وقرقعة هدايا الذهب والفضة التي تم تكديسها أمام الإسبان، الأطواق والعقود والأساور والزينات الأخرى، وأواني الشراب والأطباق. سوف يسمعون تعليقات الإسبان المليئة بالاهتمام وهم يعلقون على حسن الصناعة والوزن والقيمة المحتملة. سوف يسمعون خدش القلم على سطح المخطوطة وكورتيس يكتب التقارير لمركز القيادة، وربما يسمعون أيضا تمتمات الإمبراطور تشارلز الخامس في مدريد وهو يتساءل هل أصبح يتحكم في العالم الجديد كله أم في مجرد جزء منه، وهو الأمر الذي لم يكن ليكفيه. وفي النهاية، سوف يسمعون الصراخ الموحد للبشرية بأكملها، الإسبان والهنود والرجال والنساء والأطفال، الذين ماتوا لأن سوء حظهم جعلهم يوجدون في لحظة من لحظات الذروة في التاريخ.

قد تتساءل: ما علاقة تلك اللحظة في التاريخ بي أنا، كلوديا؟ غير أنني ألَّفت كتابا عنها. أضفت المزيد للملايين من الكلمات المكتوبة بالفعل. كيف تتحدّى التسلسل الزمني وتندمج مع أعوامي الستة والسبعين غير المهمة؟

مثل كل شيء آخر، هي تُضخِّم ذاتي، تُحررني من سجن تجربتي؛ ويتردّد صداها خلال تلك التجربة أيضا.

تشم رائحة الجلد، الرائحة الثمينة لفرش السيارة التي يقودها سائق وتجلس بداخلها مع كورتيس. كورتيس الشجاع والقوي. كان مجردا من الدروع حينئذ، ويرتدي ملابسه الخاصة خارج العمل، زي ممثل بالغ الثراء من منتصف القرن العشرين، لكنه رغم ذلك شجاع وقوي. كان جيمس كاكستون على مشارف الخمسين، لكنه كان بوسعه أن يبدو أصغر عشر سنوات، أو خمس عشرة سنة عند الضرورة مع مصور ماهر. لم يكن بدينا بالمعنى المعروف، لكن كانت له طلعة بهية وثابتة لرجل ذي بشرة

تتناسب مع مظهره بعض الشيء. كان قميصه وسرواله وجاكيته الكحلي مفصَّلة جميعا بمهارة، بحيث تعطي انطباعا بأن جسده أكثر رشاقة مما هو عليه في الواقع. كان سلوكه يتّسم بالحرص. وكان لوجهه، بلا مساحيق، ملمس غريب. كان شكل وجهه يبدو وكأن شخصا رسم ملامحه بمحدِّد العينين والألوان؛ ولم تكن سمرته الخفيفة تبدو طبيعية، فيما كان حاجباه ورموشه محددة بطريقة حادة. كان صوته عميقا جهيرا، يجبر الآخرين على الاستماع إليه؛ كان يجعل الآخرين يتوقفون عن الحديث، وكأن أي شيء يقوله ستكون له أهمية بالغة. والواقع، كما اكتشفت كلوديا، أنه كان رجلا غير مثير للاهتمام إلى درجة عالية. نادرا ما كان يقول أي شيء له أي أهمية على الإطلاق؛ كل ما في الأمر أن صوته كان فاتنا وله تأثير لا يقاوم على الناس. كان يتحدث الآن عن مشاهد الفيلم.

«أعشق الجبال».

تقول كلوديا: «آه!» ماذا كان بوسع المرء أن يقول غير ذلك؟

«حمدا لله أنهم لم يقرروا أن يصوروا الفيلم في المكسيك. الجو هناك مريع. الساحل يمكن تحمله. لقد قضيت بعض الإجازات في أكابولكو. الشواطئ رائعة».

تفكر كلوديا في أن تقول «آه!» مرة أخرى. تمر بهم مناظر الطبيعة بينما يتأرجح السائق بالسيارة عبر المنعطفات الحادة في الطريق. عوضا عن ذلك، تسأل جيمس كاكستون عما إذا كان قد رأى أيّا من مواقع آثار الآزتيك والأهرامات والمعابد.

يستغرق جيمس كاكستون في التفكير. لا يعتقد ذلك. ليس متأكدا تماما. ربما شاهدها. لقد زار المرء أماكن كثيرة.

تعتقد كلوديا أنه يصعب مع ذلك على المرء ألا يلاحظ مثل هذه الأشياء. لا بأس. تستمر برهة في الحديث عن فن النحت في العصر

ما قبل الكولومبي. كان المسكين يشعر بملل لا حدَّ له، لكنه كان في أعمق أعماقه، بالرغم من هوليوود واستوديوهات باينوود وشينشيتا، إنجليزيّا مهذبا، ويعرف كيف يتصرف مع سيدة. عدّل ملامح وجهه الشهير تعبيرا عن اهتمامه بما تقول، وتركها تكمل. ثم قابل حديثها بحكاية طويلة عن الوقت الذي كان يقوم فيه بتصوير فيلمه عن نابليون في مصر (تستطيع كلوديا أن تتابع تداعي أفكاره، رغم أن الأهرامات والمعابد في الواقع لا تلعب دورا في الحكاية). لقد أدى دور نابليون، ودور فرنسيس دريك ومارك أنتوني وبايرون. كانوا جميعهم، في عقله، مختلطين في مزيج من الشخصيات المنفصلة الذين لم تكن لهم علاقة بأي شيء عدا تسلسل درامي منفصل. كان نابليون على علاقة بجوزفين، ويشرف على المعارك. كانت علاقة دريك بإليزابيث شائكة، ويجب أن يؤدي دوره بإحدى لهجات ديفون. في الواقع اتضح لها أن فهمه للترتيب الزمني للأحداث ضعيف للغاية. كان بوسعه ربط نابليون بالقرن التاسع عشر، لكنه لم يكن يعرف بالضبط في بدايته أم نهايته. لم تكن التواريخ تعني له شيئا، فلم يكن يستطيع أن يربط بعضها ببعض. تدرك كلوديا بسعادة أنه رجل يسبح عبر الزمن على غير هدى وساذج تاريخيّا. كيف أمكن له أن يحقق هذا النقاء؟ تسبر أغواره بمكر (ولم يكن ذلك بالأمر العسير، بما أنها كانت تدعوه للحديث عن موضوعه المفضل، عن نفسه)؛ فقد تلقى تعليما خاصّا، كما اتضح لها، أو بالأحرى لم يتلقَّ أي تعليم تقريبا، إذ كانت صحته معتلة وهو صبي. لا عجب إذا أن المخرجين كانوا يجدونه مرنا للغاية؛ رجل لم يخضع لأي مؤثرات، رجل بلا تصورات مسبقة.

ينظر إلى ساعته. «سيقلق مايك للغاية. سوف نصور مشهد المأدبة هذا المساء. فلتسرع قليلا، أيمكنك هذا يا تشارلي؟». يهز السائق رأسه؛

وتمر مشاهد الطبيعة بسرعة أكبر قليلا. كانا يتناولان الغداء في بلدة بعيدة بعض الشيء عن موقع التصوير، لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى جيمس كاكستون في ذلك الصباح، وكان قد ضجر من وجبات المقصف. كانت كلوديا رفيقته لأنه لم يكن يتفق مع مونتيزوما (وهذا ما كان ملائما للغاية)، وكانت الممثلة التي تقوم بالبطولة أمامه تعاني من صداع نصفي، بينما كان باقي أعضاء الطاقم مطلوبين من أجل البروفات. كانت الوجبة وافرة وممتدة؛ وكان الحديث متكلفا ومتوترا. على الأقل من وجهة نظر كلوديا، بالكاد كان يمكن اعتباره حديثا. أما من وجهة نظر كاكستون، فأدركت أنه ربما بدا له ملائما للغاية. كان غير مبالٍ تماما. خلال ثلاثة أيام، نادرا لم تسمعه يطرح أسئلة شخصية على أحد. لم يَبْدُ هذا الانفصال نوعا من الغرور بقدر ما كان نوعا من الخلل الذي تسببت فيه أعوام من اهتمام الآخرين الشديد بكل كلمة من كلماته وكل فعل من أفعاله.

كان واضحا أنه معجب بكلوديا. كان لطيفا وكريما للغاية منذ أن وصلت. كان معجبا بمكانتها كراعية للفكر؛ كانت تضفي عليه طابعا مميزا من الاحترام. لكنها لم تكن أيضا ذلك النوع من النساء الذي كان معتادا عليه. على الغداء، صار فضوليّا بعض الشيء.

«ما الذي قادك إلى العمل الذي تقومين به، نوعية الكتب التي تؤلفينها؟».

«الجهل وقلة التواضع والغطرسة والقدَر بالطبع. كنت مراسلة حربية خلال فترة الحرب. لقد جعلني هذا لا أميل للعمل مراسلة حتى الآن».

يهز كاكستون رأسه: «كنت في الشرق الأقصى. كنت أعمل في الترفيه عن الجنود. لم أكن على الجبهة، لكن الأوضاع كانت خطيرة بعض الشيء مرة أو مرتين. ضُرِبت السفينة التي كنا على متنها بصواريخ تحت مائية (طوربيدات) قبالة ساحل سنغافورة. كنت في غاية السعادة عندما عدت للوطن».

«على أي حال، لا يبدو أن أيًا منا قد عانى إلى حد كبير».

لا يروقه قولها هذا كثيرا. يقول بخشونة: «حسنا، ربما.. على أي حال، لطالما آمنت بتقبل الحياة بحلوها ومرها». أضفى صوته الذي لا يضاهى على الكلمات بعض التميز، للحظة.

تقول كلوديا: «منتهى الحكمة».

«ألا تؤمنين أنت بذلك؟».

«إلى حد ما، لا. ربما كان الأمر طبعا أكثر منه اعتقادا».

يقول كاكستون: «النساء دائما ما يكنَّ أقل ميلا للفلسفة فيما يتعلق بتقلبات الحياة. زوجتي..».

«وهن أيضا يوزعن تلك التجارب، بالطبع».

يحملق فيها، سائلا: «ماذا؟».

تجيب كلوديا: «ربات الأقدار يمثّلن عادة في الأساطير الإغريقية كنساء. ثلاث منهن، يغزلن».

«كما كنت أقول، زوجتي.. ».

«وربات الانتقام أيضا. مثل عقاب أمومي بدائي لا يعرف الندم. وكذلك ربات الإلهام. الواقع أننا نتمتع بأفضل الأدوار. آسفة، ماذا كنت ستقول عن زوجتك؟».

«لقد نسيت ما كنت سأقوله بشأنها. إنك إنسانة غريبة للغاية، كلوديا. ألا تمانعين في قولي هذا؟».

«لقد قيل لي ذلك من قبل».

«غير مألوفة، ربما، هو ما أعنيه».

«غريبة تفي بالغرض».

كان التركيز قد انصب على كلوديا. أدرك كلاهما أن هذا غير مقبول. قال كاكستون، وقد اعتاد أن يلتقط خيط الحديث: «اليونان بلد رائع. واحد من الأماكن المفضلة لدي. هل تعرفين هيدرا؟».

لم تكن كلوديا تعرفها، فاستطاع أن يخبرها بالتفصيل عن هذه القطعة المملة من الصخر التي يفكر في شراء فيلا فيها. كانت تفكر في ربات الأقدار، وهن يقهقهن أمام أنوال نسيجهن، أو يُفترض في هذه الأيام، لو كن يتقدمن مع الزمن، أمام الماكينات التي تعمل ذاتيًا.. يقهقهن بقسوة على أي حال، وهن يبدأن الحروب والمجاعات والكوارث ومليون علاقة عشوائية غير مهم مثل تلك التي حدثت بينها وبين هذا الرجل غير المميز الذي يتمتع بالشهرة رغم ذلك.

وهكذا، في نهاية المطاف، انتهت الوجبة، وخرجا من المطعم إلى جو ما بعد الظهيرة الحار المغبرّ، واستقلا السيارة حتى يعودا عبر الجبال لموقع التصوير في الوادي. جلست كلوديا وهي تغوص في الفرش الناعم للمقعد الخلفي، بجوار كاكستون، وهي تشم رائحة الجلد، ورائحة عطره الذي كان استخدامه مقصورا على النخبة. كانت تتحدث وتستمع، وتراقب من وقت إلى آخر مناظر الطبيعة وهي تنزلق وراءهم بهدوء، في هذه الجهة تارة وتلك الجهة تارة أخرى، بينما يمر السائق بمنعطفات الطريق والتواءاته. يلحظ كاكستون الوقت، ويطلب من الرجل أن يسرع، فيفعل لدرجة أن الإطارات تصدر صريرا عند المنعطف التالي، وفي الذي يليه ارتطم أحدهما بالآخر، وقال كاكستون: «احترس!» لكن مصحوبة بضحكة حتى إن السائق استمر في سرعته، وهو يهبط بهما جانب الجبل في دوامة.

في البداية، لا تعلم ما الذي حدث. في لحظة، كانت السيارة تنزلق بنعومة في منحنى، وكان كاكستون يقول شيئا ما عن مصارعة الثيران، وفي اللحظة التالية لم تعد الطبيعة هادئة، بل صارت تدور حولهم بطريقة مثيرة للغثيان، الأشجار والجبال خرجت عن السيطرة وهي تتأرجح وتتمايل؛ تتخبط للأمام والخلف، كان هناك ارتطام، ضربة عنيفة، وأخيرا، لا شيء على الإطلاق.

تكافح للخروج من بحر عميق به أصوات طنين. عادت لتجد نفسها

في السيارة التي انحرفت عن الطريق وانقلبت جانبا. كان السائق يتدلى للأمام على عجلة القيادة؛ زجاج السيارة الأمامي محطم؛ والمحرك لم يزل يدور. دارت في رأس كلوديا فكرة واحدة هي أنها يجب أن توقفه، شيء ما يتعلق بالنار والبنزين. كانت قد نسيت جيمس كاكستون، وأين هي ولماذا. ترفع نفسها بمشقَّة، وتميل للأمام فوق المقعد، وهي تتحسس حول ذراع السائق. تعثر على مفتاح التشغيل. والآن يسود الصمت. تفتح الباب، وتتعثر خارجة للحافة. تجلس. كل شيء يسوده هدوء رائع؛ تُصدِر حشرات زيز الحصاد أصوات صرير، وتصدر الشجيرات أصوات حفيف في الريح. ليست لديها أي مشاعر أو أفكار؛ هناك ألم في جنبها، لكنه لا يبدو مهمّا. كانت في حالة من عدم اليقين، وتجلس الآن على المرتفع الصخري، وهي تحملق في نبات له زهور صغيرة تشبه الجواهر. تنظر للأعلى؛ فوق رأسها مباشرة يحلِّق طائر على خلفية من سماء عميقة الزرقة. يبقى عالقا هناك، تستطيع أن ترى التماع جناحيه؛ ثم تتحول السماء إلى اللون الرمادي، وتصبح صورة الطائر مشوشة، وقبل أن تفقد وعيها تراه ينحرف جانبا، ويهبط نحو الوادي.

مات السائق. أصيب جيمس كاكستون بشرخ في الجمجمة، وكسر في الترقوة والذراع، وكلف شركات التأمين بضعة ملايين بسبب الوقت الضائع. أما أنا فأُصِبت بارتجاج في المخ، وكسر في ضلعين؛ كان الحظ منصبّا عليَّ بدرجة بسيطة. صدرت صحيفة «إيفننج ستاندرد» وهي تحمل عنوانا يقول «جيمس كاكستون يصاب في حادث سيارة مع مرافقة له». جاسبر، الذي كنت ما زلت أعيش معه بصورة متقطعة، قال كثيرا من الأشياء على الهاتف، ولم تكن كلها تعاطفا معي. رقدتُ أسبوعا في مستشفى في مدريد. في اليوم الخامس دخل غوردون غرفتي، فانفجرتُ بالدموع.

قال: «لو كنت أعرف أنه سيكون لي هذا التأثير، لما أتيت». أخرج منديلا، ومسح عينيها برفق: «والآن تمخطي..».

تقول كلوديا: «أوه! اخرس». تدفع يده بعيدا، وترتطم بشدة في الطاولة المجاورة للفراش، وتصيح: «يا إلهي..!».

«إذا، فلتكُفّي عن التقلب هكذا. ابقي هادئة. لا تبدين بحالة سيئة للغاية، على أية حال».

«لماذا أنت هنا؟ من المفترض أنك في أستراليا».

«أبلغتني سيلفيا. فغيَّرتُ الطائرة. بالله عليك، كفي عن البكاء، كلوديا. لم أرك تبكين منذ كنت تناهزين السادسة من عمرك. ما خطبك؟».

«يطلَق على الأمر (الصدمة المتأخرة). هذا ما يحدث للناس حينما يدركون أنهم لم يموتوا بعد. الأمر منطقي للغاية، إذا ما فكرت فيه».

يقول غوردون: «لا تتحدثي بهذه الطريقة». يجلس بجوار السرير. يمد يده فجأة، ويأخذ يدها. يمسك بها. ينظر إليها. تشعر بدفء يده، وترى عينيه وما تحملان من مشاعر حتى لا تستطيع تحمل الموقف أكثر من ذلك، فتشيح بعينيها. لم يلمسها طوال سنوات، سوى بغير قصد.

ينهض ويمشي تجاه النافذة: «إنه ليس أكثر المناظر تميزا. لكن أعتقد أن هذا لم يضايقك».

تبقى كلوديا ممددة وهي تنظر إليه. تعتقد أنه أكثر شخص في العالم يصعب الوصول إليه؛ معروف بعمق أكثر، ويصعب الوصول إليه أكثر.

تجلس في الفراش وهي مصابة بكدمة على جبهتها، وبلا مساحيق تجميل. إنها لا تشبه كلوديا المشاكسة التي تتعذر هزيمتها، بل هي ظل باهت متداعٍ لها. وحينما يراها تبكي، يعاوده الشعور القديم بالحميمية، ويعود الزمن ثانية سنوات إلى الوراء، إلى الزمن الذي لم يكن فيه سواهما، قبل أن يكتشفا بقية العالم. ينظر إليها للحظات بعينَي ذلك الزمن، فيما

تفكر هي بما مضى. لا يرغب أي منهما في العودة إلى ذلك الزمن؛ يحتفي كلاهما، بصمت، بما لن يضيع أبدا. ينهض غوردون واقفا. يتجه إلى النافذة، ويرى شارعا عريضا تحدّه أشجار الدفلى، وحشدا من الناس يتكدسون في حافلة صفراء مبهرجة، وعليها ملصقات إعلانية تروِّج للسجائر ومساحيق الغسيل. يخطر له أن كلوديا هي أقرب الأشخاص إليه، وأبعدهم عنه في الوقت نفسه، ويتمنى لو كان الأمر مختلفا.

الفصل الرابع عشر

يسجل جسدي أحداثا معينة. لو جرى تشريحي فسيتبين أنني أنجبت طفلا، وكُسرت بعض أضلاعي، واستئصلت زائدتي الدودية. أما بعض الإصابات الجسدية الأخرى فلم تترك أثرا؛ الحصبة والتهاب الغدة النكافية والملاريا والتقيُّحات والأمراض المعدية والسعال والبرد واضطرابات الجهاز الهضمي. حينما كنت صغيرة كانت على ركبتي طوال سنوات عديدة بقعة من الجلد الرقيق المتغضِّن الوردي التي تسجل الزمن الذي دفعني فيه غوردون أسفل الجرف في لايم ريجيس (أو، كما سيدعي، لم يدفعني)؛ لم أعد أستطيع العثور عليها فالجسد يطمس الآثار أيضا. لن يكتشف اختصاصي علم الأمراض ما يزيد كثيرا عما سيكتشفه عالم الآثار وهو يتفحص العظام القديمة. قرأت ذات مرة تقريرا من تقارير الكشف عن الآثار يصف، باللغة الدقيقة والمحايدة لتلك الوثائق، هيكلا عظميًا لسيدة أنجلوساكسونية وُجدت ووجهها لأسفل في قبر ضحل، بينما ترقد صخرة ضخمة على عمودها الفقري. الوضع الملتوي للجثة ووضع الصخرة كانا يوحيان بأنها دُفِنت وهي على قيد الحياة. من بعيد، أبعد من كلمات الوصف المجردة وصمت العظام والحجارة، يأتي هدير الألم والعنف. وعلى نطاق أضيق، لو استسلم اختصاصي علم الأمراض الذي يتابع حالتي للخيال، فقد يوفر علي آلام تلك الولادة، أو يتدبّر أمر تلك الأضلاع.

يسجِّل جسدي أيضا تاريخا آخر غير شخصي؛ فهو يتذكر إنسان جاوة، وأسترالوبيثكس، وأول الثدييات، وكائنات غريبة كانت ترفرف وتزحف وتسبح. ربما تفسر أنساب جسدي شغفي بتسلُّق الأشجار حينما كنت

في العاشرة، وولعي بالسباحة في البحار الدافئة. له ذكريات أشاركه فيها، لكن بوسعي فهمها. يربطني بدودة الأرض وبسرطان البحر وبالكلاب والخيل والليمور والجيبون والشمبانزي. كان يمكن، لولا رحمة الرب، أن أكون واحدة منها. ولكوني دهرية إلى حد كبير، فإنني، بالطبع، لا أعتقد أن للسماء علاقة بالأمر.

لقد تمكن جسدي من التأقلم مع سير الأمور، إلى حد ما. فحياة امرأة جذابة تختلف عن حياة امرأة عادية. شعري وعيناي وشكل فمي وهيئة صدري وفخذَاي كلها ساهمت في الأمر. قد يكون العقل مستقلا، لكن الشخصية ليست كذلك. حينما كنت في الثامنة من العمر أدركت أن الناس يعتبرونني جميلة، ومن تلك اللحظة تحدَّد سير الأحداث. خلق مني الذكاء كائنا من نوع محدد؛ والذكاء المصاحب للملامح الجذابة خلق مني كائنا من نوع آخر. هذا تقييم للذات، وليس غرورا.

عدت من ذلك المستشفى في مدريد مصابة بالكدمات، وبحساب بنكي أفضل مما كان لدي في أي وقت مضى، وبعقل في حالة رائعة من التركيز. كان العالم يصيبني بالدهشة. نظرت إلى المياه المخضرَّة في القنال الإنجليزي، وإلى النوارس المحلِّقة فوق العبَّارة، وللصدأ الذي يعلو السور، ولانحناءة كرسي الحدائق، وكانت لهذه الأشياء قوة الفن العظيم.

في القاهرة، في عام 1942، ثرتُ غاضبة أمام استمرارية العالم؛ مشيت، في ذلك اليوم المروع، بجوار النيل، وكان المكان الجميل كله بمنزلة إساءة لي؛ الحياة والألوان والروائح والأصوات والنخيل والمراكب الشراعية، وطيور الحدأ التي تلف في دوائر لا نهاية لها في السماء الزرقاء القاسية. والآن، وقد كنت الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة، سامحتُ العالم على لا مبالاته. كان ذلك شهامة مني. يمكنكم القول أيضا إنه كان أمرا نفعيًا.

ولما عدتُ إلى لندن، أرسلت في طلب ليسا التي كانت في سوتليه مع

جدتها. أردتُ أن أعوضها عن نوعية أمومتي؛ وأردت أيضا أن أراها.

تسير كلوديا وجاسبر وليزا عبر طريق مشجر واسع في حديقة حيوان لندن. كان عيد ميلاد ليسا الثامن، وكانت حديقة الحيوان من اختيار ليسا؛ فقد عرضا عليها الذهاب إلى كل الأماكن الترفيهية في المدينة، البرج ومتحف الشمع ومدينة ملاهي باترسي ورحلة بالقارب إلى جرينتش، واختارت هي حديقة الحيوان، وكان سبب اختيارها جزئيًا هو أنها قد لاحظت جاسبر وهو يجفل من الاقتراح. لا يتاح لليزا ممارسة السلطة كثيرا، لذا هاهم؛ أسرة واحدة بين أسر كثيرة. تقول كلوديا لنفسها: ومن تراه يعرف؟ تنظر إلى المجموعات الأخرى، مجموعات منسجمة ظاهريًا من الرجال والنساء والأطفال؛ وتتساءل عن الحكايات الأخرى الخفية أسفل المظاهر.

كانت ليسا ترغب في مشاهدة الدببة والأسود والقرود. قضوا وقتا طويلا في بيت الأسود؛ كان مليئا بالأطفال الذين علا صراخهم، وجميعهم، كما رأت كلوديا، منغمسون في الشعور البدائي بالرعب. كانت الأسود الضخمة تذرع المكان جيئة وذهابا، أو تسترخي في هدوء. كانت الرائحة مروِّعة. تقول كلوديا: «والآن صرت أعرف كيف كان المكان أسفل المدرج الروماني. أرجوك، عزيزتي، هل اكتفيت من الأسود؟». تسمح لهم ليسا بإقناعها بالمضي قدما، نحو المكان المسيَّج الذي يؤوي الدببة؛ حيث تظل كلوديا صامتة.

«ألا تحبين الدببة القطبية؟».

تقول كلوديا: «نوعا ما. ليست لها محبة خاصة».

تقول ليسا: «حسنا، أنا أحب الدببة القطبية». تتعلق بالحاجز، وتحملق في الدب الذي يهز رأسه بعصبية، يمنة ويسرة، وأقدامه تطقطق إذ يسير من طرف الحافة الإسمنتية إلى الطرف الآخر، مثل عجوز ينتعل حذاء منزليا.

يتثاءب جاسبر: «ماذا عن الغداء، عزيزتي؟».

تقول ليسا: «لا أريد تناول الغداء بعد. أريد أن أبحث عن القرود الآن».

لذا، يجدون القرود؛ قبيلة كاملة من القرود البنية في مكان خارجي يحدّه سياج، يعيشون حياة لا مبالية، بلا قيود.

تقول ليسا، وهي تنظر إلى جاسبر: «ما الذي يفعله ذلك القرد؟».

يقول جاسبر: «ممم.. لست متأكدا».

يمسح جاسبر عينيه. كانت ليسا على بعد ياردات الآن، مشغولة بحرب العصابات الدائرة بين القرود الصغار. «إنها مسلية للغاية. يجدر بي أن أراها بصورة أكثر».

تقول كلوديا: «لأنها مسلية؟».

كانت كلوديا تبدو رائعة للغاية اليوم. كانت لا تزال هناك آثار كدمة باهتة على جبهتها، لكن وجهها كان مشرقا وشعرها لامعا وجسدها رشيقا. كانت تدير الرؤوس، وكالعادة، كانت امرأة يشعر المرء بالرضى حين يراه الناس برفقتها. يفكر جاسبر: خسارةٌ أن الطفلة لا تشبهها على الإطلاق. ولا تشبهه هو الآخر، في الواقع.

يمسك ذراع كلوديا: «على أي حال، حمدا لله أنك هنا آمنة وسالمة».

«جاسبر، هناك شيء أريد أن أخبرك به».

«هل أنت حامل ثانية؟».

«لا تستظرف. بعد أن تعود ليسا إلى سوتليه، أريد أن نفترق».

يتنهد. يسمح لها أن ترى لمحة من روحه الروسية، أو ما تبقى منها.

«عزيزتي.. أنت غاضبة مني لسبب ما. لو كان بسبب تلك الفتاة الإيطالية، فأنا أؤكد لك أن الأمر قد انتهى. انتهى تماما. لم تكن تعني أي شيء».

«لا يهمني إطلاقا أمر الفتاة الإيطالية. إنما أرغب أن أكون وحدي».

«وحدك مع من؟» يترك ذراعها.

«وحدي، ليس مع أي شخص».

يشعر جاسبر بنفسه يشتعل غضبا. ينظر نحوها؛ كانت قد تحولت من كلوديا الجميلة المسلية إلى كلوديا العنيدة المثيرة للغضب. لا يلائمه، الآن، أن يبقى من دونها؛ في وقت آخر، ربما يلائمه الأمر. يفضل أن يضع الجدول بنفسه. يقول: «عزيزتي، منِ أجل الطفلة، أعتقد أنه يجدر بنا أن نناقش هذا الأمر بعقلانية في وقت آخر». ينظر كلاهما تجاه ليسا التي كانت على ما يبدو مستغرقة مع القرود.

القرود الصغيرة، أصغر القرود حجما، لها وجوه مثل أزهار الثالوث، ولها عيون سوداء لامعة. تريد واحدا بشدة، لدرجة لا تكاد تتحملها. تريد واحدا لها، تحمله معها طوال الوقت، ويمسك بها بيديه الصغيرتين مثلما يمسك بالقردة أمه. كان القرد الصغير هو أفضل شيء رأته على الإطلاق، أفضل من الصيصان وأفضل من الجِرَاء والهررة، أفضل من أي شيء على الإطلاق. لكن لا جدوى من الأمر، لن يسمحوا لك أبدا بامتلاك قرد صغير. ستقول كلوديا: «لا تكوني سخيفة»، وستقول جدتي برانسكوم: «لا»، وهيلجا ستقول: «لا».

كان أحد القردة الكبار يأكل الجوز. يكسر الجوز بأسنانه، ثم يزيل القشور بأصابعه، وكأنه إنسان. يُسقط حبة الجوز؛ يحاول أحد صغار القردة كبير الحجم أن يختطف الجوزة، فيصدر القرد الكبير أصواتا، ويطارده بعيدا. ثم يقوم جميع صغار القردة كبيرة الحجم بلعب لعبة مطاردة، يدورون ويدورون. القرد الأب الذي كان يفعل ذلك الشيء للقردة الأم كان قد توقف وبدأ يفتش عن البراغيث، تماما مثلما يفعل ريكس، لكن بأصابعه بدلا من أنفه. تنظر ليسا إلى القردة الأم لترى ما إذا كانت ستلد قردا صغيرا آخر الآن، لكن لا يبدو أنها ستفعل؛ تقرفص على صخرة وحسب، ولا تفعل شيئا.

تتذكر ليسا ما قالته كلوديا الآن، عن الناس. تستدير وتنظر إليهما، كلوديا وجاسبر. كانا هناك، كما كانا دوما، كلوديا وجاسبر اللذان لا تناديهما أمي وأبي؛ لأن كلوديا تعتقد أن هذه أسماء سخيفة. في يوم من الأيام، خرجت من بطن كلوديا؛ تعرف هذا لأن الجدة برانسكوم أخبرتها، في الحديقة، بينما كانت تقطف الورد للمنزل، وقالت إن هذا أمر يجب عدم التحدُّث به. لو عرفت الجدة برانسكوم ما قالته كلوديا الآن لشعرت بصدمة بالغة وبالألم.

تراقب ليسا كلوديا وجاسبر. تفكر ثانية فيما قالته كلوديا؛ تحملق فيهما كما حملقت في القرود، لكن بتعاطف أقل.

حينما تزورني ليسا هذه الأيام، تتحدث دائما عن الأشياء العادية؛ تحرص على أن تكون هادئة. تخبرني عن الجو، وعن التقارير المدرسية للأولاد، وعن مسرحية ذهبت لمشاهدتها. تتظاهر بأن ما يحدث لي لا يحدث، لكنها تتفادى الخلاف أيضا، لأن من كان في مثل حالتي لا يجادَل. أجد كل هذا مرهقا، لكنني أرى أنه ما من بديل. الكشف عن الذات وتعريتها أمر كريه للغاية بالنسبة إلى ليسا؛ ومن حقها تماما أن تشعر هكذا. أنا أحب ليسا. لطالما أحببتها، بطريقتي؛ المشكلة أنها لم تتمكن من أن تدرك هذا أبدا. ولا ألومها؛ كانت ترغب في أم من نوع مختلف. أقل ما يمكنني فعله الآن هو التصرف بطريقة تَعُدّها هي لائقة. واللياقة تكمن في ترك الكلام دون أن ننطق به، وتجاهُل ما لا يمكن الهروب منه، والاهتمام بالترّهات. لديها حق، بالطبع. لكن، بالرغم من ذلك، من أين اكتسبت ذلك الحذر؟ ليس مني. ولا من جاسبر أيضا. إنها الطبيعة والتنشئة. وغالبا الأخيرة في حالة ليسا. شكلتها أمي والليدي برانسكوم تبعا لمعتقداتهما. وكان ذلك خطئي، مرة أخرى.

بالأمس، قرأتْ لي مقتطفات من الصحيفة، وفعلت ما بوسعها لاختيار ما قد يكون مسليا أو مفيدا. لكنها تركت، بالرغم من ذلك، أفضل خبر.

طالعتُه لاحقا، حينما كانت صحيفة «الأوبزرفر» راقدة على الطاولة المجاورة للفراش. العبارة المنسوبة إلى ملكة جمال العالم لعام 1985: «أعتقد أن مكانتك هي ما تصنعها بنفسك».

هل تعتقد ذلك بالفعل؟ ناقش العبارة. مع الإشارة إلى الحياة العملية لكل من:

أ) إيرناندو كورتيس. ب) جان دارك. ج) أحد سكان بودابست في عام 1956. استخدم أي قدر تريده من صفحات الجريدة.

1956؛ عيد ميلاد ليسا الثامن، والعديد من الأحداث الرنانة الأخرى. عام حرب السويس(61)، وعام الثورة المجرية.(62)

افترقنا أنا وجاسبر، كما فعلنا من قبل، وكما كنا سنفعل لاحقا. عادت ليسا إلى سوتليه. زرتها بقدر استطاعتي. كنت أكتب عمودا الآن لصحيفة هاميلتون، وهو التزام جعلني أتجول وأتنقل هنا وهناك، وهو ما كنت في حاجة إليه تماما في تلك المرحلة الغريبة من ولادتي الجديدة بعد منتصف العمر. كتبت عن أي شيء كان يروق لي، عن أي شيء كان يثير شغفي. كانت هناك أمور كثيرة في ذلك الوقت. مع مرور أيام العام استمعت أنا ومن كانوا يشاركونني التفكير إلى تصريحات إيدن(63) بشيء من عدم تصديق في البداية، ثم بغضب. وبينما انتقلت الحكومة سريعا، خلال تلك

---

(61) حرب السويس (العدوان الثلاثي): حرب شنتها بريطانيا في عهد رئيس الوزراء أنطوني إيدن عام 1956، بالتعاون مع فرنسا وإسرائيل، ضد مصر على خلفية تأميم جمال عبدالناصر قناة السويس. وقد اضطرت دول العدوان للتراجع بعد إنذار الاتحاد السوفييتي بسحق العدوان واعتراض الولايات المتحدة وموجة احتجاج عالمية.

(62) الثورة المجرية (وتسمى الانتفاضة المجرية): ثورة معادية للاتحاد السوفييتي استمرت من 23 أكتوبر حتى 4 نوفمبر 1956. شعر السوفييت بأنهم قد يفقدون السيطرة على المجر ضمن الكتلة الشيوعية فأرسلوا الدبابات والجنود لسحق المقاومة المجرية وتمكنوا من ذلك في 4 نوفمبر لتعود المجر إلى حظيرتهم.

(63) أنطوني إيدن (1897 - 1977): سياسي بريطاني من حزب المحافظين. شغل منصب وزير الخارجية في حكومة تشرشل (1940 - 1945)، ثم في الفترة (1951 - 1955)، خلف تشرشل في منصب رئيس الوزراء عام 1955 وفاز بالمنصب بعد ذلك. في عام 1956 شارك فرنسا وإسرائيل في العدوان الثلاثي على مصر، والذي انتهى بالفشل وقضى على مستقبله السياسي فاستقال.

الأسابيع الاستثنائية، من لغة الخطابات إلى الجنون البادي، شعرنا لأول مرة بطبيعة الحياة في أجواء سياسية مشحونة. أخذ الناس يتصايحون؛ قاطع الأصدقاء بعضهم بعضا؛ وتمزقت الأسر. كانت لدي قوة الكلمة المطبوعة، لكنني أيضا، بدافع من السخط والقلق، شاركت في مسيرات الشباب الذين كانوا يرتدون المعاطف الواقية من المطر والأوشحة الجامعية، وتحدثت في قاعات الكنائس المزدحمة، وفي استراحات الجامعات. ثم في منتصف ذلك الأسبوع المتصاعد الأحداث، جاءت أحداث المجر بقسوتها التي لا تصدَّق. بينما كان العالم يتجادل حول النفط والممرات المائية، اقتحمت الدبابات بودابست. مزقتُ المقال الذي سبق أن كتبته لصحيفة اليوم التالي، وكتبت غيره. نسيت ما قلته؛ أتذكر فقط ذلك الشعور بكوني متفرجة محايدة على القتل، لا حول لي ولا قوة. بدا الأمر وكأن المجر لم تكن مكانا آخر، بل زمانا آخر، ولذا لم يكن الوصول إليها ممكنا.

وبالطبع لم يكن الأمر كذلك.

يقول صوت خافت، من بين عاصفة من الاضطرابات الجوية الكهربائية: «أنا أهاتفك».

تقول كلوديا: «أعرف أنك تهاتفني».

«الصحيفة هي التي زودتني برقم هاتفك».

تتنهد كلوديا. لا يحق للصحيفة أن تفعل شيئا كهذا. وهم يعرفون ذلك. لا بد أن فتاة غبية هي من فعلت ذلك. وها هو مجنون ما يلح بطريقة مرهقة. تشرع في الحديث: «انظر».

«أهاتفك من بودابست».

تلتقط كلوديا أنفاسها: «أوه! أوه!».. لهذا السبب كانت هناك أصوات الطقطقة. كان هناك الآن تشويش في مكان ما على الخط وكأنه حريق صغير. تقول: «مرحبا.. مرحبا.. هل يمكنك التحدث بصوت أعلى؟».

«أتصل بك من أجل ابني الذي في ويمبلدون. ابني لاسلو».

تصيح كلوديا: «ويمبلدون؟ أتقصد ويمبلدون، لندن؟».

«ابني في ويمبلدون، لندن من أجل دراسته».

تسأل كلوديا: «من أنت؟ أرجوك أخبرني ما اسمك. من فضلك، تحدَّث ببطء، وبصوت مرتفع».

ومن خلال الحريق والألعاب النارية المتفجرة والعواصف البحرية يأتي صوته، من مكان آخر، وليس، أوه! بالتأكيد ليس، من زمان آخر: «.. أنا أستاذ جامعي.. ابني لاسلو الذي يبلغ الثامنة عشرة من العمر.. طالب فنون.. ذهب إلى بلدكم قبل هذه الأحداث التي تكتبين عنها في صحيفتك، هل تعرفين عمّ أتحدث؟». تصيح كلوديا: «نعم، نعم. كيف..؟ لا، لا يهم، تابع حديثك، أرجوك تابع حديثك، أستطيع أن أسمعك بصورة جيدة إلى حدّ ما». «.. أبلغت ابني بألا يعود إلى بيته، أبلغته أن يبقى في بلدك.. أعتقد أنني لا يمكنني أن أتحدث إليك طويلا، كما تفهمين، أنا آسف أن أطلب منك هذا، لكن ليس لدي صديق في بلدك، أعتقد أنك إنسانة ربما تهتم بما يدور هنا.. بلا نقود.. ثمانية عشر عاما.. يجب ألا يعود لبيته.. هناك أشخاص ربما يمكنهم أن يساعدوا ابني؟».

تقول كلوديا: «أجل. هناك أشخاص سوف يساعدون ابنك». كان الحريق يزأر الآن؛ والعواصف تعوي. «أنا بالكاد أسمعك. أرجوك أعطني العنوان. العنوان في ويمبلدون. أرجوك أعطني العنوان في.. في بيتك. كلا، لا لا تفعل ذلك. هل ستتصل بي ثانية؟».

«أعتقد أن هذا لن يكون ممكنا. أعتقد أنه ربما لن يكون لدي عنوان قريبا. هل تفهمين؟».

تقول كلوديا: «أجل. أخشى ذلك».

وهكذا، ها هو لاسلو، ابن زمانه، يجلس في شقة كلوديا في حي فولهام

بعد الظهيرة في يوم من أيام شهر أكتوبر. في الخارج، كانت هناك أصوات ضجيج لندن اليومي، من وقع أقدام على الأرصفة، وارتجاج سيارة أجرة، وطائرة في السماء؛ كان لاسلو يجلس على حافة الأريكة، وحقيبة صغيرة عند قدميه. كان له شعر طويل خفيف أسود وبثور، وكان يعاني من نزلة برد شديدة. لم يكن يمتلك شيئا سوى الملابس التي كان يرتديها، وغيارا من قميص وجوارب، وخريطة للندن، وقاموس أوكسفورد جيب للغة الإنجليزية، وحفنة من البطاقات البريدية من متحف تيت. كان يملك أيضا، بالطبع، جواز سفر يحدد هويته ومن أين أتى.

يقول: «هذا تقرير بشع».

تقول كلوديا: «قرار. ليس تقريرا». وتضيف: «أنا آسفة.. وكأن الأمر يهم. الكلمات اللعينة».

يقول لاسلو: «الكلمات ليست لعينة. يجب أن أتحدث الإنجليزية. إنجليزية جيدة».

ها هو يجلس بسرواله الواسع عند الركبة وكنزته الضيقة. وتغمر كلوديا موجة من أكثر المشاعر قوة، الشفقة. تقول لنفسها: أيها الفتى الصغير المسكين. أيها التعيس الصغير المسكين، أنت واحد من أولئك الذين تؤثر فيهم الأحداث التاريخية تأثيرا بالغا. أنت، حقًا، شخص لا يمكنه أن يقول عن حياته إنها ملكه. لا بد أن لكلمة الاختيار الحر، الآن، وقعا أجوف على الأذن.

«لو قررت أن تبقى فسوف أفعل كل ما بوسعي من أجلك. يمكنك أن تعيش هنا، على سبيل البداية. سوف أستعلم عن الأماكن في كليات الفنون».

يسود الصمت. يقول لاسلو: «لن أرى أبي ثانية أبدا». يبدو أن أمه توفيت وهو طفل.

تغمغم كلوديا: «ربما كانت أبدا كلمة قوية بصورة زائدة..».

«أبدا. لدي أيضا عمة وجدة وأبناء عمومة».

تهز كلوديا رأسها. تفكر: وما الذي يُعرض عليك في المقابل؟ هذا المصطلح الوهمي المسمى حرية، والذي لا يمكن أن يبدو شيئا من هذا القبيل في الوقت الحالي. كل الذين أعرفهم ممن هم في الثامنة عشرة من العمر قلقون بشأن الجنس والاختبارات الدراسية: تلك هي الحرية.

يقول: «أعتقد أن علي العودة إلى بودابست». ينظر إليها بعينين بائستين، وهو يتوسل إليها أن تنصحه.

تنهض كلوديا: «سأعد العشاء. اذهب أنت وخذ حماما ساخنا. نم، ولا تفكر في شيء، لو استطعت. لن تقرر أي شيء حتى الصباح، على أي حال. أو في اليوم التالي، أو الذي يليه».

ظل لاسلو معذبا بضعة أيام. جلس في الشقة وسط غيمة من الكآبة، أو أخذ يسير في الشوارع. ازدادت حدة نزلة البرد التي كان يعاني منها. ولما وجدت نفسي أشعر بالانزعاج من شخيره، عرفت أن علاقتنا سوف تدوم. كان واضحا أنه نُشِّئ تنشئة حسنة؛ في ذلك الوقت العصيب، كان يتذكر أن يقول: «من فضلك»، و«شكرا»، وظل يحاول أن يغسل الأطباق. ولما وصلته رسالة والده، ست صفحات مليئة بالكتابة، كان قد أرسلها قبل المكالمة الهاتفية، استسلم للأمر. قضى ثلاث ساعات وحيدا مع الرسالة في غرفة نومي الإضافية، ثم خرج وقال: «سأبقى هنا».

تقول كلوديا بنشاط: «هذا جيد. يجب علينا، إذا، أن نأخذ الخطوات اللازمة للاستفسار عن بعض الأمور. هل تريد الالتحاق بكلية الفنون في لندن أم في مكان آخر؟ سوف أصحبك كي ترى بعض الأماكن. هناك لجنة تقوم بجمع الأشخاص الذين هم في مثل وضعك. يجب علينا أن نتصل بهم. هناك القليل منكم، على ما يبدو. ويجدر بك الخروج لشراء معطف وكنزة أكثر سماكة قبل أن تشتد برودة الجو. لا يمكنك الاستمرار في السير

هكذا وكأنك ترتدي ملابس ملائمة لصيف وسط أوروبا».

تقول لنفسها: يا إلهي! من هذه التي تتحدث؟

هكذا جاء لاسلو، وقد ألقاه الكرملين في حياتي. أتذكر الشعور بإحساس غريب بالرضى، وكأن المرء قد تمكن من التغلب على مصيره. هذه غطرسة، بالطبع؛ فقد كنت أنا أيضا قدر لاسلو. وما الذي كنت أريده أنا كلوديا، المشغولة التي لديها التزامات، ذات الستة والأربعين عاما، من فتى مراهق مشوش لديه ميول فنية، ويتحدث بإنجليزية مكسورة؟

يقول لاسلو: «يجب أن أكون ميتا. الأفضل أن أكون ميتا مثل المجريين».

يقف مرتديا المعطف الذي اشتراه بالمال الذي أرغمته كلوديا على قبوله (سماه قرضا، وسجله بصرامة في دفتر صغير من متجر وول ورث). كان المعطف يكبر قياسه بمقدار درجة، وينسدل على ساقيه النحيلتين. وكانت بثور حب الشباب أسوأ من ذي قبل. وقف في مقدمة الشقة، متجهم الوجه.

«أنت كريمة للغاية معي. دائما أنت كريمة جدًا معي. أنا ممتنّ للغاية».

تقول كلوديا: «لا بأس. يمكنك أن تكرهني لو أردت ذلك. من حقك تماما أن تكره شخصا ما، وأنا جاهزة.. تفضل».

يزمجر لاسلو: «ماذا تعني كلمة جاهزة؟».

يثمل لاسلو. يكتشف الحانات، ويذهب ذات ليلة إلى كينجز رود؛ حيث ينضم إلى جماعة من الشباب المفعمين بالحيوية، ويعود إلى الشقة بعد منتصف الليل ويتقيأ بوفرة على أرض الحمام. في الصباح التالي يأتي لكلوديا وقد أعد حقيبته الصغيرة، ويعرض عليها أن يغادر. تقول كلوديا إن هذا لن يكون ضروريًا.

يرسم لاسلو. يغطي صفحة بعد صفحة من الورق الخشن المحبب

الذي جلبه من البقال الموجود على الناصية برسوم وحشية ضخمة بالفحم، لبنادق ودبابات، ومبانٍ مهدمة وأشخاص مكدسين. تعلق كلوديا بعضها على جدرانها. تقول: «هذه جيدة».

يقول لاسلو: «لا، ليست جيدة. إنها فظيعة وسيئة، وشنيعة». ينزعها بينما كلوديا في الخارج، ويحرقها في سلة المهملات بالمطبخ. تفوح من الشقة رائحة الورق المتفحم. تقول كلوديا: «افعل ما تشاء بلوحاتك، لكن لا يحق لك إحراق شقتي».

تتصرف ليسا ببرود تجاه لاسلو كلما جاءت إلى الشقة. يعرض أن يصحبها إلى باترسي، لكنها ترفض. تقول كلوديا: «لم لا؟ كنت أعتقد أنك تريدين أن تركبي القطار الأفعواني». تتمتم ليسا: «لا أحب وجهه المبقع». تقول كلوديا، وهي تكز على أسنانها، إنها في هذه الحالة يمكنها أن تنسى أمر القطار الأفعواني تماما.

تلقَّى لاسلو خطابا مرسلا من النمسا. كان من عمته. كان والده في السجن. لم يعد هناك عنوان لوالده. يخبر لاسلو كلوديا بذلك، وهو يناولها الخطاب، لأنه نسي لوهلة أنها لا تستطيع قراءة اللغة المجرية. ترى كلوديا أنه كان يبكي. تطلب منه كلوديا أن يترجم لها الخطاب، لأن ذلك سيبقيه منشغلا بشيء. وبينما يترجم لها، تفكر بعمق في هذه السيدة التي تمثل حياة كاملة للاسلو، بينما هي مجرد صوت ما في نظرها هي، وفي هذا الرجل الذي ليس له وجه؛ حياة كاملة أخرى لا يمكن تخيلها.

يتناول لاسلو الشراب وحده في الشقة، ويثمل مرة ثانية. تقتحم كلوديا غرفته، تجد زجاجة فارغة، وتضعها بقوة على الطاولة في غرفة الجلوس. تقول: «في المرة القادمة التي تريد فيها أن تفعل هذا، أخبرني، وسأنضم إليك. لا أفضل هذا الشراب على وجه الخصوص، لكن لدينا تقليد في هذا البلد ألا يثمل أحد وحده. اتفقنا؟».

طلبت كلوديا من لاسلو أن يحفظ شوارع لندن. جعلته يركب الحافلات من محطات البداية حتى النهاية، ويسير أميالا كل يوم. اشتكى لاسلو. تأمره: «فلتفعل ذلك. هذه هي الطريقة الوحيدة التي ستجعلك تغير جلدك».

في يوم ميلاد كلوديا، قدم لها لاسلو باقة ضخمة من زهور النرجس. اتضح أنه قطفها من حدائق كينزنجتون. كان مذهلا أن أحدا لم يلحظه وهو يفعل ذلك.

تحت إشرافي، تعرَّف لاسلو إلى كليات الفنون في لندن، وفي النهاية، اختار كامبرويل. كان يمكنه ارتياد أي كلية يرغبها؛ فقد كان العالم الغربي كله يريد أن يعوضه عما فعلته الدبابات الروسية. كان لاسلو يعامَل باهتمام بالغ من مدرسيه وزملائه الطلاب على حد سواء. وخلال أسابيع، صار يرتدي قلنسوة فرنسية، ووشاحا من الحرير كان يدسه في طوق قميصه. بدأ يدخن سجائر جلواز، ويذهب لمشاهدة الأفلام في سينما كورزون. حصل على منحة دراسية وبعض المال من اللجنة التي أنشئت للإشراف على الطلبة المجريين. وفي وقت ما من الربيع، انتقل من شقتي للإقامة مع بعض الأصدقاء في الجهة الجنوبية من النهر. كان يتشاجر مع أصدقائه بانتظام، أو كانوا يُطردون جميعا لعجزهم عن سداد الإيجار، فيعود للإقامة معي حتى يتم ترتيب الأمور من جديد. بتُّ معتادة على الاتصالات الهاتفية من الشارع في أوقات متأخرة من الليل، وعلى هيئة لاسلو النحيفة أمام عتبة بابي. صارت غرفتي الصغيرة الإضافية، في مقابل تلك التي تشغلها ليسا عادة، معروفة بأنها غرفته. كان يبتعد لأسابيع دون أن يرسل خطابات أو يتصل هاتفيًا، ثم يثب عائدا مرة أخرى.

استمر الحال على هذا النحو حوالي عشر سنوات.

راقبت لاسلو وهو يتغير. راقبته وهو يتحول من فتى مشوش إلى إنسان

بالغ متقلب الطباع. بصراحة، لم أكن متأكدة أبدا من نسبة تقلُّب لاسلو التي يمكن أن أعزوها للتاريخ، والنسبة التي كانت عائدة لطبعه الشخصي. ربما كان سيغدو هكذا على أي حال. وحتى أكون منصفة، لم يلم هو نفسه - ولو للحظة - الظروف على أي شيء قطّ. كل ما فعله هو أنه تعلّق بوطنه المتبنَّى. وخلال عامين صار لاسلو يتحدث بلغة إنجليزية شعبية أكثر من زملائه؛ صار وكأنه من أهل الجزر البريطانية. وصاحب أكثر الأصدقاء ذوي الطباع الإنجليزية الذين كان بإمكانه العثور عليهم، مزيج غريب من شباب الطبقة العاملة ذوي اللكنة اللندنية الحادة، وأشخاص قليلي الكلام من بقايا الطبقة العليا، لهم أسماء مركبة. كان نادرا ما يتحدث عن المجر، وكان ينزعج إذا ما ثار الحديث عن الموضوع؛ أيّا كان ما يحدث في المجر، كان يدور بداخله. كان يتفادى محاولات زملائه من المغتربين للاقتراب منه، تلك الثقافة الفرعية الأوروبية الشرقية الغامضة سيئة السمعة بعض الشيء، التي كانت تتخفى آنذاك في ساوث كنزنجتون وإيرلز كورت. فكر لبعض الوقت في اعتناق الكاثوليكية الإنجليزية. ثم تخلى عن تلك الفكرة، وانضم إلى حزب العمال. مارس، بالتناوب، مراقبة الطيور والريجيم النباتي والجودو والطيران الشراعي، وكل صرعة فنية عابرة. كان سلوكه تجاهي يتراوح بين التعامل بتسامح ودي والحنان الفياض.

كان لاسلو ثملا بعض الشيء. يرقد على الأريكة وقدماه على مسند الذراع.

تقول كلوديا: «بإمكانك أن تخلع حذاءك».

يقول لاسلو وهو يخلع حذائيه: «تتصرفين بطريقة برجوازية. أنت أمي، كلوديا».

«كلا، لست أمك، أحمد الله على ذلك. ولا يجدر بك الحديث بهذه الطريقة».

يقول لاسلو بعد لحظة: «لا. لديك حق. لكنني أريد أن أقول شيئا. من غيرك يمكنني أن أخبره بهذا؟ الأمر هكذا: أنا لا أحب الفتيات».

تقول كلوديا: «وماذا في ذلك؟ لو كانت هذه طبيعتك، إذا، هذه ميولك».

لم تتقبل ليسا لاسلو أبدا. حين كانت طفلة، كانت تراقبه بشك. هل كانت تشعر بالغيرة؟ هل كانت تعتبره ابني البديل؟ هل كان بالفعل ابني البديل؟ لا أعتقد ذلك. لكن من أنا لأقول هذا؟ كل ما يمكنني أن أفعله هو إظهار شعوري حيال لاسلو. ما كنت أشعر به هو وخز الضمير والمسؤولية، ومع مرور الوقت، العاطفة الجياشة. وهذا كثير للغاية. لكن لم يكن هناك داعٍ لأن تشعر ليسا بالغيرة. ولما كبرتْ، في السابعة عشرة والثامنة عشرة، كانت تتصرف معه بطريقة مهذبة لكن باردة. في هذه الأيام، في المرات النادرة التي تلتقيه فيها، تتصرف كما تفعل حيال قريب من الدرجة الثانية يعاني ضائقة وقد يطلب قرضا.

حينما بلغ لاسلو مقتبل الثلاثينيات من العمر كانت طباعه قد هدأت. ذهب ليعيش بما يتناسب مع ميوله في كامدن تاون، مع تاجر تحف ثمينة، لديه متجر من تلك المتاجر التي لا يوجد بها أي شيء سوى ثلاث قطع من الأثاث الثمين، وزوج من الآنية الصينية. لم أحب الرجل أبدا، لكنه اعتنى بلاسلو، وتحمل طباعه المتقلبة، ووفر له مكانا يعمل فيه. لاسلو ليس فنانا ناجحا. أستطيع أن أتفهم لِمَ لا يرغب سوى عدد قليل من الناس في اقتناء لوحاته؛ فهي ليست مريحة حتى يحيا الإنسان معها. إنها تثير إحساسا صارخا بالانزعاج؛ وتصدم العين؛ وهي متنافرة وتثير الضيق. تسير كائنات كابوسية وسط طبيعة سريالية؛ تتداعى الأشياء؛ ويركض الأشخاص المكروبون وسط مدن مهدمة. تزين لوحاته جدراني؛ لكن ليس لي خيار في الأمر، لو لم أفتخر بها فمن عساه يفعل؟ على أي حال، اعتدت عليها.

الفصل الخامس عشر

تقول كلوديا: «بالله عليك! من المفترض أن تسرّي عني، لا أن تجلس هناك وتندب حظك». كان يوما من أيامها السيئة؛ خرج صوتها همسا.

يصيح لاسلو: «لم يخبروني. كنا في فرنسا، ثم ذهبتُ إلى نيويورك، ولما عدتُ حاولت مهاتفتك، ولم يكن أحد هناك، فاتصلت مرة أخرى لاحقا ولم يكن هناك أحد بعد، فاتصلت ليسا. لماذا لم يخبروني؟».

تقول كلوديا: «لقد حاولوا ذلك. حاولت ليسا الاتصال بك. لكن، كما قلت، كنت مسافرا».

يميل لاسلو للأمام ويحملق فيها باهتمام: «كيف حالك إذا؟».

«ما زلت هنا».

يتجه لاسلو نحو النافذة. كان نحيفا، يطل مرفقاه من ثقوب في كنزته، وكان شعره الأسود يخطه الشيب. راقبته كلوديا.

«ما الذي يمكنني القيام به؟ ما الذي تحتاجينه؟ ماذا يمكنني أن أجلبه لك؟ كتبا؟ صحفا؟ سوف آتي كل يوم».

ترد كلوديا بسرعة: «كلا. من وقت لآخر سيكون كافيا. أخبرني عن فرنسا».

يشيح لاسلو عنها بلا اهتمام: «فرنسا.. رحلة فرنسا كانت من أجل هنري. كل اهتمامه الآن منصب على المدافئ القديمة من أجل العجائز اللاتي يدفعن أموال الدنيا مقابلها».

«ماذا عن نيويورك؟».

«كان لدي معرض هناك».

«أها! هل بعت الكثير من اللوحات؟».

ينفتح الباب، وتصيح الممرضة: «هناك زائر من أجلك!».

تدير كلوديا رأسها، وتتمتم: «مرحبا، سيلفيا».

تقول لنفسها: لا، لا، لا، من حقي الآن أن أشيح بوجهي عن اللقاءات غير الملائمة. تغلق عينيها وتتركهما معا، سيلفيا ولاسلو، اللذين لم يسكنا العالم ذاته أبدا بأي طريقة من الطرق. تسمع سيلفيا وهي تقول إنها في الواقع لم تحب نيويورك أبدا حبّا كبيرا؛ وتسمع لاسلو مغمغما بلا، لم يذهب إلى المسرح كثيرا، ونعم، كان الجو باردا إلى حد بعيد.

كلنا نتصرف وكأننا مفصلات أبواب، أو حلقات اتصال عرضية بين بعض الناس وبعض. أنا أصل سيلفيا بلاسلو؛ وليزا بلاسلو، وغوردون يصلني بسيلفيا. كانت سيلفيا دوما تبتعد عن لاسلو بدعوى أنه فتى صعب المراس، وأن كلوديا كانت تجيد التعامل معه. حينما كان لاسلو في عقده الثالث الذي كان عقدا صاخبا، كان يقلد سيلفيا بقسوة وبدقة. وجد غوردون أنه شخص مثير للاهتمام والسخط في آنٍ معا. فقد كان لاسلو دوما يكشف عن مكنونات روحه تماما مثل ذيل قميصه الذي كان يتركه مدلى للخارج، وكان غوردون يستهجن ذلك. لم يكن يعترض على أن تكون للناس أرواح، غير أنه كان يفضل أن تبقى خفية وبعيدة عن الأنظار حيث يجب أن تكون. لكنه تكفل بلاسلو بطريقته. ترك غوردون للاسلو ثروة صغيرة.

تفتح كلوديا عينيها. كانت ليسا هناك، تخلع سترتها وتعلقها بصورة مرتبة على ظهر الكرسي.

تتأملها كلوديا: «اليوم مزدحم للغاية. جاء لاسلو وسيلفيا والآن أنت».

تقول ليسا: «لا. كان ذلك منذ يومين. لقد اختلطت عليك الأمور بعض الشيء. لم تكن حالتك جيدة».

تقول كلوديا: «ماذا كنت أفعل طوال يومين، يا ترى؟ يبدو أنهما مرًا دون أن أنتبه. أو أنهما صحباني معهما».

تقول ليسا: «تبدين أفضل حالا».

ترفع كلوديا كفيها وتتأمل ظاهرهما: «لا أظن ذلك. لم أعتد أبدا أنهما صارتا مليئتين بالبقع البنية. بصراحة، تبدوان لي وكأنهما لشخص آخر».

تسأل ليسا التي لا يعجبها المنحى الذي تسير إليه الأمور عن لاسلو.

«لاسلو كان كما هو دائما. كان دائما متسقا مع ذاته، يجب عليك الاعتراف بهذا».

تحني ليسا رأسها، دون أن تجيب.

«أتعلمين؟ إني آسفة».

تسأل ليسا بحذر: «آسفة على ماذا؟».

«آسفة لأني كنت أمّا غير ملائمة إلى هذا الحد».

«أوه!» تبحث ليسا عن جواب: «حسنا.. لن أقول بالضبط.. لقد كنت.. حسنا، لقد كنت على طبيعتك».

تقول كلوديا: «نحن جميعا على طبيعتنا. وهذا أمر يجب على المرء التغلب عليه. تبعا للمعايير المتعارف عليها، كنت أمّا سيئة. لذا فأنا أعتذر. رغم أن هذا لن يفيد كثيرا الآن. لكنني فقط أرت أن أسجل اعتذاري».

تقول ليسا في النهاية: «شكرا». تدرك أنها ليست لديها أدنى فكرة عما تعنيه بهذا. تتمنى لو أن كلوديا لم تقل ما قالته؛ الآن، سيظل قولها ماثلا أمامها دوما، ويعقد الأمور.

لم أتوقع أبدا أن أرى ليسا وهي تكبر. على مدى سنوات، حينما كانت طفلة، كنت أنتظر نشوب حرب نووية. بينما كان العالم يترنح ما بين كوريا ولاوس وكوبا وفيتنام، كنت أنا أنتظر وحسب. وكان وجود ليسا يزيد من حدة الرعب. ما قد يحدث للبشرية بأكملها صار مركزا على أطراف ليسا

الصغيرة، وعلى عينيها البريئتين، وعلى أحلامها المرحة. ربما كنت أمّا غير ملائمة، لكنني كنت أمّا على أي حال؛ من خلال ليسا، كنت أشعر بالغضب والخوف. لم أكن لأعترف أبدا بتلك الليالي المظلمة للروح. في العلن، كنت أتصرف ككائن عقلاني مسؤول، كنت أناقش محاسن الانفرادية ومساوئها في العلاقات الدولية، وأكتب عمودي للصحيفة، وكنت أشارك في مسيرات وتظاهرات كلما شعرت أن ذلك ملائم. احتفظت لنفسي بذلك الإحساس بالرعب الذي شعرت به خلال الأيام التسعة لأزمة كوبا[64]، والعديد من المرات الأخرى في تلك السنوات. في بعض الأيام لم أكن أستطيع فتح المذياع أو التقاط الصحيفة، وكأن الجهل يمكن أن يعزلني عن الواقع.

كبرت ليسا، وأبناؤها يكبرون. وما زلت أشعر بالرعب من وقت إلى آخر، لكن ليس بالطريقة نفسها. لم أعد أتهرب من الصحف. لم يحدث لي هذا يا ترى؟ العالم ليس أكثر أمانا مما كان عليه منذ عشرين عاما، لكننا لم نزل هنا. لقد تم احتواء الوحش، حتى الآن، ومع كل عام يمر يزداد الأمل في أن يستمر احتواؤه بطريقة ما. توقع المصائب يوميّا أمر أشد وطأة من أن نحتمله دائما. لا بد أن الرهبان في ليندسفارن كانوا يصفرون أثناء عملهم عندما لم يكونوا ينظرون باتجاه البحر؛ وكان الناس يمارسون الحب في المدن الواقعة تحت الحصار.

نحن نتوقع نشوب حرب نهاية العالم؛ لقد دربنا الإنجيل على هذا جيدا. نفترض أن يكون مصيرنا إما الإبادة وإما الخلاص، وربما الاثنين.

معتقدات نهاية العالم قديمة قدم الزمن؛ دائما ما كانت نهاية العالم وشيكة. رقد الناس في أسرَّتهم وهم يرتعشون في انتظار العام الألف،

---

(64) مواجهة حدثت بين أمريكا والاتحاد السوفييتي عام 1962 في ذروة الحرب الباردة. فبعد محاولة أمريكا الفاشلة لإسقاط نظام الرئيس فيدل كاسترو في كوبا (عملية خليج الخنازير)، شرع الاتحاد السوفيتي في بناء قواعد سرية للصواريخ النووية في كوبا وهو ما يعني تهديد كل المدن الأمريكية. وانتهت الأزمة نهاية أكتوبر 1962 بسحب الصواريخ النووية السوفييتية مقابل تعهد الولايات المتحدة بعدم غزو كوبا.

وانكمشوا رعبا عند مرور النيازك، وشرعوا في الصلاة في أوقات الخسوف. في ظاهر الأمر، تبدو مخاوفنا الخاصة أكثر عقلانية، لكنَّ لها أسسا قديمة لا يمكن إنكارها. فكرة استمرارية الأشياء إلى الأبد هي فكرة حديثة، ومن الواضح أنها حديثة جدّا لدرجة تمنعها من اجتذاب الكثير من الأتباع. ولأن العالم بحاله الذي هو عليه، فقد كان مغريا دوما أن يفترض المرء أن شيئا ما سوف يحدث بشأنه، عاجلا أم آجلا. حين ذهبت إلى القدس عام 1941، أقمت في فندق عائلي صغير تديره طائفة سبتيّي اليوم السابع الأمريكية، وهم أشخاص مسنون كانوا قد باعوا ممتلكاتهم في أيوا أو نبراسكا في العشرينيات وارتحلوا إلى الأرض المقدسة بكل مدخراتهم حتى يكونوا موجودين هناك عند المجيء الثاني للمسيح، الذي كان متوقعا عام 1933. لم يحدث المجيء الثاني أبدا؛ نفدت المدخرات؛ وما زالوا هناك، يحاولون بطريقة عقلانية أن يتدبروا الأمر بأفضل ما في وسعهم من خلال إدارة فندق. كان مكانا مبهجا، له فناء ظليل تسير السلاحف فيه الهوينى بين شجيرات إكليل الجبل وأصص زهور إبرة الراعي.

لقد تجادلنا، أنا وغوردون، عبر السنوات، حول نزع السلاح أكثر من أي شيء آخر. حينما كنت عضوا في حملة نزع السلاح النووي لم يكن هو كذلك؛ كانت نزعته الواقعية دوما ما تواجه نزعتي التشاؤمية. كان دوما قادرا على تقديم الحجج والأرقام، بينما كنت أنا ألوح بالمشاعر وأتصرف على أساسها. يمكنني أن أقول هذا الآن. في آخر مرة كنا فيها معا، في سيارة أجرة في لندن، قبل وفاته بيومين، ألقى نظره على عناوين صحيفة المساء التي كانت على ركبته، وقال: «إن المرء ليستاء من اقتطاعه من سياق الحكاية، أكثر من أي شيء آخر. كان بودي أن أعرف النتيجة في النهاية».

كان غوردون، بالطبع، واحدا من أولئك الذين لهم يد في تشكيل النتائج. ساهم في صنع الأحداث، من وقت إلى آخر. كان من نصيب

خبراء الاقتصاد أن يتدخلوا في سير الحكاية، بدرجة ضئيلة؛ الفلاحون في زامبيا، وأصحاب المحلات الصغيرة في بوغوتا، وعمال المصانع الصغيرة في هدرسفيلد تأثروا جميعهم، في وقت أو آخر، بأنشطة غوردون المهنية.

كان غوردون، قبل وفاته بأسبوع، قد تقدم بالشهادة أمام الهيئة الملكية للإذاعة، وكان يعلم أنه لن يرى تقريرها أبدا. صحبته أنا وسيلفيا في سيارة أجرة، وسيلفيا تبكي وتطقطق بلسانها، وعيناها محمرتان، وفتات المناديل الورقية المبللة مبعثرة على ملابسها؛ كان غوردون نزقا ونافد الصبر، وقد حُقِن جسده بالأدوية، والخراطيم البلاستيكية تحيط به. قال الأطباء: «إذا كان يرغب في تقديم شهادته، فعليه القيام به»؛ ولقد وافقتهم. قدم شهادته؛ ترنَّح حتى استقل سيارة أجرة أخرى، وجلس هناك يتحدث عن الانتخابات المقبلة. سعى لاستثارة أعصابي، وابتلعت الطعم، وأنا أدرك أنه يجب عليَّ ألّا أفعل خلاف ذلك. تجادلنا. وانفجرت سيلفيا بالدموع.

تجلس بجوار غوردون، وتجلس كلوديا في الجهة المقابلة، على المقعد القابل للطي. لم يكن يجدر به أن يأتي، وما كان ينبغي لهؤلاء الأطباء التعسين أن يسمحوا له بالمجيء أبدا، يجب على أيٍّ منهم ألّا يكون موجودا في مثل هذا الوقت بينما ترتج بهم سيارة الأجرة في شوارع لندن البشعة في شهر ديسمبر. كان تنفُّس غوردون خشنا، وكانت هناك خراطيم مثبتة في ساقه لم تكن تستطيع النظر تجاهها، فقد كانت تُشعرها بالدوار. وكان يتحدث ويتحدث ولم يكن هذا أمرا صحيّا له بالتأكيد، وقد أخذت أعصابه تثور بسبب الانتخابات الغبية، ومن ذا الذي يهتم بالانتخابات وسط كل هذا؟ لن يكون غوردون.. حين يحل موعد الانتخابات سيكون غوردون.

تحملق سيلفيا خارج النافذة، وهي تعض شفتها.

سوف تواجه الأمر بشجاعة بالغة. لن تصاب بالانهيار حينما يحدث

ذلك. سوف تكون شجاعة وعقلانية، وسوف تتولى جميع الأمور التي يجب القيام بها، وسوف تظل هادئة ووقورة.

وبينما هي تفكر في ذلك، تمر في رأسها أفكار أخرى تعرف أنها يجب ألّا تكون موجودة، لكنها لا تستطيع إبعادها.. أفكار عن الوضع بعد وفاة غوردون، وعن بيع المنزل. فهي في الحقيقة لم تحب شمال أوكسفورد أبدا على أي حال، وبوسعها الانتقال إلى مكان آخر أكثر ريفية، ليس في الريف نفسه الذي قد يمثل مشكلة، لكن في مدينة صغيرة لطيفة بها سوق وسكانها من النوع الملائم الذي يمكن التعايش معه. ولن تضطر إلى الذهاب للولايات المتحدة ثانية أبدا، ويمكن أيضا أن تعثر على وظيفة بسيطة، عمل تطوعي، ربما، في متجر من متاجر أوكسفام أو شيء من هذا القبيل، لمجرد أن يكون لها اهتمام بشيء ما..

تقول كلوديا: «هراء! محض هراء!». وتقفز سيلفيا، تقطع حبل أفكارها، وتعود للحظة الراهنة التي تتبادل فيها كلوديا وغوردون الجدال. جيئة وذهابا، تماما مثل الأيام الخوالي. لكن عليك أن تنصت فأنت لا تعني حقّا أن تخبرني.. أنت فقط تقولين ذلك لأنك لا تعرفين أي شيء بخصوص.. دعني أكمل حديثي.. أنت بكل بساطة مخطئة في هذا الشأن، كلوديا.

كيف تجرؤ كلوديا؟! ترد عليه هكذا بينما هو مريض للغاية. تقاطعه وترفع صوتها. السلوك المعتاد لكلوديا. إنه أمر مروع. بينما هو.. بينما سيموت.

وتملأ الدموع عينيها، وتفيض، حتى تضطر إلى الاستدارة ناحية النافذة مرة أخرى وهي تبحث عن منديلها، وترى وجهها في النافذة، وقد انعكس فوق واجهات المحلات والأرصفة. وجه عجوز مستدير ووردي، له عينان منتفختان ووجنتان مبقعتان.

تقول كلوديا: «هراء!» تبدو عنيفة بما يكفي؛ تبدو تقريبا وكأنها

تعنيها. تلتقي عيناها بعيني غوردون، وترى أنه لم ينخدع، لكنه يستمر في الحديث، وتواصل هي الكلام والمقاطعة، وتحت الكلام المنطوق يخبران بعضهما شيئا مختلفا تماما.

تقول لنفسها أحبك. لطالما أحببتك دوما. أكثر مما أحببت أي شخص آخر، عدا واحدا فقط. تلك الكلمة محملة بما يفوق معناها؛ لا يمكنها أن تكفي للتعبير عن أشياء كثيرة مختلفة للغاية، حب الإله وحب الأبناء وحب الأصدقاء والحب الجسدي والشهواني والروحي. لست بحاجة لأن أخبرك، كما أنك لست بحاجة لأن تخبرني. نادرا حتى ما فكرت بالأمر. لقد كنتَ ذاتي الأخرى، وكنت أنا كذلك لك. وقريبا لن يكون هناك سواي وحدي، ولن أعرف ما الذي سأفعله.

ترى أن سيلفيا تبكي مرة أخرى. لكن ليس بصمت كافٍ. تقول كلوديا لنفسها: إذا لم تكُفّي عن ذلك فربما أدفعك ببساطة خارج سيارة الأجرة هذه.

كان الوقت بعد الظهيرة في يوم رمادي شتوي، يلتمع بأنوار السيارات وأعمدة الإنارة، ذهبي وأحمر وزمردي، والأرصفة السوداء تلتمع بالمطر. كانت نوافذ المحلات مثل مغارات متوهجة. كان غوردون يتحدث ويرى كل ذلك وينتبه له. يتحدث عن أحداث لم تقع بعد، ويرى الضوء وصفته المميزة، النقوش التي ترسمها ألوان الفاكهة خارج محل الخضراوات، وغشاوة المطر على وجنة فتاة. كان كشك الصحف مَعرِضا لصور نجوم البوب والشخصيات الملكية؛ وكانت حركة المرور تنساب مثل أسراب من الأسماك اللامعة. يقول لنفسه إن كل هذا سوف يستمر ويستمر ويستمر. ما شعوري أنا حيال الأمر؟ لماذا أهتم؟

تلتقي عيناه بعيني كلوديا. تقول: «هراء. لطالما أعطيتُ النظريات حقها. كل ما في الأمر أنني كنت أفضل الكتابة على العمل». يقول

غوردون: «انتهازيون مجانين.. تيتو، نابليون. هذا ليس تاريخا حقيقيًا. التاريخ رمادي، المنتجات وأنظمة الحكم. المناخ العام للآراء وهو يتحرك ببطء. لذلك تفقدين صبرك معه، وتبحثين عن الإبهار». تقول كلوديا: «هناك إبهار بالفعل، الكثير منه». يقول غوردون، وهو يتحول إلى مقعده بنفور: «أجل، حقًّا. بالطبع هناك إبهار. لكن هذا الإبهار قد يكون خادعا. ما يدور بالفعل ربما يحدث في مكان آخر». تصيح كلوديا: «أوه! بالله عليك! هل ستخبر السجين الذي على المقصلة أن الأحداث تدور حقًّا في مكان آخر؟». وبينما هي تتحدث، يسمع ويرى مئة كلوديا أخرى، تعود للخلف في الزمن وهي امرأة وفتاة وطفلة. يقول لنفسه: أنت أنت. لطالما كنت هناك. وقريبا لن تكوني.

يشعر بسيلفيا بجواره وقد أدارت رأسها، وكتفاها يرتعدان. يمد يده ويضعها على يدها. كان هذا أقل ما يمكنه أن يفعله. وأكثر ما يمكنه فعله.

مات غوردون منذ خمس سنوات. صرت منفصلة عنه الآن. لا يمر يوم دون أن أفكر فيه، لكن يمكنني أن أفعل ذلك بحياد. لقد صار كاملا؛ له بداية ونهاية. الأوقات التي جمعتنا معا صارت كاملة. لا أشعر أني أقلّ حزنا عليه، لكنني اضطررت إلى المضي قدما، ليس هناك خيار آخر. كنا طفلين معا؛ وكبرنا واعتمدنا على بعضنا. من وقت إلى آخر، كره بعضنا بعضا، لكن حتى في الكراهية كنا متَّحدَيْن واستثنائيين، كنا مجتمعا من اثنين. كنت أعرف غوردون بالقسوة ذاتها التي أعرف بها نفسي، وبالتسامح نفسه. ما كنت أشعر به تجاه غوردون يصنف على أنه حب لأنه لا توجد كلمة أفضل. كان يمثل إحساسي بهويتي وكان مرآتي وناقدي وقاضيَّ وحليفي. من دونه صرت أضعَف.

في البدء كانت هناك ذاتي؛ جسدي أنا كان يضع الحدود المادية والعاطفية، كان هناك فقط أنا وما ليس أنا؛ أنانية الطفولة تتصف بالعظمة. ولما صرت

طفلة كانت هناك كلوديا، التي كانت مركز كل الأشياء، وكان هناك ما هو متعلق بكلوديا، الذي كنت أنظر نحوه، عالم الآخرين، أراقبه لكن لا أدركه، عالم يتسق مع مثالية بيركلي ويوجد فقط تبعا لهواي. وحينما كنت أفقد الاهتمام به لا يعود له وجود. ومع مرور الوقت، أو هكذا أدَّعي، كبرتُ ورأيت نفسي في السياق المرعب للزمان والمكان، كل شيء ولا شيء.

تطفو للسطح من عالم سفلي مضطرب. ترى لاسلو جالسا بجوار الفراش، وعيناه البنيتان مركزتان عليها. تقول: «آه. أنت ثانية. رحلت سيلفيا، إذا؟».

يقول لاسلو: «كان هذا منذ ثلاثة أيام. أنت مشوّشة، عزيزتي».

تتنهد كلوديا: «أنا مضطرة لأن أصدقك. ولا تنادني بعزيزتي، يبدو الأمر غريبا، فلم تفعل هذا من قبل».

يقول لاسلو بخجل: «آسف. هل ترغبين بشيء؟».

تقول كلوديا: «هناك أشياء كثيرة. لكن فات أوانها».

«يجب ألا تتحدثي هكذا».

«لم لا؟».

«لأن.. لأن هذا يخالف طبعك».

تتأمله كلوديا: «أنا أموت، كما تعلم».

يقول لاسلو بعنف: «لا!».

«بلى. لذا كف عن التظاهر. أنت مثل ليسا تماما. ما دام بإمكاني التعامل مع الأمر، لذا يمكنك أنت أيضا. ولا يعني ذلك أني سأرحل بصورة هادئة تماما».

يسأل لاسلو بحذر: «ما الذي تعنينه؟».

«لا شيء. كلها أمور تدور في العقل. لا أنوي مهاجمة الأطباء الرائعين الطيبين». تغمض عينيها ويسود الصمت. ينهض لاسلو ويتجول في الغرفة.

يتفحص الزهور المرتبة على الطاولة، بنت القنصل القرمزية وزهور الأقحوان المشعثة، والورود الحمراء ذات السيقان الطويلة بصورة غير طبيعية الخالية من الأشواك: «إنها ورود جميلة».

«جاسبر».

يدير لاسلو ظهره للورود بامتعاض.

«كان هنا إذا».

«أجل، لقد كان هنا».

يلقي لاسلو بنفسه في المقعد مرة أخرى: «لم أفهم اختيارك لجاسبر أبدا. حينما كان بإمكانك أن تنالي.. أي رجل». يرفع عينيه للسقف ويفرد كفيه، ويخلع الطبقة الإنجليزية التي يكتسي بها من الخارج.

«لقد قلت ذلك من قبل».

يضيف على عجل: «أي شخص. أنت التي كنت جميلة للغاية.. وما زلت».

تقول كلوديا: «وأنا لا أحب هنري كثيرا. هذه طبيعة الحياة، أليس كذلك؟ على أي حال، كان جاسبر في الماضي البعيد».

«كم رجلا طلب منك أن تتزوجيه؟».

«ليس كثيرا. كانت غريزة الحفاظ على الذات لدى معظمهم قوية للغاية».

تجهم لاسلو: «دائما ما تظهرين نفسك وكأنك.. مخيفة للغاية. برأيي، لست مخيفة. أنت رائعة تماما».

تقول كلوديا: «شكرا». كانت قد أغلقت عينيها ثانية. يجلس لاسلو وهو يتأملها، صورتها الجانبية ذات الأنف الحاد، نصف شفافة تقريبا في هذه اللحظة في ضوء شمس ما بعد الظهيرة التي تتدفق من خلال النافذة التي تتوهج فيها الأزهار بألوانها الزاهية من أحمر وبرتقالي. تلتفت تجاهه فجأة:

«هناك شيء واحد أريده، إن كنت ستأتي ثانية».

«بالطبع».

تقول بحرص: «في الشقة، في الدرج العلوي من مكتبي. هناك ظرف بني مربوط بخيط، موجه إليَّ وسميك للغاية. مجرد شيء أود أن أطالعه ثانية، لو كان بإمكانك أن تحضره معك».

لا يمكنني أن أقول بالتحديد إن لاسلو كان مصدرا للراحة لي في أواخر حياتي؛ لقد كان مسؤولية أتحملها ومصدرا للاهتمام بالتناوب. ونحن أيضا مغرمان ببعضنا. لقد دعمتُه ماليّا، وأنقذتُه من المصاعب وواسيته؛ ومنحني هو المحبة والمتعة. لقد وجدت طباعه التي تجعل معظم الناس ينفرون منه مثيرة للاهتمام أكثر منها للقلق. سلوك لاسلو المبالغ فيه الذي كان يثير شك ليسا وسيلفيا وحيرتهما، كان بالنسبة لي متنفسا وإشارة خفية تهل من عوالم أخرى غريبة؛ كان يوحي لي بمجتمعات أوروبا الشرقية الفوضوية غير المقيدة، لغات لا أتحدثها، ومدن لا أعرفها، وقديسون وطغاة وغابات ومصاصو دماء، وماضٍ تغلب عليه الأساطير أكثر من التاريخ، وكان هذا أفضل بالنسبة لها. حينما كان لاسلو في عشرينياته الصاخبة، كنت أسترخي وأستمتع بلعب دور المشاهدة الممتنة وهو يتشدّق جيئة وذهابا في غرفة الجلوس في شقة فولهام، نادبا آخر علاقاته العاطفية أو شجاراته أو الخيانات التي تعرض لها، أو صراعاته الإبداعية وسفسطة النقاد وأصحاب المعارض الفنية. كان دوما في حالة من النشوة أو اليأس؛ كان يصل دائما ومعه زجاجة شراب، أو ليخبرني أنه يفكر في الانتحار. لا يمكنني إلا أن أحترم ردود الفعل تلك؛ تبدو وكأنها التزام ملائم بالحياة.

لكن ليسا كانت تجد شخصيته متطرفة وتسبب الإحراج؛ بالرغم من نسبها هي (وربما بسببه). حينما كانت صغيرة ومضطرة إلى الاختلاط به من وقت لآخر، لأنها كانت لا تزال تحت سلطتي، كانت تعامله بخشونة وبرود بالقدر الذي يمكنها من الإفلات من العقاب. بعد زواجها، ابتعدت عنه

بحزم، وكانت تراه فقط في المناسبات العائلية التي لا مفرّ منها، أعياد الميلاد وحفلات الزواج والجنازات. أما لاسلو الذي كان يريد أن يحبها وأن تبادله هذا الحب، فكان يثب تجاهها مثل كلب ودود، ثم ينسحب وهو مرتبك ومجروح؛ لم يكن يتعلم الدرس أبدا.

تقول ليسا: «كل عام وأنت بخير». تضع الرزمة على الطاولة وتلامس وجنة كلوديا، للحظة، بوجنتها، وهي تنسحب في اللحظة نفسها التي تلامسها فيها.

تفتح كلوديا الرزمة: «هذا هو ما كنت أحتاجه تماما. شكرا».

«أتمنى أن يكون اللون مناسبا».

«اللون ممتاز. فالأسود يتماشى مع كل شيء، على أي حال». تتأمل كلتاهما حقيبة اليد العملية والوقورة.

تجلس ليسا: «كنت أظن أن لاسلو سيأتي».

«إنه قادم بالفعل. سيصل في أي لحظة. لقد حجزت طاولة في المطعم اليوناني».

تتأمل ليسا أرجاء الغرفة المألوفة إلى أبعد الحدود، والتي لم تشعر فيها بالألفة أبدا. كانت غرفة كلوديا، مليئة بأشياء كلوديا، مثقلة بحضور كلوديا؛ حينما كانت طفلة، كانت تشعر وكأنها ستختنق فيها.

«ما كل تلك الصناديق الضخمة في الردهة؟».

تقول كلوديا: «شراب».

«شراب؟».

هدية لاسلو. سبعون زجاجة. واحدة لكل عام.

تشعر ليسا بالغضب يتصاعد داخلها: «لكنك لن..».

«لن أنتهي منها أبدا؟ لا أظن أنني سأفعل».

احمرَّ وجه ليسا: «هذا هو سلوك لاسلو المعتاد».

«إلى حد بعيد. لكن يجب عليك الاعتراف بأنه أنيق. إنه شراب جيد للغاية أيضا. ربما عليك أن تأخذي معك زجاجة لهاري».

«لديه طلب يصله بانتظام من الحانة».

تقول كلوديا: «آه! إذا، الأفضل ألا أتدخل».

يرن جرس الباب. تجلس ليسا وهي تستمع بتوتر لأصوات مقدم لاسلو، ترحيبه بكلوديا وضحكهما. يدخل ويصيح: «ليسا، عزيزتي، مرّ وقت طويل منذ أن رأيتك آخر مرة، وتبدين.. تبدين أنيقة للغاية في هذا الفستان الجميل». يتقدم منها كي يحتضنها، لكنها كانت قد انسحبت وراء حاجز المنضدة الطويلة المنخفضة، فاضطر إلى إرسال قبلة في الهواء عبرها. تقول ليسا: «أوه! مرحبا لاسلو. كيف حالك؟».

«أنا بخير. لكن دعيك مني اليوم، نحن هنا من أجل عيد الميلاد، الاحتفال بسبعين عاما من أعوام كلوديا! أليست رائعة!». يلوِّح بذراعيه تجاه كلوديا، مثل منظم حفلات لديه اكتشاف جديد.

تقول ليسا مُطرِقة: «أجل».

يقول لاسلو: «نحن، إذا، أعضاء هذا الحفل اللطيف الدافئ. ثلاثتنا فقط. ممتاز. وهذا المقال الرائع في صحيفة الأحد، أحضره لي هنري، هل رأيتِه، ليسا؟ كتبت أمك بصورة رائعة عن الحرب وعن مصر، عن كل هذه الأشياء التي تتحدثين عنها باقتضاب يا كلوديا. نادرا ما تتحدثين عن ذلك الزمن. والآن تتحفيننا بهذا المقال، وهذه الصورة. كلوديا الشابة والجميلة تجلس على شاحنة في الرمال. إنها رائعة!».

نظرت ليسا، التي سبق أن قرأت المقال باهتمام أيضا، إلى والدتها: «لم أر تلك الصورة من قبل».

تقول كلوديا: «وجدتها في مؤخرة أحد الأدراج، وفكرت أنهم يمكنهم الاستعانة بها».

طوى لاسلو صفحة الصحيفة المجعدة بعناية: «كنت فخورا للغاية، لقد أريتها للجميع. مضى وقت طويل منذ أن كتبتِ مقالا كهذا».

تسأل ليسا: «لماذا كتبتِه؟».

تقول كلوديا: «أوه! كان أحد المحررين يزعجني، وشعرت بالرغبة في ذلك. يبدو كل أبناء جيلي وكأنهم منشغلون بالاستفادة من ماضيهم، فلماذا لا أفعل أنا؟».

يقول لاسلو بمرح: «لذا، ستحكين لنا المزيد أثناء العشاء. كل الأشياء المثيرة للاهتمام التي لم تكتبيها للصحيفة. كل الضباط الذين كانوا يطاردونك، وكل خلانك. عِدِي بذلك!».

تتنحنح ليسا: «ألا يجب علينا الذهاب للمطعم؟». تنهض وتجمع أشياءها: «هل تلقيت هدايا لطيفة أخرى، أمي؟».

أمي. هكذا، حققت ليسا نصرا صغيرا في منتصف العمر. شعرت كلوديا بوخز الغضب، لكنها تبدو مستمتعة بالرغم من ذلك. كانت ليسا مصممة على أن تنزلها منزلة الأرملة العجوز. حسنا، لو كان ذلك يسعدها..

لكن لا، تقول لنفسها وهم يسيرون نحو المطعم، لن أخبركم عن هديتي الأخرى، هديتي التي لم أكن لأحلم بها، لا الآن ولا في أي وقت، لن أخبركم أنتم ولا أي شخص آخر. «لطيفة» ليست هي الكلمة المناسبة بالتأكيد، لكنني لا أعرف ماذا قد تكون الكلمة المناسبة، لأنني لم أزل متأثرة بها للغاية، لا يمكنني التفكير فيها بصورة منطقية، ولم أزل مضطربة.

تتحدث بصوت مرتفع عن أمور أخرى، حتى تتخلص من مشاكسات لاسلو، وكي تمنع أسئلته. تنشغل بالنُدُل وقوائم الطعام، ومن سيتناول ماذا، وما الذي يمكنهم طلبه. تقول لنفسها: لو كنت سأنزل منزلة الأم، فيجدر بي، إذا، أن أؤدي الدور بصورة صحيحة. وفي مكان ما، وراء كل ذلك أو في داخلها، تنظر كلوديا أخرى إلى الموقف وهي تشعر بالمتعة والندم والارتياب. هل

هذا حقيقي؟ هذه السيدة العجوز الحادة المتسلطة؛ تينِك اليدان المبقعتان المعروقتان اللتان تفتحان المنديل؛ وهؤلاء الرفاق، من هؤلاء؟

لوهلة، كانت شخصا آخر، ثم عادت لترى لاسلو وهو ينظر إليها عبر المائدة، يسألها شيئا ما.

يسألها: «إذا، من ذا الذي التقط الصورة؟ أي واحد مِن الضباط الوسيمين التقطها؟ من ذا الذي تبتسمين له بصورة جميلة هكذا؟».

كانت تبتسم الآن، وكانت لها نظرة الفتاة التي في الصورة، الآن، في ضوء المطعم الخافت الدافئ، لكن بينما هو يتحدث تنطفئ الابتسامة وتصبح كلوديا أخرى. أوه، كلوديا التي يعرفها جيدا، كلوديا اللاذعة التي تعامِله بغير اهتمام، وتقول: «نسيت»، وتستدير ناحية ليسا، وتسألها عن الأحفاد، الأحفاد البشعين الذين هم الآن في المدرسة لحسن الحظ ولم يتمكنوا من الحضور إلى هنا، وهاري الممل الذي لم يتمكن من الحضور هو الآخر أيضا لأن كلوديا غالبا لم توجه إليه دعوة. لذا لا يوجد سوى ليسا المسكينة الشاحبة بثوبها التقليدي المحتشم، متوترة كما هي دوما مع أمها. يقول لاسلو لنفسه: كان أفضل أن نكون وحدنا أنا وكلوديا، لكن لا بأس. ليسا ابنتها على أي حال، لكن لا أحد يعرف كيف، ولا يمكنك أن تتخيل ذلك أبدا، فهي مترددة وهادئة للغاية، وكأنها مجرد ظل بجوار كلوديا، لكن هذه بالطبع كانت هي المشكلة. ويتذكر بلطف وتسامح، ليسا العنيدة التي يصعب إرضاؤها ابنة الخمسة عشر عاما، وليزا الأم المشتتة بأطفالها الصارخين. يفكر بحكمة: لا يمكن تخيُّل كلوديا ومعها طفلة تصرخ، وربما كانت هذه أيضا هي المشكلة. ليسا ربَّتها جدتاها بالطبع، وربما كانت هذه مشكلة أخرى.

يقول لنفسه: كنت أحب كلوديا بعض الشيء. بدت كلوديا على الدوام أكثر إشراقا وأذكى وأكثر حفاوة وإمتاعا من الآخرين، كان يمكنني أن أتحدث دوما مع كلوديا عن أي شيء، ودوما ما يفقد المرء بعض إحساسه بالإثارة

بعد أن يفارق كلوديا. هنري لا يحب كلوديا، فهو يغار منها ويخافها أيضا، الكثيرون يخافون كلوديا. لكن ليس أنا. أنا لست ذكيًا مثل كلوديا، لكنها لم تسكتني وتفحمني أبدا مثلما تسكت بعض الناس أحيانا. كانت تنصت لي دائما، حتى لو كانت تضحك عليَّ أيضا. لقد تخاصمنا، لكننا كنا نتصالح دوما من فورنا.

كانت ليسا تتحدث عن جاسبر ببرود؛ اصطحبت أبناءها لزيارته، ومنحهم مالا لشراء دراجات. جاسبر الثري والكريم. عند التفكير في جاسبر، يتجمد لاسلو من النفور؛ ما كان ينبغي لكلوديا أبدا أن تتورط مع رجل مثل جاسبر، فهو رجل أجوف ومقاول لا يستحق أن تضيع وقتها معه. ربما كان يصلح لإقامة علاقة غرامية قصيرة، لكن ليس لفترة طويلة، علاقة متقطعة تستمر سنوات وسنوات. لماذا يرتكب الناس مثل هذه الأخطاء؟ ذوق كلوديا سيئ فيما يتعلق بالرجال، وهو أمر غريب من امرأة بذكائها وجمالها! يتذكر لاسلو في صمت بعض الرجال المختلفين، ولا بد أن وجهه يفضح استياءه حتى إن كلوديا تسأله عن سبب تجهمه إلى هذا الحد. يقول: «لست متجهما. لست متجهما أبدا. لقد كنت أفكر في بعض الأشخاص وحسب».

فيما عدا الشقيق الذي كانت وثيقة الصلة به كثيرا. يفكر لاسلو في غوردون، وتتغير تعابير وجهه مرة أخرى. يحدث لاسلو نفسه: ثمّة شيء غريب في أمر كلوديا وغوردون، شيء لا يشبه علاقة الأخت والأخ، كانا يبدوان منعزلين حينما يجتمعان، وكانا يشعرانك بأنك لست موجودا. كنتُ أخشى غوردون قليلا. صدقا، كنت أشعر ببعض الخوف دوما؛ كان عليَّ أن أحاول إرضاءه، وأن أتوخّى الحذر.

تقول كلوديا: «والآن يعلو وجهك تعبير حزين. كنت أظن أننا نحتفل بسنواتي السبعين التي أضعتها. فلتراعِ مشاعري من فضلك!».

الفصل السادس عشر

تقول الممرضة: «أحدهم أحضر هذا المغلف. كنتِ نائمة، فطلب أن أخبرك بأن لاسلو تركه لك».

ولما ذهبت، حلَّت كلوديا الخيط، وفتحت المغلف، وأخرجت كراسة قديمة ملطخة، وأطراف صفحاتها مثنية. كانت حركاتها بطيئة، وتستخدم يديها بارتباك ظاهر. حملقت فيها لحظة، ثم مدت يدها نحو الطاولة المجاورة للسرير لتجلب نظارتها الطبية، الأمر الذي استغرق المزيد من الوقت والجهد. وضعت النظارة وفتحت الكراسة.

قالت بعد أن تعرفت على الكتابة اليدوية في الورقة: «عندما رأيتها لأول مرة أحسست وكأن صدمة أصابتني. شعرت بالخدر ثم بالحرارة ثم بالبرودة. وضعتها جانبا، وقرأت الرسالة، رسالة شقيقته، كانت رسالة موجزة وفي صميم الموضوع. تقول الرسالة: عزيزتي الآنسة هامبتون، بعد أن قرأت مقالك الخاص حول عملك مراسلة حربية في الصحراء الغربية أدركت أنك لا بد أن تكوني أنت الآنسة ك، التي أشار إليها أخي توم سوذرن في مذكراته. لقد تحدث عنك في خطاباته لنا، لكنه لم يذكر اسمك أبدا. أعتقد أن من حقك أن تحصلي على المذكرات، وها هي. المخلصة، جينيفر سوذرن».

بعدها قرأتُ المذكرات، كما أفعل ثانية الآن.

كانت كراسة خضراء فاتحة، وقد كُتبت على غلافها الأمامي كلمة كراسة بالفرنسية بحروف سوداء. كان الورق مسطرا وخشنا ومحبَّبا. وقد كتبها بالقلم الرصاص. لم تكن التدوينات المسجلة فيها مؤرخة، وكان يفصل بين الفقرة والأخرى خط مموج.

لقد كتبتُ هذا في مكان غير معلوم بالتحديد، في يوم من أيام عام 1942. باقٍ من الزمن ساعة حتى نتحرك؛ لذا فهناك وقت لالتقاط الأنفاس وشرب الشاي. يطلق الفنيون الشتائم بسبب الدبابات الجديدة. تسلّمنا اثنتين الليلة الماضية. كانت منحا، لم نكن قد تسلمناها، ونصف معداتها مفقودة، وما زالت مدافعها غارقة في الزيت. ومع ذلك، ليست هذه مشكلتي أنا، لقد عادت كتيبتنا بالأمس سالمة. لا يمكنني أن أكتب أحداث الأمس كما وقعت، ماذا فعلنا، ومن قابلنا، ومن فعل ماذا لمن. لذا دعني أحاول أن أكتب لك كيف كان شعوري. ربما يكون السبب في ذلك بالنسبة لـ «ك»، هو ما حاولت أن أقوله لها في أول لقاء لنا، وفشلت فيه على ما أعتقد.

كانت الظلمة تسود وقت التحرك من المعسكر قبل الفجر. وكانت هناك عاصفة رملية ضخمة أيضا. كانت الظلمة ملأى بالأصوات والروائح، فيما كانت بقية آليات الكتيبة تصدر هديرا يصمّ الآذان، ويختلط مع الصفير والطقطقة اللذين لا ينتهيان في سماعة الرأس، ورائحة الوقود الكريهة. ثم يتحول الضوء الرمادي إلى وردي وبرتقالي. وتعيشين لحظة من ارتفاع المعنويات عندما ترين كل الآخرين، الهياكل الطويلة لدبابات كروسيدر وهي تصعد التلال، وتسير بسرعة خمسة عشر ميلا أو عشرين ميلا في الساعة، والإحساس بالمكان كله وهو يتحرك، ويوحي بأن عددنا أكبر مما هو بالفعل. يتم آخر استدعاء من قائد الوحدة، ثم تسود ساعات من الصمت اللاسلكي أثناء التقدم. ساعات؟ أم دقائق؟ لا يعود الزمن زمنا بأي مدلول دقيق للكلمة. يتحول الزمن إلى عقارب الساعة، وصوت قائد الوحدة وهو يقول: «قدم لي تقريرا عن الوضع بعد خمس دقائق.. سنتحرك في الخامسة صباحا.. أطلقوا النار بعد ثلاث دقائق». لا تتذكرين أكثر من نصف ساعة مضت. ولا تتوقعين ما هو آتٍ سوى من إحساس معدتك.

دائما ما يكون الخوف أسوأ قبل المعركة لا أثناءها. هو الخوف من الخوف نفسه. الخوف من أن يشل حركتك حين يأتي فلا تستطيعين فعل ما يجب عليك فعله، أو من أن تفعلي شيئا بالغ الحمق. أما أثناء القتال، فيصير الخوف شيئا آخر. يزيد من حماسك. رأيت يديَّ ترتعشان بالأمس، نظرت إليهما مرة ورأيتهما وكأنهما لشخص آخر، تهتزان على حافة برج الدبابة، لكن عقلي كان صافيا تماما، وكان صوتي يخرج بصورة طبيعية تقريبا، كنت أقول للسائق أن يفعل هذا، وأقول للمشغِّل أن يفعل ذاك، وأبلغ عن موقعنا، وعن الدبابات التي نشاهدها على مسافة سبعة آلاف ياردة، أسجل وأقيِّم وأتوقع كل هذا وكأن شخصا آخر قد سيطر على الوضع. وحدهما يداي تفضحاني. ضربتهما على غطاء المحرك حتى أستعيد السيطرة عليهما، وضعتهما على السطح المعدني الساخن حتى كادتا تحترقان، الأمر الذي أثار جنوني بقية اليوم.

حان وقت المغيب الآن. لذا نعسكر هنا، وندعو الرب أن نحصل على قسط من النوم، فلم نتمكن من النوم على الإطلاق ليلة أمس. كان الجميع يقومون بالإصلاحات طوال الوقت، ضجيج وكأنه خط تجميع، وانفجارات كل بضع دقائق من مستودع ذخيرة العدو في الوادي المجاور. تمددتُ وأنا أتأمل النجوم وأفكر. لا، لا أفكر. فأنت لا تفكرين، ولكن تستعيدين بعض الصور وتتأملينها. تستعيدين أوقاتا أخرى وأماكن أخرى وأشخاصا آخرين.. ك، دائما ك.

بعدها بأسبوع، على ما أعتقد. لم تتوفر خلال الأسبوع ولو لحظة لكتابة هذا. كنت إما في نوم عميق من شدة التعب في خضم القتال، أو مرهقا لدرجة تمنعني من القيام بأي شيء سوى أن أتكوّم على نفسي حتى يحين موعد التحرك القادم. حتى لو كان الأمر ملائما فلا يمكنني الآن أن أقول ما الذي حدث قبل ماذا، وأين كنا، ومتى، وكيف حدث

هذا أو ذاك، فالأمر في العقل ليس سلسلة من الأحداث، ولكنه مجرد حدث واحد بلا بداية ولا نهاية بالمعنى الدقيق للكلمة. مجرد استمرارية تتصاعد فيها لحظات من الشدّة التي لا يزال رنينها يتردد في الرأس. أنظر فأرى أن ملقِّم المدفع قد أصيب، والدماء تسيل من عنقه، لكن لا يبدو عليه أنه لاحظ ذلك، فهو لا يزال يلقم المدفع ويصيح بشيء ما، ووجب عليَّ أن أمد يدي لألمسه وأجذب انتباهه. كان الغبار كثيفا للغاية في برج الدبابة لدرجة أنه لم يكن بوسعنا رؤية وجوه بعضنا، ولم يكن بوسعي رؤية الخريطة إلا لو أمسكتها على مسافة بضع بوصات من أنفي. يراودني إحساس فظيع وثقيل في المعدة حينما تحترق إحدى دبابات كتيبتي؛ ذلك الاندفاع الشنيع من اللون البرتقالي ثم الدخان الأسود الكثيف، ونراقب لنرى إن كان أحد سيقفز خارجا، فلا يخرج أحد، لا أحد. ويراودني إحساس فظيع مختلف حينما تعود ما ظننتها دبابة مهجورة للعدو إلى الحياة وتبدأ في إطلاق النيران. يشتعل الحماس حينما يَبْلغنا أن العدو ينسحب، وأننا سنطارده، أجلس أعلى البرج وأنا أنظر من خلال منظار الميدان، بينما بعينين نصف مقفلتين وأبحث عن الغبار الكاشف في الأفق، ولا أشعر بشيء سوى برغبة بدائية في المطاردة، لا أشعر بالخوف، وقد زال ذلك الشعور الطاحن بالإرهاق، وحدها تلك الغريزة تشبه قطيعا من الكلاب.

ندفن طاقم دبابة كروسيدر من كتيبة أخرى. كانوا قد تخلفوا بسبب مشكلات في المحرك خلال هجوم، ثم وجدنا الدبابة لاحقا وقد أصيبت واحترقت تماما، ومات الجميع. كان السائق والقائد لا يزالان بالداخل، وكانت هناك فوضى دموية تعج بالذباب. أخرجناهما بأفضل ما في استطاعتنا، وهم أشلاء، وكان المدفعي والمشغِّل ممددين على مقربة في الرمال، وقد أُطلِقت النار عليهما لما حاولا الخروج للهرب، ولم يكونا مصابَين بخدش تقريبا، كانا فقط متصلبَيْن على الرمال في صمت الأموات

المطلق ذاك الذي لا يمكن اختراقه.

تظل أصداء أصوات القتال تتردد في الرأس فترة طويلة بعد انتهائها، أصوات يستجيب لها المرء مثل إنسان آلي، لا يتعرف عليها، لكنه يندفع معها، يسبق بخطوة، يرى بعين العقل المَدافع الميدانية والبنادق، يفسر انفجارا من الطلقات عالية السرعة، ويقدر المدى والمسافة. وتتردد الأصوات دوما في أذن المرء، الصوت المجرد لحركة الكتيبة ذهابا وإيابا وكأننا نرتحل وسط الرمال كأرواح معذبة، ينادي بعضنا بعضا بلغة خاصة مجنونة، «ألو، فيش واحد، روفر ينادي.. حسنا، نحن قادمون إليكم.. كل المحطات فيش.. تقدموا في اتجاه عشر درجات.. تحركوا الآن.. هل يمكنكم التأكيد؟..». وأحيانا تتغير النبرة، يصير الإيقاع محموما، تصطرخ الأصوات وتتصايح في صندوق عقل المرء الضيق: «فيش ثلاثة أين أنت بالله عليك؟!.. كيف تجرؤ على ترك اللاسلكي وأنا أتحدث؟!.. فيش ثلاثة! أين أنت؟.. ألو، روفر، لقد أصبت، أكرر، لقد أصبت وأنا أنسحب». بدا الأمر وكأن المرء يوجد على أكثر من مستوى: مستوى النظر، امتداد الصحراء المربك والمخادع، يتصاعد منه الدخان ويشتعل، وتتطاير منه أنوار الكشافات ومسدسات الاستغاثة، والمركبات تزحف هنا وهناك كالنمل، والأصوات، التي تأتي من كل مكان، من الأعلى ومن المحيط، من بعيد ومن الداخل، أزيز الطائرات والانفجارات والقعقعة والصرير والأصوات التي لا يبدو وكأنها تأتي مما يراه المرء، بل تبدو وكأنها أصوات مجردة، تعليق على الأحداث، أو جوقة من الأشباح.

رأيت غزالا للتو. عادة ما نطلق النار على الغزلان كلما سنحت لنا فرصة. فهي تشكل تغييرا طيبا من لحم البقر واللحم الآخر المعلب، لكنني لم أقو على ذلك هذه المرة. لم يرني، وظل واقفا هناك يهز ذيله، وأذناه منتصبتان. كان رملي اللون، لكنه بدا زاهيا بطريقة ما وسط الصخور والشجيرات،

وسط سكون المكان. صفائح الوقود الصدئة والأسلاك الشائكة وشاحنة محترقة على مسافة قريبة، وفي وسط كل ذلك هذا الجزء الصغير من الحياة. ثم اشتمّ رائحتي وانطلق يعدو.

أخلد إلى النوم بعد الاشتباك في القتال. ينزلق المرء إما في حفرة سوداء من العدم، أو أسفل حافة الوعي، يحلم أحلاما وحشية مجنونة، أحلاما سريالية تدور فيها أشياء مجنونة لا تشككين فيها أبدا. أجدها انعكاسا ملائما لما نحن منشغلون به، حينما أفكر في الأمر، عالم غير معقول من الرمال والانفجارات يصير هو العالم الوحيد الذي تعرفينه، ولذلك يصبح عاديًا ومملا وطبيعيًا.

اللحظات التي تظهر فجأة، حين يتوقف المرء، والصور التي تبقى في العقل.. المدفعي الذي يعمل معي وهو يقرفص وسط الرمال أمام وجبة من الطعام المقلي في فترة الاستراحة بين المعارك، منكبًا عليه، مستغرقا فيه، والأفق مليء بالانفجارات حولنا، والدخان يتصاعد، «هاك، سيدي، جرب بعضا من هذا». كان شابًا ضئيلا ونحيلا وقويًا، له لكنة من منطقة وسط إنجلترا، وكان يعمل بالبناء قبل الحرب. أحملق من وسط السراب الناتج عن الحرارة، عاجزا عن تمييز صف من المركبات على أحد التلال، ما هي؟ دبابات أم شاحنات؟ عدو أم لا؟ تبقى معلّقة وترتعش بعيدا عن متناولنا، وأنا محني داخل برج الدبابة أقبض على المنظار الميداني بانتباه لدرجة أنه يترك علامة بيدي. إيطاليون يهرولون خارج أحد مواقع الاستحكام للمدافع، بينما يقوم بجمعهم جندي مشاة أسترالي وقد التصقت بشفته سيجارة، وهو يصيح بهم من وقت لآخر. فجأة تبدو البزة النظامية للإيطاليين ذات اللون الأخضر المائل للزرقة غريبة وغير مألوفة ودخيلة على اللون الكاكي. والآن أراهم مرة أخرى وأفكر في الطريقة الملائمة البسيطة التي

تتحكم بها الحرب في التفكير في «نحن» و«هم»، ما هو ملكنا وما هو ملكهم، وفي الخير والشر، والأسود والأبيض، فلا تخلط بين المناطق المزعجة وغير المحددة.

باستثناء الصحراء، بالطبع، التي كانت محايدة. ليست في صفنا ولا في صفهم، لكنها كانت وحدها وحسب. تمضي لشأنها في كل الظروف من حرارة وبرودة، وشمس ورياح، ودورة الأيام والشهور والسنين إلى أبد الدهر. على عكسنا.

هناك المزيد من اللحظات. الكاهن يُعِد المذبح لإقامة صلاة الأحد في خلفية شاحنة تزن عشرة أطنان، وقد أنزل الباب الخلفي، والرجال يقفون حوله في نصف دائرة، يُصدِرون همهمات على سبيل الاعتذار بصلوات وأناشيد وبأصوات غير متزامنة، وصفّ من العربات المصفحة تتحرك وتمر في الخلف. ويقال بالطبع إن الرب في صفّنا نحن.

أنظر للأسفل داخل حفرة السلاح، إلى ما يبدو كومة ملابس ممزقة في القاع، وما هي بملابس، بل جثة تتضح فجأة أطرافها الملتوية، والرأس الملقى للوراء بعينين مفتوحتين يكسوهما التراب، ومرة أخرى، صمت الموتى البعيد ذاك، وكأنه ترفُّع منهم، وكأنهم يعرفون ما لا تعرفينه أنت. أسير نحو بعض الصخور لقضاء الحاجة، فأجد نفسي وجها لوجه مع ثعبان صغير، ملتفّ حول نفسه وساكن كالحجر، لا يتحرك سوى لسانه، وعيناه سوداوان صغيرتان لامعتان، وعلى ظهره علامات زاهية مموجة بطول ظهره. هذان المشهدان، ربما كان يفصل بينهما بضعة أيام، لكنهما يجتمعان الآن ويتكاملان ليقولا شيئا ما عن قوة الحياة وعبثها، وكيف يكون الموت غيابا تامّا.

كان هناك هجوم جوي على مدافع العدو المضادة للدبابات المتمركزة في عنق وادٍ ضحل، وهي التي منعت مرورنا ساعات، وصوت قائد الوحدة

في سماعة الأذن يقول: «الأصدقاء في الأعلى، نحمد الرب، أخيرا»، ثم تسقط القنابل مثلما يحدث في لعبة القناني الخشبية البيضاء. وقبل ذلك، أو بعده، لا أدري، مرّ علي وقت رهيب حينما اتضح أن ما ظننته أحجارا ليس سوى صف من دبابات مارك 3، وقد اختفت هياكلها فلا يظهر سوى أبراجها على مسافة مئتي ياردة، وليس أمامي سوى ثوانٍ كي أقرر هل أتراجع بسرعة وأنسحب أم أحدد المدى وأشتبك معهم. هل رأوني بعد؟ هل يمكنني أن أصدَّهم فترة كافية حتى أطلب الدعم؟ وما لبثوا هم أن حلوا لي المشكلة بأن أطلقوا النار. تعبر القذائف الأولى بجوارنا، حمدا لله، وأبلغ القيادة بموقعي، أصرخ في الرامي الذي كان معي بأن يطلق النيران، كل ذلك على ما يبدو في اللحظة نفسها وأنا أتلعثم من الجهد الذي أبذله حتى لا يظهر على صوتي الهلع.

ترتفع الصحراء من حولي بينما يصطدم أحدهم بلغم أرضي على مسافة اثنتي عشرة ياردة للأمام. لقد قتل. أفقد السمع مدة نصف ساعة، وأُصاب بجرح سطحي صغير في إحدى ساقي. لكل واحد منا حكايته عن نجاته بمعجزة، أعتقد أن تلك هي حكايتي.

في الليالي تبدو الظلمة الشديدة المضاءة مليئة بأصوات الطائرات والمدافع المضادة للطائرات، وبأصوات مكتومة وانفجارات من أماكن خارج نطاق الرؤية. ثمّة وميض برتقالي، وتصاعد للقذائف الفضية، وأفران ضخمة متوهجة، أشبه بأوبرا «غسق الآلهة»[65]، تتصدرها النجوم من علُ، اللمعان البارد نفسه ليلة بعد ليلة، الجبار - الشعرى اليمانية - الدب الأكبر والدب الأصغر. وهناك فترات هدنة نعسكر خلالها (غريب هو ذلك التعبير الذي يذكِّر بحروب أخرى وطبيعة أخرى)، مركبات غير

(65) أوبرا «غسق الآلهة»، هي الأخيرة في سلسلة أوبرالية من أربع ليال بعنوان «حلقة النيبلونغ» للموسيقي والكاتب المسرحي الألماني ريتشارد فاغنر (1813 - 1883).

مصفحة وسط حلقة من المركبات المصفحة للحماية، نلتقط أنفاسنا، نقدِّر الموقف، نتلقى أوامرنا للغد، ومن وقت لآخر، ننام.

بعدها بأسبوعين، لم نفعل شيئا على مدى أيام. تحول بنا الحال من الاضطراب إلى الملل واللا مبالاة، والحال المتقلب لهذه الحملة. تسري شائعات بأننا سنتقدم أو ننسحب، أو نُمنح إجازة، أو نبقى هنا شهورا. لذا بقينا منتشرين فيما يشبه مدينة مبعثرة من المركبات والخيام والخنادق. تنشأ مدن عشوائية من أكواخ صفائح الوقود. يخطط الناس ملعبا للكريكيت. نحضر المؤن، ونصلح الأدوات والمعدات وننشط أنفسنا. نتبادل المجلات الممزقة. ونكتب الرسائل. وأنا أكتب هذه الرسالة.

إلى من يهمه الأمر. إلى ك. على ما أتمنى. أو ربما لنفسي في مستقبل ما يبدو في الوقت الحالي مستبعدا جدا بصراحة. نتحدث جميعا عن فترة «ما بعد الحرب»، ولكن الأمر يبدو تقريبا وكأنه تعويذة، أو حيلة دفاعية لتفادي الحظ السيئ. يفكر المرء في الأمر، ويحلم أحلام يقظة، ويضع الخطط، شيء ما يشبه أحلام اليقظة في الطفولة: حينما أكبر. وهكذا أحدث نفسي: حينما أكبر في هذا العالم الخيالي الذي لا يوجد فيه مزيد من الدبابات والمدافع والألغام والقنابل، والذي تصبح فيه الرمال مجرد مادة خام على الشواطئ وتصبح الشمس شيئا يحظى بتقدير المرء. حينما يطلَق سراحي في هذا الملعب سوف.. ماذا سأفعل؟ حينئذ تتغلب الأساطير لأن ما يصوره المرء هو مكان خالٍ من العيوب، مكان مثالي فيه حشائش خضراء وأطفال سعداء، وتسامح وعدل لم ولن يوجدا أبدا. لذا يزيح المرء تلك الفكرة بعيدا، ويستدعي أفكارا أكثر فائدة مثل الوجبات الساخنة والفراش النظيف والشراب والجنس. كل تلك الأشياء التي كان المرء يَعُدها مسلَّمات منذ ثلاث سنوات فقط، وصارت لها الآن أهمية تكاد تكون مقدسة، تبدو في بعض الأحيان وكأنها هي ما نحارب من أجله.

قالت ك في الأقصر: «قصّ عليَّ حكاية». لم أخبرها أبدا تلك الحكاية الأخرى، التي تلعب هي فيها دورا، وتقوم فيها بدور البطولة دوما، قصة رومانسية مليئة بالصور النمطية، أخبرها فيها بكل الأشياء التي لم يسعفني الوقت لأن أقولها، ونقوم فيها بكل الأشياء التي لم يسعفنا الوقت للقيام بها، وتنتهي فيها هذه الحرب اللعينة، ونعيش فيها معا في سعادة أبدية، في عالم لا نهاية له، آمين. وصلت بي الحال إلى الغرق في مثل هذه الأحلام. حسنا، ربما أخبرها بهذا الآن، وإذا كنت أخبرها بالفعل، فأتمنى أن تكون متسامحة ومتفهمة. أتمنى أن تفهم الغلوّ الذي يندفع إليه المرء تحت تأثير الحرب، وتعليق أي نوع من أنواع العناد في الرأي عدا ذلك الجانب الذي نحتاج إليه للقيام بما يجب القيام به، وإبلاغ الآخرين بما عليهم أن يفعلوه، وتحريك الكثير من المعدات المعدنية الثقيلة ومحاولة قتل الآخرين بها بينما يحاول المرء أن يتفادى أن يُقتَل هو نفسه.

أتمنى، في نهاية الأمر، أن نتأمل كل هذا معا.

والآن أريد أن أسجل أحداث الأمس وأنا ما زلت أتذوق بشاعتها.

أتتنا أوامر بالتحرك قبل الفجر مرة أخرى. كان الهدف دبابات للعدو بأعداد كبيرة تم الإبلاغ عن وجودها على بعد عشرين ميلا إلى الشرق. شعرت بالحماس أثناء تلقي التعليمات في منتصف الليل في مقر قيادة قائد الوحدة، وبالسرور أيضا لأن فرصة إيجابية قد سنحت بعد أيام من القعود. مشيت عائدا إلى دبابتي، وكانت ليلة متألقة بالنجوم، ساكنة للغاية، والرجال يتحركون في الأرجاء وسط الرمال الباهتة، والهياكل السوداء المحنية للمركبات. استلقيت للنوم بضع ساعات، واجتاحني شيء لم أعرفه من قبل، شلّني وعي مفاجئ بالمكان الذي أنا فيه، وبما يحدث، وبأنني قد أموت، كان الإحساس قاسيا جدا حتى إنني تمددت هناك متخشبا، وكأنني في حالة من الصدمة، لكن عقلي كان يصرخ ويعوي.

كان خوفا، أجل خوفا، لكنه كان أيضا شيئا أكبر من ذلك، شيئا متأصلا وبدائيًا؛ إنها غريزة الفرار. حدثت نفسي بأن علي أن أكف عن الحزن والضيق، وأن أستعيد السيطرة على نفسي. حاولت التنفس بعمق، أن أعد حتى مئة، أن أراجع شفرات ذلك اليوم مرة أخرى. لكن على غير طائل. كل ما استطعت التفكيرَ فيه هو أن الشمس أوشكت على الشروق سريعا، وأنني مشلول بلا مهرب، ومرعوب بقدر لم أشعر به من قبل، ولا أعرف لماذا. لذا أجرب أمرا آخر. أقول لنفسي إنني لست هنا في الحقيقة. إنني أمرٌ عَبْر هذا المكان، وهذا الزمن، لأنه يجب علي ذلك، ولا يمكنني تفاديه، لكنني قريبا سأجتازه وأخرج من خلاله إلى جزء آخر من الحكاية. فكرت في الغزال الذي شاهدته، وهو يهز ذيله بلا هموم وسط أكوام المعدن الصدئ، لدرجة أنني حسدته للحظة؛ لكن الغزال ليست له حكاية، وهذا هو الفرق. حتى وأنا مشلول ومرعوب، كانت لدي حكاية، وهذا ما يجعلني إنسانا، ويميزني.

لذا بدأت أعود بالزمن جيئة وذهابا، وأنا راقد هناك متكوِّم داخل كيس النوم فوق الرمال الباردة. عدت بالزمن للوراء، إلى أماكن أخرى، إلى أيام الطفولة، إلى زمن تسلقت فيه جبلا في ويلز، وتذكرت يوم سرت في شوارع نيويورك، تذكرت أيام سعادتي وشقائي. تذكرت نفسي حينما كنت على شاطئ البحر في كورنوال منذ زمن بعيد، أو في فراش في الأقصر مع ك. الشهر الماضي. مضيت بالزمن للأمام نحو المجهول، لكنه مجهول تنيره الأحلام التي هي كلمة أخرى للأمل. أجبر نفسي على أن أحلم، أدفع الليل والصحراء والأشكال السوداء التي تحيط بي بعيدا، أدفع لما وراء الصباح والغد والأسبوع المقبل، وأصنع الصور والأحلام. أحلم بالحقول الخضراء، بالمدن أحلم بـ ك. وأخيرا يحررني الشعور البدائي الذي أصابني بالشلل من قبضته وأخلد إلى النوم، حتى يهزّني سائقي ويوقظني. الساعة الخامسة صباحا؛ كنت متوترا لكني في كامل عقلي.

ثم تأتي بقية الحكاية. تقدمنا طوال النهار، والدوريات تبلغ عن مواقع الأعداء واتجاهاتهم، ثم فقدنا الاتصال، وأخذنا ندور حول أنفسنا بحثا عنهم، وفي لحظة، بدا وكأنهم قد ذابوا وسط الرمال، أو وكأنهم لم يكونوا موجودين بالأساس، ثم تشوشت سماعة أذني بالتعليمات المنفعلة. لقد شوهدوا ثانية على بعد سبعة آلاف ياردة. أشعر بالارتياح إذ أجدني في كامل عقلي، أعمل بصورة مرضية، هادئا إلى حدٍّ ما. حوَّلت الجهاز لأتبادل الحديث مع الطاقم. كان لدينا رامي مدفعية جديد، اسمه جينينجز. كان قد قدم للتو من الدلتا، وكانت هذه أول مرة يخوض فيها قتالا، وهو ما لم أعرفه سوى في الليلة الماضية. كان فتى قصيرا ممتلئ الجسم من أيلزبري، في مقتبل العشرينيات من العمر على ما أعتقد. لم يسنح لي الكثير من الوقت لأتعرف عليه، لكنه بدا كفؤا بما يكفي. اعتقدت أنه يميل للهدوء، لكننا كنا جميعا منشغلين وسط الاضطراب المعهود لتجهيزات اللحظات الأخيرة عن أن نفعل شيئا بخصوصه. والآن أدركت أن هناك خطبا ما. في البداية لم أستطع الحصول على أي إجابات منه على الإطلاق، ثم لم يقل كلاما له معنى واضح ومنطقي، وانطلق يهمهم بأشياء لم أتمكن من فهمها. قلت: «جينينجز، هل أنت بخير؟». لكن صوت قائد الوحدة كان آتيا على الجهاز الآخر فاضطررت إلى إطفائه وسادت الفوضى لفترة ربع الساعة التالية أو نحو ذلك، أوامر وأوامر مضادة. كتيبتنا تقاتل مجموعة من دبابات مارك 3 الألمانية. أُبلغنا بالتقدم للمساندة، ثم اضطررنا إلى الاستدارة لقتال مجموعة أخرى لم يكونوا قد رأوها. طلبت من جينينجز أن يحدد المدى ويستعد لإطلاق النار، وكل ما تلقيته منه هو صوت نشيج رهيب أشبه بصوت حيوان معذب. أتبع ذلك بكلمات، هي الكلمات نفسها مرارا وتكرارا: «أرجوك أخرجني من هنا، أرجوك أخرجني من هنا، أرجوك أخرجني من هنا». حاولت أن أحدثه بهدوء وثبات، لا أن أصرخ

فيه، قلت له أن يأخذ وقته ويهدأ ويقوم بالأشياء التي كان قد تدرب على القيام بها فقط. لكن بات بوسعي الآن رؤية دبابات العدو وهي تتقدم بسرعة، وانفجرت بعض الطلقات وراءنا بعنف، وبعدها بثوانٍ أصيبت دبابة الرقيب الذي كان يعمل معي واحترقت على الفور. لم يكن بإمكاننا أن نستمر على هذا الحال هدفا سهلا بلا حماية، فانسحبت بالدبابتين الباقيتين إلى موقع بعيد في حفرة في وضعيةٍ تُخفي هيكليهما ولا ينكشف منهما سوى برجيهما، وحاولت مرة أخرى أن أقنع جينينجز بأن يتمالك أعصابه. لكن الوضع كان ميئوسا منه. ظل طوال الوقت يئن وينشج، وقد بدا واضحا أن الفتى المسكين فقد صوابه.

الله وحده يعلم لمَ لم نُصَب. استمرت دبابات مارك 3 بإطلاق النيران. لم يكن هناك ما يسعني فعله إلا أن ألقي جينينجز خارجا، وأتولى أمر المدفع بنفسي. لكن أتى صوت القائد وهو يقول إن هناك مجموعة أخرى من الدبابات قادمة، وإن علينا أن ننسحب في الوقت الحالي حتى يتمكن من طلب الإسناد من أصدقائنا في الشرق. انسحبنا من مدى نيرانهم وطاردَنا الألمان قليلا ثم توقفوا، وأبلغت أن الرامي في دبابتي أصيب، وطلبت الضابط الطبيب، بينما كان قائد الوحدة يقول بغضب: «ما الذي حدث معكم؟! ألم تصابوا؟».

أخرجت جينينجز من الدبابة. ظل باقي الطاقم واقفين في الجوار بارتباك، لا يرغبون في التحدث عن الأمر، بينما يشعلون سجائرهم. جلس جينينجز محنيًا ورأسه بين كفيه. كان قد تقيأ وكان زيه القتالي ملطخا بالقيء الأصفر. حاولت التحدث إليه وقلت له ألا يقلق، وإنه سيكون بخير بعد قليل، أشياء كهذه، لكنني لا أعتقد أنه فهم أي شيء منها. نظر إليَّ مرة وكانت عيناه مثل عيني طفل، لكنه طفل شاهد شيئا مرعبا مجهول الهوية. حدقتاه متسعتان كحفرتين سوداوين في وجه شاحب. لذا توقفتُ عن المحاولة، ووقفنا ونحن

نتململ، وبعد قليل وصلت شاحنة الضابط الطبيب وقفز منها الطبيب وألقى نظرة على جينينجز، وقال: «حسنا يا فتى، هيا بنا». وبمجرد أن أخذ جينينجز ورحلا بدأ بقية الطاقم في إلقاء النكات بصورة مبالغ فيها ومحمومة، مثلما رأيت الرجال يفعلون بعد النجاة بأعجوبة، وشعرت أنا نفسي وكأنني قد تخلصت من مشكلة، من شيء جالب لسوء الطالع، شيء ملوث، لم أرغب في التفكير فيه وفي وجهه وصوته.

فقدت كتيبتنا ثلاث دبابات في ذلك اليوم. كان الطاقم قد هرب من إحداها وانضم المدفعي لطاقمي. كان اليوم التالي جحيما مطلقا، عمليات كرّ وفرّ من الفجر وحتى وقت متأخر لما بعد الظهيرة. بنهاية الأمر كنت أعمل مثل إنسان آلي، لا أشعر بشيء ولا أهتم، لكن حينما عسكرنا أُبلِغنا بحجم خسائر العدو، وبأننا أجبرناهم على التراجع من مواقعهم، فاجتاحنا شعور بالنشوة، وجلسنا نتبادل التهاني وسط موجة مفاجئة من الثقة والأنس. لم يذكر أحد جينينجز مرة أخرى سوى قائد الوحدة الذي قال: «ذلك الفتى الذي كان معك أصيب بالانهيار حسب ما فهمت، لسوء الحظ»، بطريقة تنم عن الإحراج إلى حد ما. وتذكرت أن النار كانت تطلق على الرجال بتهمة الجبن في معركة السوم. أما الآن فصار ذلك مجرد «سوء الحظ»، وهو ما يبدو وكأنه تقدُّم نوعا ما.

لقد كتبت قصة جينينجز، ومعركتي بين العقل والمادة، لأنني يوما ما سأرغب في أن أفكر في الأمر. هذا هو الوضع كما كان عليه، بصراحة وبلا أي رتوش. في مرحلة ما سأحاول إيجاد تفسير منطقي للأمر لو كان له تفسير. سألتني ك ذات مرة، أول مرة التقيتها، عن طبيعة الوضع هنا. وجدت صعوبة في الشرح. حسنا، في وقت من الأوقات كان الأمر هكذا. لذا، لعل هذا من أجلها هي أيضا. ربما تعينني يوما ما على محاولة إيجاد تفسير منطقي، فهي تنوي كتابة كتب تاريخية، في نهاية الأمر. سيكون هذا في مجال تخصصها.

حدث ذلك في الأسبوع الماضي. وتستمر الحكاية؛ فأنا لا أزال في خضمها. حالة الجمود في أرض المعركة تعود من جديد، نجلس ونحن ننتظر المؤن والإمدادات، وهناك شائعات تقول إنه ستكون هناك هجمة كبيرة في أي لحظة. حان الوقت للتفكير مرة أخرى، نوع من التفكير على مستويين مختلفين، أحدهما منشغل بالمكان والوقت الحاليين، بالدبابة والرجال والمعدات وقائد الوحدة، بما قاله هذا الرجل وما فعله ذاك، بالطريقة التي يأكل بها ضابط زميل وفمه مفتوح (الله وحده يعلم كيف يمكن للمرء وسط كل هذا أن ينزعج من آداب المائدة عند شخص آخر). والمستوى الآخر بعيد للغاية، كأن المرء شخصان مختلفان؛ أفكر كيف كنت في إحدى المرات متهورا حتى إنني اعتقدت أنه يمكنني أن أملي أوامري على الحياة، لكنها بدلا من ذلك استدارت لتواجهني وقد كشرت عن أنيابها. أفكر في كل الأشياء التي لم أفعلها، وكل الأشياء التي ما زلت أنوي أن أفعلها. أفكر في ك التي تلعب دورا في معظم تلك الأشياء التي أنوي فعلها. قرأت نسخة ممزقة من رواية «دومبي وابنه» وأنا محني الظهر في معسكر مؤقت في ظل دبابة، والمكان يعجّ بالذباب، وأنا تائه، وانتقلت لساعات طويلة، في مكان أبعد من كل هذا، كأني مصاب بالخدر، آه! هذه معجزة الكلمات والسرد. أعد قوائم بلا هدف، قوائم طفولية، لتسلية نفسي، عن آلهة الإغريق والزهور البرية الإنجليزية والرؤساء الأمريكيين وكتّاب الرواية الفرنسيين.

مساء، في اليوم نفسه، تلف مانع لتسرب الزيت في دبابتي. أبلغوني أن بإمكاني إرجاعها وجلب بديل من الورشة الميدانية. إذن هي فترة استراحة موضع ترحيب.

هنا تنتهي اليوميات. كتبت جينيفر سوذرن تحت آخر تدوين، وبحبر بهت الآن: «قُتِل أخي في هجوم جوي للعدو بينما كان في طريقه لتنفيذ هذه المهمة».

الفصل السابع عشر

وهكذا، في نهاية المطاف، نتأمل هذا ونحن مفترقان؛ مفترقان لسنوات. لم نعد في الحكاية نفسها، وحين أقرأ ما كتبتَه أفكر في كل ما لا تعرفه أنت. لقد تخلفتَ، في مكان آخر وزمان آخر، وأنا صرت شخصا آخر، لم أعد ك التي كنتَ تفكر فيها، ك التي كنتَ تتذكرها، ولكن ربما صرت كلوديا التي لا يمكنك أن تتخيلها، وقد تنفر منها، صرت غريبة، أسكن عالما لا يمكنك أن تعرفه. أجد أن هذا يصعب تحمله.

عمري ضعف عمرك. أنت شاب، وأنا امرأة عجوز. لقد صرتَ بعيد المنال بطريقة ما، حبيسا خلف شاشة زجاجية من الزمن؛ لا تعرف شيئا عن أربعين عاما من التاريخ، وأربعين عاما من عمري؛ تبدو بريئا مثل إنسان من قرن آخر. لكنك الآن صرت أيضا جزءا مني، ذكيا وقريبا مثل كل ذواتي الأخرى، كل شخصيات كلوديا التي أتكون منها؛ أحدثك تقريبا كما أحدث نفسي.

قلتَ لي إن الموت غياب تام. نعم ولا. لستَ غائبا طالما كنت موجودا في داخل عقلي. لم يكن هذا، بالطبع، هو ما تقصده؛ لقد كنتَ تفكر في فناء الجسد. لكن الأمر حقيقي؛ فأنا أحفظ وجودك، كما سيحفظ الآخرون وجودي، فترة من الزمن.

طلبتَ مني أن أحاول أن أجد للأمر تفسيرا منطقيّا. لا يمكنني ذلك. صوتك أعلى من الرواية التي أعرفها، أو التي أعتقد أنني أعرفها. أعرف ما الذي حدث لاحقا؛ أعرف أن رومل طُرِد من أفريقيا، وأننا انتصرنا في الحرب. أعرف كل ما تبع ذلك. هذا التسلسل الموضوعي يفسر، أو

يزعم أنه يفسر، لماذا نشبت الحرب وكيف تطورت وماذا كانت آثارها. لا يبدو أن تجربتك أنت، الطبيعية وبلا رتوش، تضيف شيئا لأيٍّ من ذلك. فهي على مستوى مختلف. لا يمكنني أن أحللها وأشرِّحها، وأصل إلى نتائج، وأُكوِّن حججا. تحكي لي عن الغزلان والرجال الأموات، عن المدافع والنجوم، وعن فتى خائف؛ كل ذلك يبدو لي أوضح من أي سجل للأحداث، لكنني لا أستطيع أن أجد له أي تفسير منطقي، ربما لأنه ليس هناك أي تفسير. لو كنت أؤمن لبدا الأمر أسهل، لكنني غير مؤمنة. كل ما أستطيع التفكير فيه، حينما أسمع صوتك، هو أن الماضي كان حقيقيّا، وهو ما يصيبني بالفزع والسعادة في آن واحد. أنا بحاجة إلى الماضي. أنا بحاجة إليك وإلى غوردون وجاسبر وليسا، بحاجة إليهم جميعا.. إليهم جميعا. ولا يمكنني تفسير هذه الحاجة سوى بطريقة فيها غلوّ: تاريخي وتاريخ العالم. لأنني لو لم أكن جزءا من الكل، فأنا لا شيء.

كان الوقت متأخرا بعد الظهيرة. ترقد كلوديا وعيناها مغمضتان؛ تتنفس بصوت مرتفع، تنفُّسا خشنا غير منتظم يجعل السرير الذي يصدر منه بؤرة الغرفة، مع أنه لا يوجد أحد سوى كلوديا كي ينتبه لهذا الأمر. لكنها تستطيع الشعور بذلك، وهي تطفو وتغرق في بحر يصطخب بضجيج وجودها الشخصي. تطفو للسطح، تفتح عينيها، وترى أن السماء تمطر. كانت السماء قد أظلمت، وأظلمت معها الغرفة. تضرب النافذةَ كريات صغيرة، وينزلق فوقها الماء على شكل أشرطة، فتظهر كل الصور وراءها مشوهة، أغصان شجرة، ومن خلالها الأسطح، والمزيد من الأشجار الأبعد. ثم يتوقف المطر. وبصورة تدريجية، يغمر الضوء الغرفة؛ تعلق قطرات المطر على أغصان الشجرة العارية المتقاطعة، وبينما تشرق الشمس، تنعكس على القطرات فتلتمع بالألوان، أزرق وأصفر وأخضر ووردي. تبدو الأغصان سوداء على خلفية سماء برتقالية ذهبية، سوداء

ورائعة. تتأمل كلوديا كل هذا؛ فيبدو المشهد وكأنه قد ارتسم لمتعتها الشخصية، وتمتلئ بالبهجة، وطفرة من الفرح والرفاهية والدهشة.

تغيب الشمس وينطفئ تألق الشجرة. تظلم الغرفة مرة أخرى. تسود العتمة الآن؛ للنافذة الآن لون بنفسجي يُظهِر الزخرفة السوداء للأغصان، وصفًا من البيوت التي تمتلئ بمربعات من الضوء. وفي داخل الغرفة حدث تغير. صارت خالية وخاوية. يسودها سكون مكان ليس فيه سوى الجمادات؛ المعادن والأخشاب والزجاج والبلاستيك. لا توجد حياة. شيء ما يُصدر صوت صرير؛ الصوت التلقائي للتمدد أو الانكماش. وراء النافذة يدور محرك سيارة، وتمر طائرة في الأعلى. يستمر العالم في حركته. وبجوار السرير، يُصدر المذياع إشارة الوقت، ويبدأ صوت في قراءة نشرة أخبار الساعة السادسة.



مون تايجر

صدرت رواية «مون تايجر» للروائية البريطانية بينيلوبي لايفلي في العام 1987، ونالت عنها جائزة مان بوكر في ذات العام. كما رُشّحت الرواية في العام 2018 للقائمة القصيرة لجائزة البوكر الذهبية، وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاما على إطلاق الجائزة.

تدور أحداث الرواية إبان الحرب العالمية الثانية، فيتصادم العام مع الخاص، ويقع هذا الصِّدام في حَيِّز مكاني محدَّد هو مصر، التي تصبح في رواية لايفلي رمزا للزمن ذاته.

وكانت لايفلي نفسها - التي وُلدت في القاهرة في عام 1933 لأبوين بريطانيَّين، وعاشت في مصر حتى بلغت الثانية عشرة من عمرها - قد حصلت على ليسانس التاريخ الحديث من جامعة أوكسفورد، مثل بطلة روايتها، المؤرخة كلوديا هامبتون.

تقدم الرواية التاريخ، لا من منظور خطي تقليدي وتسلسل زمني طبيعي، بل نجد الأحداث التاريخية وأحداث حياة البطلة نفسها وقد تداخلت معا، مع نقلات زمنية مفاجئة بين الماضي والحاضر. فمن خلال البطلة، تعرِض لايفلي العلاقة المعقدة بين العام والخاص، والماضي والحاضر، واستعادة الماضي من خلال الذاكرة الجمعية والشخصية.

تستخدم لايفلي في روايتها أسلوبا سرديًا معقَّدا بعض الشيء حيث تحوي الرواية أصواتاً عدة، ويُروَى المشهد أكثر من مرة، كلٌّ مرة من خلال عينَي شخصية مختلفة من شخصيات الرواية.

وقد تُرجِمت الرواية للعديد من اللغات، وتأتي الترجمة العربية ليتعرف عليها القارئ العربي.

ISBN: 978-99906-0-609-6

رابط بيع الإصدارات على الموقع الإلكتروني

https://www.nccal.gov.kw/publications